الطبيب البدوي

مغامرات ضابط ألماني في الشرق الأوسط

للرحالة الألماني
هربرت بريتسكه
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

الطبيب البدوي

مغامرات ضابط ألماني

في الشرق الأوسط

للرحّالة الألماني

هربرت پريتسكِه

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

R512. P7 A312 2011
Pritzke, Herbert
[Nach Hause kommst du nie]

الطبيب البدوي: مغامرات ضابط ألماني في الشرق الأوسط/ للرحالة الألماني هربرت بريتسكه؛ ترجمة وتعليق: أحمد إيش. ط. 1. - أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

318 ص. ؛ 24 سم. (رواد المشرق العربي)
يتضمن مراجع ببليوجرافية.

ت د م ك: 6 - 470 - 01 - 9948 - 978

1. - - Pritzke، Herbert مذكرات. 2. الأطباء. 3. الأطباء الألمان - - تراجم.
4. الشرق الأوسط - تاريخ - - القرن العشرون. أ. إيش، أحمد. ب. السلسلة. ج. العنوان.

ترجمة كتاب: Nach Hause kommst du nie

العنوان بالإنجليزية: Bedouin doctor

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
«المجمع الثقافي»

©National library
Abu Dhabi Authority
For Culture & Heritage
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى: 1432 هـ = 2011م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

الطبيب البدوي

مغامرات ضابط ألماني

في الشرق الأوسط

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقـدّم «هيئة أبوظبي للثقافـة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجـه العموم، ومكتبة تراث جزيـرة العـرب بوجه الخصـوص، باكـورة نتاجها من هـذه الـتلسـلة الثقافيّـة التّراثيّة تحـت عنـوان: «روّاد المشـرق العربـي». وهـي مـن خلالها تعكـس اهتمامهـا بتراث الآباء والأجداد، كمصـدر فخر لشـعب الإمـارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّـة، وذلك من خـلال الحرص على جمع كافّـة المصادر المتعلّقـة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعـه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنسـاني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

«الرّحّالة» الألماني هربرت بريتسكِه..؟!

لكن بطلنا لهذا الكتاب ما كان أبداً واحداً من الرّحّالين الذين جابوا الشرق بملء إرادتهم، ممّن دفعتهم الرّغبة بالمعرفة إلى اقتحام المجهول، لدراسة آثار المشرق أو عاداته أو لغاته! إنّما على الرّغم من ذلك، مرّ الرّجل بهذه المراحل كلّها، فلقد عاش في المشرق سنوات طويلة من حياته، كانت الثماني الأولى منها (1944-1952) بغير إرادته ولم يعد فيها أبداً إلى موطنه برلين، جال خلالها بكثير من أقطار المشرق العربي (مصر، فلسطين، لبنان، السّعوديّة، عُمان)، وتعلّم العربيّة وألمّ بعادات العرب ولبس ثيابهم، وحارب معهم، وعاش تفاصيل حياتهم اليوميّة بأسرها، حتى أضحى واحداً منهم.

فكيف كان ذلك، وهو ليس بالرّحّالة، ولا أتى بملء إرادته ورغبته؟

ستبيّن لنا صفحات هذا الكتاب سلسلة شائقة من المغامرات العجيبة والمطاردات والمفاجآت والمواقف العصيبة التي تحبس الأنفاس.. إنها أشبه ما تكون بسيناريو لفيلم من أفلام الآكشن، ربما كان يصلح لبعض مغامرات جيمس بوند أو إنديانا جونز. ولكن على الرّغم من ذلك كلّه، فجميع ما ورد فيها من مغامرات واقعي وحقيقي، وبطلها لم يكن رحّالة بمعنى الكلمة، بل كان طبيباً ألمانياً ينتمي إلى قوّات المحور الألمانيّة بمصر.

* * *

لم يفتتح المؤلف كتابه بأيّة مقدّمة تروي تفاصيل الظروف التي قذفت به إلى المشرق، ما عدا أنه كان طبيباً في الجيش الألماني، التحق بقطعة عسكريّة عاملة في إيطاليا بأواخر الحرب العالميّة الثانية عام 1944، ثم انتقل في زمن لا يحدّده إلى الفرقة الألمانيّة العاملة بمصر Afrika Korps، غير أن ذلك لم يكن ذلك إبّان قيادة الفلدمارشال إرڤين رومل Erwin Rommel (ثعلب الصّحراء)، بل عقب هزيمة الألمان بمعركة العلمين، وانتقال الفرقة إلى يد الجنرال هانز يورغن فون آرنيم Hans-Jürgen von Arnim، بل يخيّل لي حتى أنه لم يخدم في الفرقة المقاتلة *Armeegruppe Afrika* التي استسلمت للحلفاء على يد قائدها الجنرال ميسّه Messe في 13 مايو 1943.

على ذلك، فمن المرجّح أن بريتسكِه انتقل من إيطاليا إلى مصر إبّان هزيمة القوات الألمانيّة في كل من البلدين، ولم يكن وجوده في مصر إلا كأسير حرب، وعلى هذا النّحو يفتتح رواية قصته في السّجن العسكري التابع للجيش البريطاني في محافظة الإسماعيليّة بمصر. هكذا تبدأ القصة مبتورة يحفّ بها الغموض، فلم نفهم من الرّجل إلى أيّة قطعة كان ينتمي، وما هي رتبته العسكريّة، وهل شارك في قتال؟ أم هل كان ينتمي إلى بعض الفرق الخاصّة مثل Waffen-SS (سريّة الحماية «شوتس شتافل» *Schutzstaffel*)؟

كل الذي ندريه عن الرّجل أنه طبيب، وأنّ أصله يعود إلى برلين، دون أن نعرف حتى عمره (لكن لعلّه ولد في حدود سنة 1920)، كما كان متزوّجاً وله ابن يدعى ڤولف ديتريش Wolf-Dietrich ولد في عام 1942. وكذلك نفهم من حديثه (أثناء تعاطيه للحشيش) أنّه كان يحبّ فتاة تدعى ليزا Lisa قُتلت أثناء قصف مقر القيادة في وارسو، دون أن يبيّن لنا إن كانت ألمانيّة أم پولنديّة، وهل هي زوجته أُمّ ابنه؟ وهل قتلت في قصف عام 1944 أم قبل؟

* * *

على ذلك، فمن الغريب أنّ مغامرات الرّجل الفعليّة قد بدأت بعدما وضعت الحرب أوزارها، وانتهت بهزيمة الرّايخ الثالث في مايو من عام 1945، وبدأت في دول العالم

وأوروبا والمشرق العربي مرحلة تاريخيّة مغايرة تماماً، شهدت بروز قطبي الحرب الباردة الكبيرين، وانقسام ألمانيا، ونشوء حلف وارسو، وإعلان قيام دولة إسرائيل الغاصبة في فلسطين السّليبة. وسنرى كيف ستكون هذه النقطة الأخيرة بالذات محطّة أساسيّة في حياة صاحبنا الطبيب المغامر، إبّان ذروة اتّقادها. فكيف كان ذلك؟

لن نعمد هنا إلى كشف النقاط الشائقة للكتاب، لئلاّ يؤدّي ذلك إلى إفساد الإثارة.. بل نترك متعة ذلك للقارئ، إنما نلخّص الأمر ببضعة نقاط: بعدما جرت للرّجل مغامرات ومتاعب لا تُعدّ ولا تُحصى بريف مصر إبّان إقامته لدى عشيرة عتيبة هناك، قرّر أخيراً التوجّه إلى القاهرة للبحث عن وسيلة للعودة إلى وطنه ألمانيا. لكنه لم يعلم أيضاً أنّ سلسلة جديدة من المآزق والمفارقات العجيبة كانت ما تزال في انتظاره.

قُصارى القول، قادته الأقدار في القاهرة إلى لقاء الرّجل الثاني في تنظيم الإخوان المسلمين، القاضي حسن الهضيبي، الذي رفض مساعدته على السّفر، وبدلاً من ذلك أرسله ضمن مجموعة من المتطوّعين الألمان للقتال في فلسطين إلى جانب القوّات العربيّة التي كانت تتصدّى للصهاينة، وكان ذلك جزءاً من الحملة التي يقودها مفتي القدس آنذاك الحاج أمين الحسيني، في الفترة العصيبة ما بين 29 نوفمبر 1947 (صدور قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين) و15 مايو 1948 (جلاء الانتداب البريطاني وإعلان قيام إسرائيل).

المهمّ في الأمر، قام هربرت بريتسكه بما كان مطلوباً منه خير قيام، ولم يقصّر في أداء واجبه على الإطلاق. وقدّم لنا في روايته للأحداث صورة حيّة لتلك المرحلة الحرجة، قد لا تهمّ فيها التفاصيل بقدر ما تهمّ العبر.

نستخلص من رواية بريتسكه للأحداث وصفاً حياً لشاهد عيان كان على درجة عالية جداً من الاطلاّع، والتقى بكثير من الشخصيّات القياديّة في الجانب العربي. ويدرك القارئ لكتابه مدى الصّورة السّلبيّة التي سادت آنذاك، من انعدام المسؤوليّة، والارتجاليّة، وضعف التنسيق أو انعدامه، والتنافس والحسد بين القادة، وانعدام الاحترافيّة في القيادة والسّياسة والقتال، وضعف التدريب العسكري، والانحدار في

النواحي اللوجستيّة من تموين وتسليح واتصال وترابط وتخطيط.

هذا كلّه أدّى مع الأسف إلى انهيار تام في الجبهة العربيّة، ولم تفلح الجهود الكبيرة التي بُذلت منذ إعلان قيام إسرائيل في ربيع عام 1948 حتى صيف عام 1949، في إيقاف تقدّم القوّات الإسرائيليّة وعصابات الإرغون وشتيرن، حتى وقعت النّكبة وتهجّر مئات الألوف من أبناء فلسطين إلى منفاهم، الذي طال أكثر من نصف قرن وما زال إلى يومنا الحاضر. ويتبدّى ذلك في نصّ بريتسكِه في وصفه للمصير المأساوي الذي تعرّضت له يافا.

هذه المرحلة بالذات (وهي أهمّ مقاطع الكتاب) تؤطّر فصلاً أغفله تاريخ بلادنا، عنوانه: العلاقات العربيّة - الألمانيّة إبّان حكم حزب النّازي لحكومة الرّايخ الثالث. يقف في واجهة هذه العلاقات بالطبع الحاج محمّد أمين الحسيني، الذي أقام في برلين عدّة سنوات، والتقى بهتلر مرتين في عام 1941 وتباحث معه مليّاً في فكرة قيام حلف بين العرب والألمان، لتأسيس جيش عربي إسلامي في الأقطار العربيّة وشمال أفريقيا، غايته محاربة الحلفاء (وخاصّة البريطانيين والفرنسيين) الذين عانى العرب من احتلالهم الأمرّين.

ولقد دعم تلك الفكرة أنّ الألمان لم يقوموا عبر التاريخ الحديث باحتلال الأقطار العربيّة، لا بل أضحوا الأعداء اللّدودين لمَن أذاقوا العرب الويلات، وفوق ذلك فإنهم حاربوا اليهود الذين كان أمرهم يستفحل في فلسطين.

لا ريب أن هذا الفصل التاريخي كانت له تداعيات كبيرة جداً لم تبصر النّور، وقلّ مَن اطلع عليها. ومن ذلك مثلاً حسب بعض الوثائق السرّيّة النازيّة التي تعود إلى أواخر الثلاثينيات، أنّ المكتب الأعلى لأمن الرّايخ RSHA (اختصاراً لعبارة: Reichssecuritathauptamt) كان بصدد إعداد مخطط للإحاطة بجزيرة العرب والسيطرة على منابع النفط، وإحكام فكّي كماشة من الشمال من خلال هزيمة الاتحاد السّوفييتي، ومن الجنوب من منطقة الشرق الأوسط، بغية قطع طريق الهند على الإنكليز.

وثمّة دراسة على قدر كبير من الأهميّة حول خفايا هذه العلاقات والمخططات، صدرت في ألمانيا عام 2006 للباحثين كلاوس ميخائيل مالمان ومارتين كوپرز:

Klaus-Michael Mallmann und Martin Cüppers:

Halbmond und Hakenkreuz. Das "Dritte Reich", die Araber und Palästina.

«الهلال والصّليب المعقوف: الرّايخ الثالث والعرب وفلسطين».

* * *

وحتى لا نطيل على القارئ، نذكر أنّ الأقدار طوّحت بالرّجل إلى لبنان بعد هذه الفترة العصيبة في فلسطين، حيث عمل طبيباً في إحدى مشافي الأمم المتحدة التي أقيمت لمساعدة ضحايا النّكبة. ثم قاده قدره إلى الهفوف بالمنطقة الشرقيّة من المملكة العربيّة السّعوديّة، حيث عمل في مكتب الصحّة هناك، كما كان طبيباً شخصيّاً لأمير المنطقة سعود بن عبد الله بن جلوي آل سعود. وشهد هناك بالمثل مجموعة جديدة من المغامرات الشائقة، فكانت حياته في الشرق الأوسط سلسلة لا تنقطع من الإثارة والمخاطر والترقّب.

وكما يذكر هربرت پريتسكِه، فقد أمضى خارج بلده ألمانيا ثمانية أعوام بلا انقطاع، لم يرَ فيها وطنه على الإطلاق، ما بين 1944-1952، وكان السبب في ذلك عدم حصوله على وثيقة سفر. لكنه في عام 1952 استقرّ به المقام نهائياً في لبنان، وحصل على الجنسيّة اللبنانيّة ممّا مكّنه أخيراً من زيارة وطنه الأم، فبكى في مطار تِمپلهوف Tempelhof ببرلين مرتين: عندما سمع لهجة أبناء مدينته، وعندما التقى ابنه ڤولف ديتريش وله من العمر 10 سنوات، وكان ابن عام ونصف لمّا تركه في عام 1944.

ولهذا السبب، عندما ألّف كتابه هذا ونشره في ڤيينّا عام 1956، فقد أطلق عليه عنواناً يعبّر عن معاناته الهائلة:

Nach Hause kommst du nie..

ومعناه: «لا عودة لك أبداً إلى الدّيار».

وهذا هو الكتاب الوحيد الذي نشره پريتسكِه. ولقد تُرجم إلى الإنكليزيّة بعنوان: *Bedouin Doctor* وإلى الفرنسيّة: *Médecin du désert*.

* * *

أخيراً، ظلّ الرّجل في لبنان يمارس مهنته كطبيب، وتزوّج مرّة أخرى ورُزق بابن أسماه روبرت، وارتضى لنفسه هذا الوطن الجديد في قلب العالم العربي، الذي أحبّه وتعلّقت روحه به. والأمر المهمّ الذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو الحصيلة الفكريّة لتجربة الرّجل، فصحيح أنه في البداية لم يفهم الكثير من خبايا الشرق وشؤون حياته، وأبدى تجاهها شيئاً من التحفّظ، لكنه خلص أخيراً إلى احترام أخلاق العروبة وقيمها، وتذوّق فلسفة الحياة العربيّة بفكرها ومُثُلها، فحمله ذلك على اتّخاذ بلاد العرب وطناً له مدى الحياة.

* * *

وبعد، فهذه اليوم الحلقة الثالثة من أخبار الرّوّاد الألمان في مشرقنا العربي، من بعد كتاب *Unterwegs am Golf* «رحلة عبر الخليج العربي» الذي نشرناه السنة الماضية في سلسلتنا هذه، للرحّالة هِرمان بورخارت. وكذلك رحلة دوروتيا فون لينكِه عبر الصّحراء إلى المدينة المنوّرة. وكلنا أمل في أن نتابع بالمزيد، لتكتمل الصّورة وتعمّ الفائدة، كما توخيناها منذ إطلاق سلسلة روّاد المشرق العربي.

ولله تعالى الحمد على ما وفّق وأعان.

جبيل، 2 ابريل 2011

د. أحمد إيبش

الطبيب البدوي

هربرت پريتسكِه

Herbert Pritzke

1 - الهروب

«ماذا، أتنوي الفرار؟!».

وشعرتُ بيد على كتفي، مما جعلني أنهار تحت وطأة الخوف. إنني لستُ بطلاً بطبيعتي، ولكن لأيام خَلَت قد نذرتُ ألا أُظهر أبداً أنني وَجِلٌ مهما حدث، وألا أتذمّر أو أفضح نفسي تحت أيّ ظرف.

لقد بدا كأن صاحب اليد الجاثمة على كتفي، وكما يبدو من ضغطها، يريد أن ينتزع مني اعترافاً ما. ودون أن أرفع بصري علمتُ أنها كانت يد الرّجل الذي ينام في السّرير المجاور. لقد كنت أرقبه بنظرات ملؤها الشكّ، وأتساءل هل هو نائم حقاً؟ أم أنه يختلس النظر إليّ من خلال عينين بين الصّحو والإغفاء؟ عندها جلستُ في حالةٍ من الضجر على حافة سريري، واضعاً قبعتي داخل جيب معطفي، ومخرجاً من تحت الوسادة سكين مطبخ كنت قد اتخذتها تحسباً للطوارئ، لكني الآن أخفيها في بطانة معطفي. طوال فترة انشغالي بعمل ذلك، كنت قادراً على إبقاء عيني على جاري. لم يكن هناك شيءٌ يدعو للخوف من باقي زملائي الذين كانوا يلعبون السّكات skat، أو يقرأون، أو يستلقون هنا وهناك على أسرّتهم، أو يقفون في مجموعات يتجاذبون أطراف الحديث. لم يكونوا يعيرون اهتماماً لما قد يفعله أحد صحبهم بجانب سريره، وعلى أي حال فإن الضوء في المهجع لم يكن قوياً بشكل كافٍ ليمكّنهم من رؤية ما كان يحدث في زاويةٍ ضعيفة الإنارة.

خبأتُ تحت فراشي عمودَ خيمة. لقد كان بطول سبعة أقدام تقريباً وقد أخذتُه معي كسلاح لأستعمله عندما تحين ساعة الفرار. كان مصنوعاً من الخشب الصّلد

وله سِنان من حديد، وفي حال هاجمني إنسان أو وحش، فإنه بالتأكيد أكبر فاعلية من سكين المطبخ. وأخشى ما كنت أخشاه أن ينظر أحد من لاعبي التكات في اتجاهي أثناء سحبي إياه للخارج، أو أن يستيقظ جاري بسبب الضجّة. خاصة وأنه من السهولة بمكان ملاحظة جسم بهذا الطول عند سحبه للخارج ورفعه للأعلى. ولكن لحسن الحظ فإن لاعبي التكات كانوا في تلك اللحظة يضحكون على بعض النكات والفتيان المستلقون على أسرتهم ينظرون إلى المجموعة الضاحكة بعيون ملؤها الوسن، بينما كان جاري، الممدّد على ظهره، قد غطّ في نوم عميق. وفي بضع ثوانٍ كنت قد أخرجت عمود الخيمة ودفعت به عبر النافذة المنخفضة المفتوحة التي تواجه سريري. تنفّست عندها الصّعداء وكنت أهُمّ بالوقوف عندما شعرت باليد إيّاها على كتفي. فكّرت في نفسي: «هناك رجل آخر يريد أن يكسب مئة لفافة تبغ مقابل تسليم صديقه إلى ضابط الاستخبارات». فقد كانت مئة من لفافات التبغ هي المكافأة المعتادة لمعلومات عن نوايا من ينوون الفرار أو محاولاتهم الحقيقية. هذا الزميل كان ينتمي على الأرجح إلى مجموعة أسرى الحرب[1] POW الذين كانوا يتجسّسون دائماً لحساب الإنكليز ويحصلون على امتيازاتٍ مقابل خدماتهم.

صحتُ عليه: «إيّاك وسوء الظنّ أيها الرجل». لكني لاحظتُ أن ابتسامةً خبيثة قد ارتسمت على وجه جاري، وأدركتُ الآن بأنه كان يراقبني طوال الوقت. تابعت: «من هذا الخبيث الذي لعب معي هذه الحيلة القديمة السخيفة بوضع عمود في سريري؟ أظن أن الهدف من وراء وضعها هو إلحاق الضرر والأذى بي». لكن محاولتي بالتحدث إلى نفسي عالياً في هذا الوضع المربك لم تؤتِ أكلها كما أردت.

فما كان منه إلا أن قال لي: «هل تحسب أن كلماتك تلك ستخدع رجلاً محنّكاً مثلي؟» واستدار نحوي، متكئاً برأسه على يده.

«فتاي العزيز، كلنا نعلم أنه إذا كان بحوزة سجين عمود خيمة، فليس ذلك راجعاً إلى هواية لجمع أعمدة الخيام، أو أنه يريد أن ينصب خيمة كاملة، إنما لأنه يخطط

---

(1) التعبير POW اختصار العبارة الإنكليزية: Prisoner Of War.

للهـرب...، وأن صديقـه عندمـا يسـتدعي الحرّاس سـيحصـل على مئة لفافـة تبغ لقاء حفاظـه علـى انضبـاط المعسـكر». فمـا كانت ردّة فعلـي إلا أن قلت لـه: «اذهب إذن! اركـض وأخبرهـم!»، نافثـاً نيران حقـدي في وجهـه، ليتسـاءل إن كان عليه أن يشـعر باسـتياء، وكيـف يجد مخرجاً لائقاً يحفظ به ماء وجهه مـن هذا الوضـع المُربك. فلوّح يده بضجر وقال:

«بإمكان أيّ واحد الهرب الآن، فلم تعد الأمور كما كانت عليه. لقد انتهت الحرب منذ ثمانية عشـر شـهراً، ولم يعد الحراس الإنكليز يعبأون كثيراً بنا، لكن لا تزال لديهم الصلاحية بإطلاق النار، مع أنهم لم يعودوا ملزمين بعمل ذلك. وإذا مررت أمام أنظار أحد الحراس، فسوف يطلق النار عليك بالتأكيد».

رددتُ عليـه بقولـي: «لماذا تخبرني ذلك؟ إنني لا أزال غير متأكد من أنني أسـتطيع الوثوق بك». عندها حلّت ابتسـامة ودّية مكان التكشيرة اللئيمة.

فاستأنف حديثه قائلاً: «نعم، بإمكان أيّ واحد الفرار الآن، ومن الواضح لي أن هذه ليست محاولتك الأولى».

«أنت على حق، حاولتُ منذ ستة أشهر مضت الفرار مع اثنين من زملائي».

«لا يبدو أنك ذهبت بعيداً».

«لا، أحدهم وشـى بنا. وسـرعان ما تمّ اقتيادنا إلى المعتقل كالمعتاد. ليتمّ إرسـالي إلـى المخيّم 307 في فنارة بمنطقة القناة حيث وضعوني في الزنزانة 6 مع عصابة ملفتة للنظر من سارقي الجثث، والشـواذ، ولصوص المخيّمات وما إلى ذلك».

«أهـذا حقاً ما حصل؟ ما كنت أحسـب أن الداخل إلى الزنزانة 6 في فنارة سـيخرج منهـا بعد ذلك. لا بد أنك أصبـت بالأمراض، ولكن أعتقد بأنك طبيب، أليـس كذلك؟ وأتصوّر بأنك تظاهرت بإصابتك بالمرض، وهكذا تم إرسـالك إلى المشـفى في فايد ونُقلت فيما بعد إلى هنا لعدة أسابيع حتى تتماثل للشفاء».

«أجل، هكذا تقريباً».

فقال لي: «لا أرى فيما أعتقد سبباً للقلق. لن أشي بك، ولكن لو كنت مكانك، لتخلّيت عن هذا الهراء. الحياة نوعاً ما محتملة هنا».

قلت: «نعم، ربما هي كذلك هنا. ولكن غداً هناك دفعة جديدة من السجناء ستذهب إلى فنارة[1] وأنا واثق تماماً بأنني في القائمة. وحتى الآن، فإن الدّوالي في قدمي اليسرى تعود بالنفع علي. فعندما كنتُ في الزنزانة 6 تظاهرت بأنها تسبّب لي بالآلام والتشنجات. وبعد أن فشل ممرّض المعسكر بمعالجة شكواي كان عليهم أن يرسلوني شاؤوا أم أبوا إلى فايد لإجراء عملية، وهذا تماماً ما كنت أسعى إليه. هنا لم يكن في البداية، من حاجة للتهرّب. وبما أنه من المؤلم جداً سحب وريد خارج ربلة ساقك، فقد كان عليّ بعد ذلك أن أعاود التمثيل ثانية. وتظاهرتُ بالعَرَج وبأقصى درجة من التعب والألم لأكسب الوقت وأستعيد قوّة كافية تعينني على طول مسيري عبر الصّحراء».

«مسير عبر الصّحراء؟»، صرخ جاري باستهزاء. «ما هو أبعد مدى يمكن أن تصله برأيك؟ ليس صعباً أن تموت عطشاً في الصّحراء، ولكن هناك طرقاً أخرى أسرع للموت. ستجد على الدوام عصابات مصرية إلى جوار المخيّمات البريطانية. إذا وقعت في أيديهم سوف تلقى مصيراً محتوماً لا مفرّ منه. إذا حسبوك رجلاً بريطانياً، على الرغم من أن مظهرك لا يوحي كثيراً بذلك، فسوف يقومون بقتلك على اعتبار أنهم يكرهون الانكليز كرههم للطاعون، وإذا أخبرتهم بأنك أسير حرب ألماني وصدّقوك، سيوسعونك ضرباً أولاً، ويسلمون بقاياك فيما بعد إلى البريطانيين مقابل جائزة معروفة ألا وهي اثنان من الجنيهات الإسترلينية. فهذا كل ما تساويه عندها. أعضاء هذه العصابات قد وُظفوا غالباً كعمال يوميين في المخيّمات البريطانية، حيث يجدون أثناء عملهم أو تظاهرهم بذلك الفرصة لسرقة الأسلحة التي يستخدمونها في غاراتهم الليلية».

أجبتُه قائلاً: «نعم، فقد لاحظت بعض الأشخاص وهم يتسكّعون بجانب السّياج

(1) فنارة قرية تتبع ناحية فايد في محافظة الإسماعيليّة بمصر.

طوال فترة العصر. إنهم أشخاص قذرون، ذوو شعر أشعث، متوحشون، بلحىً طويلة، وقد بدوا وكأنهم لم يستحمّوا طوال حياتهم. يمكن أن يتوقع المرء منهم أي شيء. ومع ذلك فعبثاً تحاول أن تثنيني، لم أعد أتحمّل أكثر من ذلك».

«إذا كان علي أن أختار الآن بين الزنزانة 6 في فنارة وبين الصّحراء، فإنني غالباً سأفعل ما فعلتَه أنت. اذهب إذن، وأبدأ في الحال. فكلما سافرت مسافة أطول في الظلام، كانت فرصك أفضل. حظاً طيباً لك!».

خطوتي التالية كانت أن أنتزع على عجل بضعة مربّعات من الصّحيفة المعلّقة على المسمار، وأن أتجه نحو المرحاض الذي كان يبعد ما يقرب من 50 ياردةً عن مهاجعنا. في غضون ذلك، حلّ المساء، الذي لم تبدّد ظلمتَه سوى المصابيح الكهربائية أعلى المخافر التي تحيط بها الأسلاك الشائكة. لم يكن الإنكليز يشكّون بوجود نوايا لدى السّجناء المرضى أو هؤلاء الذين قد تعافوا من العمليات للهروب، ولم يكن السّياج حول المخيّم صعب الاجتياز. وبدلاً من الحواجز المألوفة في مخيّماتٍ أخرى، كان هناك حبال مفردة من الأسلاك بعيدة شيئاً ما عن بعضها من مخفر إلى مخفر وهي ترمز إلى وجود حبس، القصد منها تذكيرنا بأنه على الرّغم من كوننا داخل مستشفى معسكر فإننا ما زلنا سجناء.

مشيتُ الهوينى بين الأكواخ إلى المراحيض وانتهيت بأحواض الغسيل. كان عليّ تجنّب أن أبدو مريباً، لكن ذلك كان صعباً. كان المخيّم بأكمله قد خيّم عليه جوّ من الجمود والكسل. والحارس الذي يقف في وسط المعسكر، والذي كان بوسعي أن أراه جيداً من حيث أقف، كان يبدو وكأنه قد نُوِّم مغناطيسياً بعتمة الصّحراء التي كان يحدّق فيها عبر السّياج المظلم تقريباً. كان شاباً غرّاً لم يطلق طلقة اللهم إلا في حقل الرّمي، وكلانا يخاف الصّحراء، هو وأنا. وعلى الجانب الأخر من السّياج كان الظلام دامساً. كان على الحراس سابقاً أن يخرجوا بدوريات على طول الجانب الداخلي من السياج، لكن اللصوص في الخارج كانوا يطلقون النار عليهم، بينما كانوا يقوموا بالحركة، مستغلين حالة الفوضى الناجمة ليقوموا بعمليات سطو على مخازن المؤن

ويسرقوا أيّ شيء يمكنهم الاستفادة منه - وفي الواقع لم يكن هناك من شيء لا يمكنهم الاستفادة منه.

بدا الحارس مأمون الجانب، لكن كان هناك ما يثير الخوف أكثر من مراقبي المخيّم الألمان، وهم المظليون، الذين من أجل 30 بنساً في اليوم يبقون عيناً على زملائهم، حتى لوقت متأخر مثل هذا، ولا يترددون في استخدام هراواتهم لضرب أيّ هارب راوده الحنين للوطن قبل أن يطالبوا بجائزتهم من لفافات التبغ من رقيب الحرس.

ولكن مع ذلك، أعتقد بأن هؤلاء الحرّاس لا بد أنهم قد انصرفوا من دوامهم الآن. انتظرتُ قليلاً وأنا أراقب الوضع، آملاً ألا يأتي أحدٌ من زملائي إلى المرحاض ويشاركني بمحادثة، ثم يلحّ عليّ بالعودة معه إلى المهاجع.

تأكدت أخيراً بأن مراقبي المخيّم الألمان قد ذهبوا. ألقيت نظرة سريعة على الحارس الذي يقف هناك في وسط المخيّم، وهو شابٌ يرثى لخوفه من البرّية المظلمة.

وأخذت بدندنة كلمات نشيد تيبراري[1] *Tipperary*. والآن هيا بنا نحو الخطوة التالية. أخذت أتمشّى على غير هدى، مع أنني أردتُ أن أركض بأقصى سرعة. وجدت وتد خيمتي ملقى بجانب كوخي، فالتقطه وبدأت بسحبه على الأرض خلفي.

لقد كانت المسافة من البقعة التي التقطتُ فيها العمود إلى المطابخ تقدّر بـ 50 ياردةً وعليّ أن أقطع تلك المسافة رويداً رويداً كونها تقع ضمن مجال رؤية الحارس. ولربما استغرق مني اجتياز هذه المسافة اللعينة دقيقتين في حال لم أرغب بجذب أي انتباه. وقد كان عليّ أن أبقي رأسي إلى الأسفل دون انحناء لأُقلّص شيئاً ما من طولي، وإذا استدار الحارس قليلاً إلى جانب واحد فقد انتهى الأمر بالنسبة لي. يجب عليّ حينها أن ألقي بعمودي أرضاً وأذهب لأشرح الموقف له زاعماً بأني قد أضعت طريقي،

---

(1) نوع من أناشيد المارشات العسكريّة شاع بين جنود الإنكليز إبّان فترة الحرب العالميّة الأولى، وتسميتها تعود إلى بلدة تحمل هذا الاسم في جنوب إيرلندا، ولازمتها المألوفة تقول: "It's a Long Way to Tipperary" ويبدو أن وجود المؤلف أسيراً لدى الإنكليز بمصر جعله يألف هذه الأناشيد المستعملة أثناء مسير العسكر.

ومن جرّاء ذلك سيتمّ إرسالي في اليوم التالي إلى فنارة، أو أن أُطلق قدمي للرّيح. وفي حال قمت بذلك، سوف أتعرّض لخطر إطلاق النار عليّ من قبل الحارس، وعندها سيفتضح أمري من قبل المخيّم بأكمله قبل أن أقطع بضعة ياردات.

اجتزت الثلاثين خطوة الأولى، وأهدافي تتضح مع كل خطوة. إذا اعترضني الحارس الآن، فلن يقبل أياً من أعذاري.

وبعد أربعين خطوة، ومن مكان ما من المجهول أتت صيحة عميقة مدوّية. فراودني الخوف، بالرغم من قراري ألاّ أُظهر شيئاً منه. مَن يستطيع أن يتصوّر بأن هذه الخمسين ياردة كانت بمثابة مسافةٍ لا تنتهي؟ بدت الدقيقتان وكأنهما ساعة مروّعة كاملة خَطوتُ أثناءها رويداً رويداً نحو الأمام، تحثني خطواتي على الاستعجال، وشعرت طوال الوقت بأنّ فوهة بندقية كانت مصوّبة على ظهري. أخيراً انتهت تلك اللحظات العصيبة، وأصبحتُ بعيداً عن الأنظار خلف جدار المطبخ. ولم يتبقَّ سوى بضع خطواتٍ نحو السياج، قطعتُها جرياً سريعاً، فقدماي لم تعودا تتحملان عبء السير البطيء. وأخيراً وصلتُ إلى السياج الذي طالما استطلعتُه لأجد مكاناً أستطيع أن أنسلّ عبره أسفل الحبل الذي كان بارتفاع قدم واحد عن الأرض. وجدتُ المكان الذي اخترته، وعندما استلقيت أرضاً لم يكن هنالك من متسع سوى لمروري دون أن أؤذي نفسي، إلاّ أنني كنتُ متوتراً حتى أنني مزّقتُ قطعةً من معطفي بالسلك الشائك الذي كان الخطّ الفاصل بين الحرية والعبودية.

وأخيراً أصبحتُ حراً!

حالما أصبح السّلك خلفي ركضتُ بكل قوتي للخارج ميمّماً وجهي شطرَ الصّحراء، على غير هُدى. أخذتني نشوة الحرية إلى حدّ الثمالة. كنت حراً، حراً كطير. لكني سرعان ما أدركتُ معنى تلك الحرية لتائه وحيد في البرّية تتقاذفه الرّمال المتنقلة يمنة ويسرة، قد هدّه التعب والإعياء، وبات يمشي بخطوات متثاقلة، وغاصت قدماه في الرّمال كما في الثلج الناعم.

هذا هو ثمن الحرية!

كانت مهمتي الأولى هي أن أجد الطريق العام السريع ثم أمشي بمحاذاته. فيما يُعرف بطريق الصّحراء، كان من الممكن أن أجد شاحنة بريطانية تقلّني في أيّة لحظة. كان لا بدّ لي من أن أجد طريقاً بعيداً عن الطريق المألوف الذي لا بدّ أن يقود إلى مكان ما ويساعدني في الحصول على الحرية الحقيقية. في قبّة السماء فوقي كانت النجوم واضحة جداً وبدت كأنها مصابيح تشعّ نوراً، وعالياً فوق الأفق كان الدّب الأكبر يزهو بكبرياء. وإذا استرجع المرء معلوماته البسيطة التي تلقاها على مقاعد الدراسة، لتذكّر أنه عند مدّ خط بين عقربي الساعة الخلفيين إلى نقطة تبعد خمسة أضعاف المسافة بينهما فإنه سيصل إلى نجم القطب، أو جهة الشمال بدقة تقريبية. وإذا اتجهنا تسعين درجة إلى اليسار سنكون في الغرب، وكان ذلك اتجاهي. اعتمدت حرّيتي على سيري قدر الإمكان باتجاه الغرب. بحثتُ عن نجم ساطع في الغرب وحدّدتُ وجهتي اعتماداً عليه. لكن، فكرت: ماذا أفعل إذا ضلّلني ذلك النجم وقادني إلى الضياع؟

كنت أمارس المشي قبل هُروبي إلى أبعد مساحة محدّدة يَسمح بها المخيّم، وكنت أعتقد أنني أتمتع بلياقة جدّية، إلا أن تقديراتي كانت وفقاً لمقاييس المخيّم وليس للصحراء المترامية الأطراف. كنت آمل أثناء ساعات حريتي الأولى القليلة بأن أقطع مسافة طويلة في الطريق إلى وجهتي النهائية، وكنت أشعر بأن قَدَري كان يعتمد إلى حدّ كبير جداً على مقدار المسافة التي أستطيع اجتيازها أثناء الليلة الأولى. ومع ذلك، بعد أن خضتُ لعشر دقائق عبر الرّمل الناعم، كنت مع كل خطوة أفقد شيئاً من النجاح الذي حققتُه، كنت منهكاً جداً وجرح عمليتي يؤلمني لأبعد حدّ، فكان علي أن أتوقف وأرتاح.

جلستُ على جُلمود صخر وأنا ألهث من التعب، أنظر إلى المخيّم، الذي يبدو قريباً جداً، ويربض كشمعدان في عتمة الصّحراء. مازلت قريباً جداً من النقطة التي قمتُ بالخروج منها، حتى أنني لم أجرؤ على إشعال لفافة تبغ، على الرّغم من أنني لا أحتاج لشيء مثل احتاجي لبضعة أنفاس من لفافة تبغ تهدّئ أعصابي الثائرة. ألقي

الظلام أستاره عليّ حتى شعرتُ بأني سأمسك بها بيدي. ووحده بعض النور الصّادر من ساحة المخيّم كان يشقّ ظلمة الليل، ما جعل الظلمة في أي مكان آخر تبدو أكثر حُلكة. قبضتُ على عمود الخيمة بإحكام لأشعر بالراحة، لكنني أدركت أنه حماية تامة لي ضد مستقبل غامض يتهدّدني بالجوع، والعطش، والمرض، والعزلة المروّعة، أو إمكانية مقابلة أناس ممكن أن يكونوا أكثر وحشية وقسوة من هؤلاء الذين فررتُ منهم. مازال بإمكاني العودة إلى واحة الضوء، والنظام والأمن الذي تركته. لم يكن طريق العودة أكثر صعوبة من المضيّ قدماً، وفي غضون ساعة أستطيع أن أكون في الفراش. سوف يُفاجأ جاري، لكن لن يلحظ هروبي أي شخص آخر. لقد انتهت الحرب منذ أمد بعيد، لذلك كانوا بصدد إرسالي إلى الوطن في غضون بضعة أسابيع أو، إن طال الأمر، في بضعة أشهر، فلماذا يستمرّون بإطعامنا والإنفاق علينا بعد ذلك؟ أجل، لكنهم غداً سوف يعيدونني إلى فنارة ويزجّون بي في الزنزانة رقم 6 مرة أخرى. وربما أمضي أشهراً هناك، قد تصل إلى نصف عام.

لا، إنني لا أستطيع تحمّل ذلك... لذلك سأمضي قُدُماً باتجاه الغرب! على جسدي المعذّب أن يطيع أوامر إرادتي، وإرادتي كان يحكمها الخوف من العودة إلى الزنزانة رقم 6.

عليّ فقط أن أمضي على مهل حتى لا أُبدّد قواي، إذا صحّت تسميتها بقوى. اتّبعتُ المسلك التقليدي للفارّين الألمان، أولاً مسير ثلاث ساعات للغرب مباشرة، لأتحرّر من منطقة القناة البريطانية، وبعدها أتحوّل إلى الشمال الغربي لأفضي إلى قناة المياه العذبة، التي تجري من القاهرة إلى الإسماعيلية.

كيف نجحتُ بالمحافظة على تقدّمي طوال الليل، متهادياً خطوة بخطوة بشكل آلي، دون استراحة كل عشر دقائق والبحث عن مكان ما للراحة، كان لغزاً بالنسبة لي عندما بدأ النهار، وما زلتُ لا أدري كيف فعلتُ ذلك. كان جسدي بأكمله منهكاً، لكن بعد عزمي الذي عقدتُه عندما نظرتُ للخلف إلى المخيّم، أدركتُ بأنّ عليّ ألا أتمهّل الآن، ومشيتُ متخبّطاً طوال الفجر شاعراً بأنّ كل خطوة تدنو بي أكثر فأكثر إلى الأمان.

مع بزوغ النهار تلاشى ضوء نجمي المرشد. تساءلتُ إذا كان قد ضلّلني، لكنني لم أستطع أن أتأكد من ذلك على وجه اليقين. عليّ الآن أن أجد نقاط علاّم في الصّحراء، وهو ما كان من الصعب إيجاده في فلاة لا يوجد فيها شيء مميّز، وليس بوسع المرء إلا أن ينتقي عدّة صخرات أو بقعة أرض سوداء أو بيضاء، أو، ربما شجيرة شوك هزيلة. شقت حرارة الشمس الشرقية بحدّة على مؤخرة رأسي، حتى أن دماغي قد غلى منها عندما حدّدتُ طريقي على هذه العلامات المنتقاة - وأخفقتُ غالباً ببلوغها.

استمرّت الرمال بالدّخول في حذائي وراحت تحكّ قدمي كمسحوق الصّنفرة حتى أصبحت رطبة تقريباً. ازداد ألم جرح عمليّتي لدى مواصلتي المسير وازدادت تعب عضلاتي وألمها، وبالرغم من أني كنت مُرهقاً إلى حدّ كبير ومتعباً لحدّ الانهيار، فقد منعتُ نفسي من أيّة راحة. وكنت أعلم أنني بعد قليل لن أكون قادراً على الاستمرار أبداً. بعدها، وعندما بدأتُ بالترنُّح للأمام بشكل آلي، مُنهكاً من التعب، وعلى وشك النوم في أيّة لحظة، سمعتُ أصواتاً غريبة. كنت قد دخلت لتوي إلى أرض منخفضة إلى حدّ أني لا أستطيع رؤية خارجها، عندما سمعتُ بوضوح صوت جنازير دبّابة. لم أعرف إلى أين ستذهب الدّبابات، لكن كانت لديّ فسحة وقت للزحف داخل شجيرة شوك حينما وصلت أول دبابة أعلى المنحدر. وتبعتها ثانية، ثم ثالثة، وأخيراً عبرَ اثنا عشر وحشاً فولاذياً ممهّدين الطريق لمخبئي السرّي.

لم تشكّل شجيرتي الصغيرة البائسة عائقاً أمام سلاسل هذه الحصون المتحرّكة التي تستطيع أن تطمسها بسهولة بالغة، ولم يكن لديها سبب لتحيد عن طريقها حتى تتجنّبها. استلقيتُ منبطحاً قدر الإمكان على الأرض داسّاً أنفي في الرّمل، أفكر بانفعال شديد فيما إذا كان علي أن أزحف خارجاً ليفتضح أمري، أو أن أبقى تحت خطر الدّهس بجنازير الدبابات، مع فرصة ضئيلة بأن تخطئني. ولعلمي بما تخلّفه تلك الوحوش الغامضة من خراب وراءها، حزمتُ أمري بأن أندفع بعيداً عند مرور الدبابات، ولا أعرف لماذا، قبل وصولها إليّ بمسافة صغيرة. تسلّق جنودٌ خارج الفوهات وجلسوا على أسطح الدّبابات أو استلقوا في ظلّ عرباتهم وبدأوا بالتدخين. لدى سماع دويّ الأسلحة الصغيرة والقنابل

اليدوية التي تدوّي بعيداً، استنتجتُ بأني واقع في قلب تدريب ميداني. أراحتني هذه المعرفة إلى حدٍّ ما، لكني شعرت، على الأقلّ، بعدم الراحة إلى حدٍّ كبير في المنطقة المجاورة لهذه الوحوش المموّهة بطواقمها التي ترتدي بدلاتها العسكرية والتي بدأت بالتجوّل نظراً لعدم وجود ما تقوم به من عمل. كانوا قد عرّجوا داخل مرمى حجر من شجيرتي وإذا استكشفوني فسيكون من السهل عليهم تسليم سجين فار إلى المخيّم عند الظهر. وأثناء استلقائي ووجهي مضغوط في التراب، أخذت أحدّق بقلق إلى الحصون المصفّحة وأحسب فُرَصي لتجنّب اكتشافي. تجرّأتُ بصعوبة على التنفس وتمنّيت لهؤلاء الجنود هم وتدريباتهم الميدانية أن يذهبوا إلى الجحيم، وعلى الرّغم من تعبي المفرط وثقتي بأن جسدي المتوجّع والمنهك كان غير قادر على حركة سريعة، فإنّ عليّ أن أفكر في إمكانية هروبي، أو بدلاً من ذلك أن أتابع استلقائي هناك كجثة هامدة، إذا قاد الفضول أو الضجر أحد هؤلاء الجنود إلى أجمتي الشوكية.

ثم حدث لي شيء غير عادي - شيء لم يُتوقع حدوثه أبداً. نجحتُ فعلاً بالنوم على مرأى كامل من الجنود.

وأتذكر بأني قد رفعت رأسي وأنا بغاية اليأس والقنوط، وبعدها لاحظتُ بذهول بأنني كنت أنظر غرباً نحو شمس منحسرة. نظرت حولي إلى الكآبة التي تحيط بي، فوجدت نفسي في نفس الفراغ والعزلة اللذين اكتنفاني منذ البداية. لا دبابات، لا بدلات عسكرية. كان نومي عميقاً جداً حتى أنني لم أسمع أصوات الجنود حينما بدأوا بتشغيل محرّكاتهم ولا صرير الدّبابات المتدحرجة بجانب مخبئي. ومن الغرابة بمكان أن يعاودني شعور الخوف بدلاً من الفرح، فلم أعد قادراً على الضحك. وعلى الرّغم من أن الفصل في ذلك الحين كان شتاءً، فقد سطعت أشعة الشمس بحدّة على الصّحراء بحجارتها ورمالها، وكنتيجة للنوم في أشعة الشمس تولّد لديّ صداع شديد جعل من التفكير عذاباً. قدّرتُ من موقع الشمس الحالي بأن الجنود قد أنهوا تدريبهم منذ فترة طويلة وهم الآن، ببطونهم المليئة بأطايب الطعام، يلعبون البوكر أو لعبة كراون أند آنكور crown-and-anchor. كانت آخر وجبة طعام أكلتها قبل 24 ساعة

مضـت، لكن الجوع لم يفتّ مـن عضدي أو يوهن قواي. وكانت فكـرة الحمّام البارد الذي يستمتعون به عندما يعودون إلى منازلهم تجعلني أكره هؤلاء الجنود وأحسدهم. تخيّلتهم وهم ينعمون بترف بمرشّات الماء البارد الصغيرة وبعدها يتقلّبون في قمصان نظيفة وبدلات مرتبة ويرتدون أحذيتهم دون أيّة ذرّة رمل بداخلها. كان لديهم جِعة للشرب. بالقدر الذي يرغبونه، أو ربما ماء فقط. ماء... ماء... ماء عذب من الصّنبور، بقدر ما يريدون... آه، إنني لأبذل الغالي والنفسي مقابل أن ألعق حافة زجاجة ماء.

بدا دماغي وكأنه ليس مني عند كل خطوة أخطوها، عندما تقدّمتُ ببطء ساحباً عمود خيمتي ورائي وأتوقف أحياناً لأتكئ عليه قبل أن أعاود سيري في أيّ اتجاه يقودني إليه إيماني أو غريزتي.

مضى النهار عاجلاً، وخيّم الظلام على كل شيء حولي وداخلي أيضاً. ولم يعد هنالك من شيء مهم، لا الطريق الصحيح ولا حتى سلامتي. عندما رأيتُ أنني لم أعد استطيع التقدّم بعد الآن، تركتُ نفسي أسقط في الرّمل وغرقت مباشرة في النوم ممسكاً عمود خيمتي بلا مبالاة.

استيقظتُ في اليوم التالي بصُداع حادّ دون أن أرى شيئاً سوى الصّحراء المسفوعة بالشمس والمنتهية بسديم سابح من التّراب. وبدأت بالتخبّط بلا هدف، غير قادر بعد الآن أن أثبّت عيني على نقطة علّام لفترة طويلة كافية حتى لا أفقدها. ولشدة الصّداع والعطش اللذين أصاباني لم أعد أستطيع أن أفكّر في أن يكون أيّ شخص آخر قادراً على أن يضع حتى أصبع قدمه في الماء. عندما توقفت، كان كل شيء ساكناً، ولكن حالما بدأت بالتحرّك، بقيتُ أسمع صوت صنابير تُفتح والماء يتدفّق منها. وتذكرت صنابير الماء في منزلي في برلين وبدأتُ بعدّها. كانت في مجموعها تسعة، خمسة منها للماء البارد وأربعة للدافئ. حيث يمكن للمرء أن يشرب الماء الدافئ أو حتى الحار، إذا لم يكن البارد متوفراً. ماء بارد بدرجة[1] 47! كان فمي جافاً جداً لدرجة أن لساني كان ممدّداً فيه كقطعة جلد متصلبة ويؤلمني تحريكه، وكانت شفاهي متنفّخة ومتشققة.

---

(1) يعني على سلّم فاهرنهايت الحراري، وهذا يعادل 8 درجات مئوية.

فجأة، راودتني فكرة أخرى.. لا بدّ أنني ضللتُ الطريق. لقد سرتُ غالباً فترة طويلة باتجاه الغرب. نعم، هذا ما كان. إذا تحوّلتُ إلى الشمال الغربي كما قصدت أن افعل، سأصل بعد فترة طويلة إلى الماء. كان لتقدّمي المتعثر في الوقت الحالي هدفٌ واحد - الماء - أن أصل قناة المياه العذبة ثم أمشي بمحاذاتها وصولاً إلى المنبع. لا بُدّ أنّ في القناة ماءً كافياً ليروي آلاف العطشى مثلي، لكنني شعرت بأني استطيع أن اشربه كله وحدي مع ديدان البلهارسيا وبلايين الجراثيم. وانمحى كل شيء من عقلي الباطن - ألم المسير بأقدام عارية ومتقرّحة، صداعي، أقدامي المرهقة، بحثي عن الاتجاه الصحيح، وقلقي لتجنّب الخطر. لم اهتم إذا ما هاجمني اللصوص وقطّعوني إرباً شريطة أن يمسكوا بكأس ماء أو قِربة إلى شفتي ويدعوني أتعلّم مرة أخرى ما هو الشرب، فقد نسيتُه.

أمضيتُ فترة طويلة غير قادر على أن أرى في أيّ اتجاه كنت أتحرّك، وإذا كنت قادراً على عمل ذلك، فلم تكن ملاحظاتي متّسقة. كنت عاجزاً عن أن أنظر أمامي، وكان رأسي متدلياً على صدري، وكل ما أستطيع أن أراه كان الرّمل الأصفر الذي ينتقل ويتشكّل من جديد تحت ضغط قدمي، لكني بعد برهة لم أستطع أن أفرّق بين الرّمل وحذائي، وكل ما استطعتُ تمييزه كان صفحةً سابحةً بلون بنّي مصفرّ.

وفجأةً، تعثّرتُ بهيكل عظميّ بشريّ كامل - ضحيّة أخرى للصحراء - مع عظم فخذ بشري منعزل بجانبه. وفي الجوار، كان هنالك حطام شاحنة اقتربتُ منها، لكوني لم أعد قادراً على رفع رأسي، وغدوتُ عاجزاً عن رؤية شيء حتى اصطدمتُ بها. كانت الشاحنة تربض في منخفض، وما زالت تحمل بقايا راية لفرقة عسكرية بريطانية.

أدركتُ فجأة كيف حدثت المأساة، وتملّكني عندها شعور شخص ينتظره مصير الضحايا ذاته. لا بدّ أن الشاحنة قد هُوجمت من قِبل البدو، الذين قتلوا السائق ورفيقه، ثم قادوا العربة بعيداً للخارج داخل الصّحراء، حيث أفرغوا الحمولة وجرّدوها ونقلوا كل شيء يمكن أن يستفيدوا منه على جمالهم. كانت الجثث قد جُرّدت، ولم يترك الأعراب لهم سوى أحذيتهم وأحزمتهم، لأن هذه الأشياء يمكن أن تشير إلى مصدر

الأمتعة الأخرى المسروقة، ولتوّها أظهرت لي مَن كان أولئك الضحايا ومَن هم قاتلوهم.

التهُمت الأجساد وشُفّيت عظامها بشكل نظيف بفعل الضباع، وبنات آوى، والطيور المفترسة، وأمّا الهيكل العظمي الثاني فقد مُزّق إرباً، وعظم الفخذ المُتبقي فقط يُظهر بأن صاحبه كان شاباً.

أثارت هذه العظام الجافّة مخاوفي مرة أخرى. لم يعد لي أية رغبة بعد الآن أن أُضرَب بعنف على رأسي من قبل اللصوص، وأن يؤكل جسدي من قبل بنات آوى، حتى ولو كنت في الآخرة سأطفئ حرّ عطشي بماء بارد عذب.

بالتأكيد لا.

وهكذا، عزمتُ على أن أرحل بعيداً قدر الإمكان عن منظر مأساة الصّحراء، بعيداً، إلى حيث يحملني جسدي الظمآن وخائر القوى. خانتني قواي ولم يكن هنالك سوى الخوف توحي به هذه الهياكل المروّعة، الأمر الذي ساقني بعيداً، خطوة بخطوة، عن ذلك الغور المروّع.

ولكن حتى خوفي لم يكن قوياً بشكل كافٍ لتحملني ركبي المصابة. تعثّرتُ وسقطتُ أرضاً وبدأت آلام مبرحة تنتابني ثانية. كان فمي مليئاً بالرّمل ولم أستطع حتى أن أقذف بلساني خارج فمي. إذا سقطتُ ثانية، ستكون المرة الأخيرة. ولا يزال بي رمقُ قوّة أستطيع بواسطته السير بصعوبة، بدايةً بالقدم اليُمنى ثم أزرع قدمي اليسرى بجهد أمامها.

وأخيراً وصلتُ إلى نهاية المطاف، فلم أعد أستطيع أن أتابع إلى مسافة أبعد. كانت فكرة الماء الذي أرطّب به شفاهي الجافّة والمنتفخة تتملكني. «ماء» "Wasser" كان آخر ما نطقتُ به من كلمات، وآخر ما راودني من أفكار. وإذا بالرّمل الأصفر يرتفع إليّ والأرض تصفعني بوجهي.

* * *

2 - أصبحتُ بدوياً

استيقظتُ من إغماء عميق بشعور غريب مزعج نظراً لوجود أحد ما بجانبي. كان جهداً كبيراً بالنسبة لي أن أفتح عيني على الرّغم من أنني شعرتُ بخطر مُحدق بي. ثم شعرت بيدين غريبتين تتحسّسان ملابسي واشتممتُ رائحةً غريبة. أخيراً تمكّنت عيناي من الإبصار، وكأنما كان ذلك يحصل لشخص آخر، وإذا بيدين رشيقتين تفتشان في جيوبي، ووجه ولدٍ بدوي يبلغ حوالي الثالثة عشرة، يبتسم لي بثقة عندما رآني أستيقظ.

كان وجهه ويداه بغاية الاتساخ. تابع ابتسامته بشكل وُدّي وكأنه يبرّر متابعة التفتيش بلا رادع في جيوبي وفتحات ثيابي الأخرى. وجد هناك كبريتاً وعلبة سجائر فقام بسحبها وإخفائها تحت جلاّبيته الكدرة. لكن أكثر ما أثّر بي هو نتن رائحته الذي عمّ الصّحراء. كان ذلك النتن – كما أعتقد – هو ما أعادني إلى وعيي، فقد كان شديداً لدرجة إعادة الرّوح إلى ميت.

معظم الصبية البدو الكدرين بوسع أحدهم أن ينشر بمفرده رائحة حادّة، وأدركتُ حالاً أن مصدر تلك الرائحة يعود لقطيع ماعز كان يرعى في الأرجاء في الحشائش العجفاء. من رعي الماعز تضمّخ الفتى البدوي بهذا العبق، الذي بامتزاجه مع رائحة القطيع ردّ إلي الرّوح.

بعد تفتيشي بعناية، توصّل الولد إلى استنتاج بأني لا أملك شيئاً يسترعي الانتباه، فأومأ برأسه معبّراً عن الرّضا الذي يشعر به المرء لعمل روتيني قام به جيداً، ثم بالكياسة ذاتها التي أفرغ بها جيوبي ناولني قربة الماء خاصته التي وضعها بجانبه في الرّمل.

وكنصف ميت من العطش وضعتُ شفتي على فم الكيس بشرهٍ كعِجل يغبق الحليب من ضرع أمه، وحاولت أن أمسكها حتى أشرب آخر نقطة ماء تحتويها. انتزعها الولد أخيراً من فمي، وقد فهمت منه، مع أنني لا أفهم شيئاً من لغته، أنني إذا أردتُ المزيد من الماء فعليّ فقط أن آتي معه. استنتجتُ من اللغة التعبيرية ليديه بأن علينا أن نصل خيام قبيلته حالاً حيث سأكون أفضل بكثير بعيداً عن حَرّ هذه الرّمال. شعرتُ بأني ضعيف جداً لأقف وتوسّلت إليه أن يسقيني المزيد من الماء، لكنه رفض بفظاظة إعطائي إيّاه. وعندما عدتُ وغرقت في الرّمل أدار مؤخرته وقاد ماعزه بعيداً وتركني لقدري دون حتى أن يستدبر. كان يعلم أني سوف أتبعه مدفوعاً بالعطش والأمل في مكان للرّاحة في مضارب البدو. وفي حقيقة الأمر، لقد اكتسبتُ الكثير من القوة من الماء المالح حيث بدأ جسدي ودماغي ينتعشان، وشعرت مرّة أخرى بحافز للعيش. وهكذا، نهضتُ على قدميّ وحثثتُ الخطى في الاتجاه الذي أشار إليه الولد قبل المغادرة مع ماعزه.

ولو كنت أعلم، قبل أن أنهار، بأن وجود البشر يعني وجود الماء، فلربما كنت قد وجدتُ القوة لأتابع المسير حتى بلوغهما.

بعد فترة قصيرة، لمحتُ واحةً من نخيل تلوح في الأفق. وأصبح منظر الشجيرات والنباتات مألوفاً كلّما اقتربتُ من نهاية المناطق الصحراوية وبداية المناطق الحضرية، وهناك رأيتُ بعض تفاح البحر الميت الحامض الذي يحتاج إلى رطوبة كثيرة لتحفظه حياً، حيث أن العرب يعتمدون على إيجاد الماء بالحفر في المكان الذي ينمو فيه. كنت الآن قد استعدتُ وعيي بشكل كافٍ لاستخدام عقلي ولكي أبدأ التساؤل لماذا كنتُ بطيئاً جداً بإدراك إشارات الدنوّ من نمو النبات. وصلتُ لتوّي إلى حافة المنخفض المسطحة التي كنت أسير عبرها، عندما لمحتُ مضرباً للبدو مكون من عدد من الخيام الكدرة المصنوعة من شعر الماعز، مع أكواخ مبنية من أغصان النخيل وقش الذرة المائلة بعكسها. واحتشدت حولي هناك مجموعةُ كلاب نابحة استشعرت قدومي. وكما توقّعتُ، كنت قادراً على استخدام عمود خيمتي لأهش على تلك الكلاب الهجينة الجائعة، وبضعة ضربات عنيفة لقّنتها درساً بأن الدّخيل لم يكن جديداً بالكامل على

حياة الصّحراء.

سمعتُ أطفالاً يبكون في الخيمة الأولى التي قدمتُ إليها. قصدتُ أن أدخل إليها وأطلب الماء، لكن قبل أن أصل المدخل اندفعت عجوزٌ شمطاء بلا أسنان، وهجمت علي بغصن نخيل. بدت كلماتها أبعد ما تكون عن الترحيب.

عندما أتيتُ إلى الخيمة الثانية كنتُ أكثر حظاً، طلبتُ الماء فاستمع عربيّ في متوسّط العمر بلحية يشوبها الشيب إلى كلماتي القليلة من العربية المكسّرة التي حاولتُ بها أن أشرح بأني كنت سجيناً ألمانياً فارّاً وأني أحتاج الماء. أومأ برأسه بشكل ودّي وقادني إلى خيمة ضيافة صغيرة مساحتها حوالي خمسين ياردة بعيداً تحت ظل ثلاث شجرات نخيل تمر. هنا جلبوا الي ماءً بوعاء من الفخّار - يدعونه الزّير - ذي سطح خشن يتبخر الماء من خلاله ويحفظ التبخّر الماء بارداً داخل الآنية. يدرك العرب كل شيء عن عطش الصّحراء الذي يمكن أن يُروى فقط من خلال زجاجة ماء تُشرب دفعة واحدة. ويعلمون أيضاً أن رجلاً عطشاناً بلسان منتفخ ضعفي حجمه الأصلي لا يستطيع التحدّث، وأرادوا أن يكتشفوا مَن وماذا كنتُ، قبل أن يقرّروا كيف يستطيعون الاستفادة مني بشكل أفضل.

أُذيع بسرعة بأنّ ثمّة غريباً في المخيّم. أتى الجيران وجلسوا حولي وطفقوا يطرحون الأسئلة. لكنّ المفردات العربية التي التقطتُها في المخيّم من استجواب فارّين آخرين لم تمكّني حتى من أن أفهم ما كانوا يسألونه. علمتُ فقط بضع كلمات، لكن اثنتين منها كانتا تستخدمان باستمرار في أسئلتهم، واحدة منهما كانت فلوس. حتى ولو لم أعرف معناها فقد كنت أفهم ما توحي به، فبالنسبة للبدوي، عندما يستعملها، فهو دائماً يحكّ إبهام يده بالسبابة، ملامساً أكثر النقاط حساسية في الجملة العصبيّة **nervus rerum**.

«فلوس؟» لا. ليس لدي منها شيء، هززتُ برأسي، والجنيهات القليلة التي أملكها كانت مخبأة في حذائي.

«ساعة؟» لا: ليس معي ساعة منذ أن أُخذتُ أسيراً. كان علي أن أسحب جيوبي

الفارغـة للخـارج وأُظهـر معصـميّ حتى يصدقوني، الشـيء الذي قمتُ به دون شـك. كان فقداني الكلّي للممتلكات بمثابة جواز سفر مفيد، إذ أصبح العرب أكثر وداً بشكل محسـوس عندمـا أقنعتهم أنني كنـت فقيراً مثلهـم. إنّ مظهـر الغنى يثير الفقـراء دائماً ويجعـل من الصّعب عليهم أن يعاملوا الغنيّ بإنسـانيّة. تذكـرت الدروس التي تعلّمتُها في المخيّم 307 من السـجناء الفارّين، وعلمت أن سـؤالَي «هل معك فلوس؟» و«هل معك ساعة؟» يجب أن يُردّ عليهما دائماً بالنفي.

من الحقيقي أن المصريين يكرهون البريطانيين ويؤذونهم دائماً، عندما يستطيعون، وأنهم يحبّون الألمان، وأنهم لا يميلون إلى تسـليم سـجناء فارّين لمجرّد مكافأة تقدّر باثنين من الجنيهات الإسترلينية للرأس، ولكن كان من المغري عمل ذلك عندما يُمكن جمع المال إضافةً لساعة من الألماني وجنيهين إضافيين من البريطاني. لقد كان فقري هو الحامي لي.

أحضروا القهوة بسرعة في فناجين صغيرة لا عُرى لها، وبدأتُ أشعر بالحياة تتدفّق عبر أوردتي. شـربتُ مـا لا يقلّ عن أربعة فناجين مختمرة ومركـزة. وفيما بعد تعلّمتُ أن شـرب أكثر من اثنين ينافي الذوق العام. وبلا شـكّ، فإن سـلوكي على الطاولة أثار الكثير من الأسـئلة وخاصة عندما التهمتُ تماماً كل الطعام الذي أحضروه لي: البيض المسـلوق - البصل - وقطع الخبز.

عندمـا انتهت وجبتي أدركـتُ أن الجو قد تغيّر، وقواعد الضيافة قد تمّ استيفاؤها، وهنـاك الآن عمـلٌ جـدّي ينبغي القيام به. عنـد مدخل خيمتي أضاءت نـارٌ من أغصان النخيـل المدُعّمـة بقطـع روث الجمـال - الفحم الحجري المسـتخدم فـي الصّحراء - ليتكشّـف عن ألسـنة اللهب مشـهد رائع. وحـول النار جلس رجـال القبيلة وراحوا يناقشـون مصـيري. هل عليهم أن يتخلّصوا منـي، أم يتركوني على قيد الحياة؟ صـحيحٌ أننـي لم أفهـم كلمة مما قالوه، إلا أنني اسـتمعتُ بتركيز إلى رجلٍ أشـيبَ كهلٍ جريء حيث خطب بالمسـتمعين دون توقف كمُدّعٍ عام محترف، وعيونـه المليئة بالكراهية، ونظراته التي يجلدني بها تقول لي كفى.

تبيّنتُ كلمةً واحدة طفق يعيدها ويكرّرها، ولاحظتُ أنه يُقاطع حديثه بُصاق كلما استعملها، كانت الكلمة: طلياني *Taliani*.

يا الله، لست إيطالياً. وفكّرت أنه عليّ أن أجد كلمات لأشرح بأني لم أكن إيطالياً، ولو أني بشعري الأسود لم أبدُ كألماني نموذجي. لقد تكلمتُ دفاعاً عن نفسي، لكنني كلامي كان بالألمانية التي لا يفهمُها أحد، وكلّما قال الرجل العجوز «طلياني» "*Taliani*" رحتُ أقحمُ بعناد: «ألماني» "*Alemani*". ليس هناك كلامٌ كثير للدّفاع في محكمة الصّحراء هذه.

بالقرب مني جلس رجلٌ نحيل في حوالي الثلاثين من عمره. بدا من الواضح أنه ينحدر من عرق سامي بأنفه المعقوف، لكن له شفاهاً مكتنزة كشفاه الزنوج. كانت الطريقة التي يلفّ بها شاربه الأسود الرقيق مثيرةً للفضول كصمته. لقد كان معه سيفٌ معقوف وله وشمٌ على ظهر يديه، وأمّا ثوبه الأزرق الطويل المطرّز عند الرقبة وعلى الأكمام فيُظهر بأنه كان رجلاً ذا مركز اجتماعي ما. لكنه لم يقل شيئاً عندما كان الرجل العجوز يتابع التّصريح والبصاق، وبين الحين والآخر يعدّل مسدس وِبلي أند شكوت[1] Webley & Scott في حزامه الفضي المرصّع. كنت على ثقة بأن هذا السّلاح كان في أحد الأيام سلاح رجل إنكليزي كان قد مرّ في طريق ذلك الرجل، ذلك الطريق الذي عبرتُه الآن ولكن دون أن أكون واثقاً بأن طريقي سيفودني إلى مسافة أبعد. على الرّغم من القهوة والحاجة إلى نطق كلمة دفاع وحيدة عندما سمعتُ بنفسي كيف أُتهم بأنني إيطالي، فقد أغلقتُ عينيّ تدريجياً ونمتُ. بعدها، بدا أنهم تركوني، وقد اقتنعوا بشكل جليّ بأني لست عدواً.

صباح اليوم التالي استيقظتُ على صوت طقطقة نار الشوك الشائك خارج خيمتي. كان مضيفي هناك يعمل الشاي الذي أحضره لي في كأس مع قليل من شرائح رقيقة من الخبز

(1) وِبلي أند سكوت مسدس إنكليزي اشتهر قديماً في النصف الأول من القرن العشرين، وكان مسدس الخدمة في الجيش البريطاني آنذاك. كان منه عياران: الصغير بعيار 38. إنش، الكبير بعيار 455. لكنه صار غير ملائم بظهور المسدسات نصف الآلية التي يتمّ تذخيرها بسرعة بمخزن مستقيم.

العربي المحمّص. نظر إلى بزّتي باستنكار وهزّ رأسه، وكأنه كان يفكّر: «لا يمكنك أن تبقى هكذا». نظرتُ للأسفل إلى نفسي أيضاً وتوصّلتُ إلى الاستنتاج عينه. لا، هذا فعلاً لا ينفع. وهكذا قُدّمت إليّ عوضاً عنه جلاّبية *galabiyeh* بالية قذرة وقلنسوة صوفية بُنيّة اللون. ولمساعدتي على الاستمرار في حياتي الجديدة أُعطيتُ أيضاً قدراً من النصائح الجيدة، لكن الشيء الوحيد الذي فهمتُه حقاً كان أنه لا داعي للاختلاط مع الفلاحين، فلاّحي وادي النيل، وأنّ عليّ أن أعاشر البدو فقط. تحدّث الثاني بنبرة ملؤها الغرور بازدراء عن الفلاحين الذين، بدورهم، حكموا عليّ أن أكون بدوياً من خلال ثوبي، ولم يتنازلوا أبداً أن يقولوا لي كلمةً حتى عندما سرتُ عبر حقولهم.

عندما تابعتُ مسيري باتجاه الشمال الغربي لم آخذ شيئاً معي إلا بعضاً من النصائح الجيدة من مضيفيّ العرب. لم أكن سوى رجل مشرّد مكتئب، لكن لم أعد أخشى بعد الآن لا آلام العطش ولا الخوف من أن أضلّ طريقي. وصلتُ قناة المياه العذبة قبل الظهر لأفاجأ بالتناقض الصارخ بين الرُّقعة المترامية الأطراف المقفرة والحقول الخصبة وحدائق البرتقال المرويّة بمياه القناة. حيث كانت الأرض تُروى بواسطة النظام المصري المعقد لقنوات الري، وحيث يمكن أن تنمو كافة أنواع المحاصيل، ولكن عندما يفيض الماء تتوقف الزراعة فجأة ويتمّ فتح المجال للبرّية القاحلة. وقف الفلاحون في الحقول، جلابيبهم الطويلة معقودةً خلف أقدامهم، يعزقون التربة بمعاول مسطّحة الرأس. هذه الأداة التي يدعونها الفأس (فاس) *fass* يتم استخدامها كمحراث وأداةٍ متعدّدة الاستخدامات للفلاحين المصريين. فهي تفكك التربة القاسية جداً، وتخرق سدود الرّمل عندما يأتي وقت الرّي. وقبل أن يُسمح للماء أن يجري داخل الحقول، على الفلاح أن يفتّت التربة بفأسه ليسمح للماء أن يتخلل فيها. حاولتُ أن أفهم ماذا كان يعمل الفلاحون، لكنني تجنّبتُ الكلام معهم كما نُصحت. وحتى الآن ليس لديّ أدنى معرفة بالخلفيات التاريخية للإقطاع بين الفلاحين، سُلالات الفلاحين القدماء، والبدو الذين انحدروا من الفاتحين العرب لاحقاً.

أُخبرتُ بأن عليّ أن أتابع سيري حتى أصل إلى مخيّم البدو التالي. والذي لم يكن

بعيداً جداً، وبعد الظهر بفترة وجيزة، وجدتُ نفسي بالقرب من مستوطنة بدوية بحجم كبير. لقد كنت مُنهكاً جسدياً وفكرياً، ورأيتُ خيولاً وجمالاً للركوب دون أن آبه لها، كلها مُسرجة وجاهزة، واقفة أو نائخة أمام بيوت مبنية بمهارة بالطوب الطيني. وقد تمّ تقييد الخيول لمنعها من الشرود.

كان البدو فطنين أكثر مما كنت. سمعتُ صياحاً مفاده: «ألماني، ألماني» "*Alemani, Alemani*" وكان غلامٌ في سنّ المراهقة يثب خارجاً من ظلال بعض أبنية المزرعة ويشير إليّ بيد ممدودة، برغم تنكّري، فان الصبي قد اكتشف في الحال بأني هاربٌ ألماني. شعرتُ بأنه إذا كان مجرّد ظهوري خلق فوضى كهذه، فسيكون من الحكمة، مهما يكن البدو متعاطفين، أن أنصرف طالما كان ذلك أفضل لي. استدرتُ وركضتُ قدر استطاعتي، التي لم تكن بتلك القوة، عندما سمعت حالاً عدواً سريعاً لأقدام عارية خلفي والغلام البدوي، وهو نفسه الذي رآني، أدركني وأمسكني بسرعة - لا، لقد أسأتُ التعبير - لقد ثبّت ذراعه بذراعي بإيماءة ودّية.

قال لي باللهجة المحلية: "*Istanna, Alemani!*" «استنى يا ألماني!».

بدت كلماته ودّية ومطمئنة، وهدّأت من روعي، فعقدتُ صداقةً مع الغلام وتركتُه يقودني للعودة إلى منزله. إنه يعيش في كوخ قصبي الصغير، يتكئ على جدار منزل. عندما وصل هناك مدّ حصيراً من القش ودعاني للجلوس. لم أستطع أن أفهم بالطبع سيل الكلمات التي انهمرت علي، لكنني قبلتُ دعوته للجلوس وللاستراحة. قدّم إليّ بعض البلح المجفّف الذي كان بمثابة وجبة مُشبعة، لكني لاحظت بأن كلمتَي فلوس *feloos* وساعة *sa'ah* قد تكرّرت في كلامه مرّات عديدة بعدد النوى في بلحي. لم يكن معي لا نقود ولا ساعة وكنتُ مُرهقاً جداً، حتى أني لم أتضايق بسبب هذا الصبي الجشع السّاذج، الذي من الواضح أنه لا يرى أيّ خطأ في تصرّفه، وبدا حقيقة أنه يرحّب بمنظر جيوبي الفارغة ومعصميّ العاريين. العبارة الدائمة «ساعة وفلوس» كان لها تأثير مخدّر علي. أتى صوت الولد ليبدو وكأنه التغريد البعيد للطيور، وبالتدريج استغرقتُ في النوم.

عندما نهضتُ وجدت حولي مناقشةً حيّة تدور رحاها، حيث تمكنت من رؤية بعض

الأشباح تجلس بالقرب مني في الكوخ. بعدها دخل مضيفي الشاب حاملاً حفنةً من كعك الذرة الذي طرحه أمامي على الحصير بإيماءة المُضيف. وأثناء تناولي للطعام، بدا وكأن كلاً منا مجبرٌ على الصمت. ثم دخل بدوي صغير نحيل بلحية قصيرة، رمقني بنظرة ثاقبة وجلس بجانب الرجال الآخرين، الذين أفسحوا مكاناً له بكل احترام. علمتُ لاحقاً بأنه كان زعيم القبيلة.

حالما أنهيتُ طعامي، بدأت النقاشات تدور مرة أخرى. كان واضحاً بأنني كنت الموضوع الوحيد لمحادثتهم. سمعتُ ثانيةً الكلمة الغضبى: طلياني *Taliani*. والشخص الوحيد الذي لم يقل شيئاً كان الشيخ الشاب. لكنه واصل النظر إليّ بحدّة، وكان واضحاً بأنه يحزم أمره في كيفية التعامل مع قضيتي. طرح فجأة رداءه الخارجي الرّمادي وسحب من حزامه مسدس پارابيلّوم[1] Parabellum ألماني. وأشار إلى الصّبي الذي أحضر حصيراً صغيراً وبسطه على الأرض. ثم فكّ المسدس إلى قطع ورمى بالقطع المختلفة عشوائياً فوق الحصير، وبينما أشار إلى مجموعة القطع الفولاذية، أومأ إليّ بإشارة فسترتُها بأنها أمرٌ لأُعيد تركيبها.

بارك الله في التدريب البروسي الذي علّمنا كيف نفكك ونركب جميع أنوع الأسلحة. لقد كنت أعلم مكوّنات المسدس جيداً فاجتزتُ المحنة بذكاء، وخلال دقيقة أو أقلّ كنتُ قادراً على أن أسلّم الشيخ المسدس بعد تركيبه حسب الأصول. سمعتُ همساتِ استحسان وعلمتُ بأنني قد رسّختُ هويتي كجندي ألماني.

ومع ذلك، لم أتخلّص من كلمة «طلياني» *Taliani*، التي استمرّت تبرز في الحديث المختلف الودّي ظاهرياً. وعندما أشرتُ لهم بأني أردت أن أتابع طريقي باتجاه القاهرة، دفعوني للخلف إلى الحصير قائلين: "*Istanna*" «استنّى». بدا أنهم أرادوا أن يرتبوا

(1) تشيع هذه التسمية على المسدس الألماني من طراز لوغَر Luger P-08 1908 أما تسمية پارابيلوم فهي تعني باللاتينية: حربي. وكان هذا المسدس القديم أول مسدس بعيار 9 مم، مما جعل هذا العيار يسمّى: 9mm Luger أو: 9mm Parabellum. لكن المسدس الألماني الشائع في الحرب العالمية الثانية كان Walther P-38 بينما يعود اللوغَر إلى أيام الحرب العالمية الأولى.

شيئاً، وبعدها طلبوا مني أن أبقى، وسمعتهم يقولون: «طلياني»، مرة أخرى.

أخيراً، دخل الكوخ بدويٌّ طويل نحيل، ذو بشرة سوداء داكنة بندبة حمراء طويلة على خده الأيمن، ابتدرني قائلاً: "*Buona sera*" «بونا سيرا». لم تنل لغته الإيطاليّة إعجابي، لكنني أدركتُ أنّ الآخرين أملوا أنه بتحدّثه معي بتلك اللغة، فسيكون قادراً على معرفة شيء ما عنّي. أخبره الشيخ ما هي الأسئلة التي عليه أن يسألها، فسألني الوافد بسماته ذات التفاصيل الإيطالية بخصوص ماضيّ ومهنتي، وأسري، وهروبي. كان الشيخ مسروراً جداً بالمعلومات التي قدّمتُها، لكنني أعترف بأني انزعجتُ كثيراً من دعوة المترجم لي بأن أبقى كضيف للشيخ للفترة التي أرغبها. ولقد أدركتُ تمام الإدراك بأن الدّعوة كانت أمراً.

شعرتُ بالإحباط وأنا أجلس وسط الحلقة وأنظر إلى أفرادها. حيث كان بإمكاني سماع خوار الجاموس في الخارج. فلدى البدو هنا جواميس وخيول وجمال وبقر، وكذلك أغنام وماعز وهي ماشية الرجل الفقير. كانوا قبيلة مستقرّة موسرة ولها بيوت من الطوب الطيني المنظم جيداً، بُنيت بجانب أرض محاذية للماء بالإضافة إلى الخيام التي احتفظوا بها من أيام ترحالهم، وقد دعوني إلى أن أبقى معهم، على الرّغم من أن كل ما يستطيعون تقديمه لرجل متمدّن كان حصيراً لينام عليه وبلحاً، وبصلاً، وحليباً خاثراً (لبناً)، وأحياناً لحم ضأن للأكل.

سألني الرجل ذو الندبة: «ألديك أيّة أوراق؟» فهززتُ رأسي. «وهل بحوزتك أيّة نقود؟ أو علاقات مع الناس في مصر، أو معرفة باللغات؟» كان عليّ أن أقول لا. ليقول لي بعد ذلك: «سوف يمكون بك حالما تأتي إلى المدينة. وإذا لم يفعلوا، كيف ستعيش؟ ابقَ هنا حتى تتحسن الأوضاع. تعلّم العربية وأطلق لحيتك. سيكون لديك *una bella barba*! أونا بيلاّ باربا![1]».

فكان أن بقيتُ، وأطلقتُ لحيتي وأصبحتُ بدوياً.

* * *

---

(١) التعبير باللغة الإيطاليّة ويعني: لحية جميلة.

3 - قبيلة الجمال المُسرجة

كان صديقي الشاب الذي أقاسمه كوخ القش يدعى مسلّم، أما صاحب النُّدبة فكان يدعى سليمان حمادة، وهو الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدّث معه. أصبحنا أصدقاء بسرعة كبيرة في بعض النواحي دون الأخرى، وصرتُ أنتظر عودته بفارغ الصبر عندما يكون غائباً في واحدة من رحلاته الطويلة، كما في ليبيا، حيث يقيم طويلاً، وحيث اكتسب معرفة سطحية باللغة الإيطالية.

قال لي يوماً: «سوف ندعوك سلامة سليمان. فلا أحد يستطيع أن يلفظ اسم هِربرت بريتسكِه Herbert Pritzke، وبالنظر لكونك هارباً، فإنه من الأفضل أن تنسى اسمك القديم»، وكانت هناك أسباب أخرى أرادوا من أجلها أن يعطوني اسماً عربياً.

لم يتضح لي ماذا كان يفعل البدو هنا، ومن أين كانوا يحصلون على أسباب العيش الجيد. لم يكن عيشهم قائماً على مواشيهم بالتأكيد. وعندما يأتي رجل من أقصى الصّحراء يسعى على جمل ركوب سريع داخل القرية معلناً اقترابه بصيحات حادة، كما يحدث عادة، كنت أزداد يقيناً بأن الأشياء ليست على ما يرام. أثارت الرّحلات الليلية المتعاقبة على الخيول ومتون الجمال شكوكي، وأخيراً بدأت أتذكّر بأنه في قصص المغامرات التي كانت تسلّي صباي كان البدو يبقون جمالهم مُسرجة على الدّوام بحيث يستطيعون التنقل بسرعة حالما تداهمهم الأخطار.

ينقضي الشتاء برتابة مُميتة. ومع قدوم الرّبيع تزدان الأرض ببساط رائع من العشب الخشن والأزهار البرّية الممتدّة في الصّحراء، ولكن عندما تزداد الشمس حدّة فإنّ جمال الفصل قصير الأجل يذوي، وتعود الأرض صحراء مرة أخرى. لم يكن لدي

شـيء أفعله سـوى التكيّف مـع حياتي الجديدة بقدر ما أستطيع، وهكذا بـدأت أتعلّم العربيـة. كان مسـلّم الشـاب تواقاً جـداً وصبوراً كمعلم. وأيّ شـيء يصعـب عليّ من الكلمـات التـي كنـت أكتبها بعقب قلم فـي كتاب تمريـن صغير، كنت أحيلـه إلى ذي النُّدبـة. كانت الورقة التـي دوّنتُ عليها ما قد تعلّمتُه تعني لي أكثر من المواضيع القيّمة التـي عجّـت بها القرية: الأسـلحة الصغيـرة الحديثـة، البوصلات، المناظيـر الميدانية للاستخدام الليلي ومعدّات أخرى تستخدم في الحروب الحديثة.

ذات ليلـة أحضـر لي ذو الندبة كُتيّباً صغيراً ألمانيـاً - عربياً ذا عنوان مطبوع بأحرف ذات طراز جرماني قديم على غلاف كرتوني جميل. أخبرني أنّ لديه صديقاً في القاهرة هو مَن وجد له الكتاب، وكان مبتهجاً جداً بأنه تمكّن من تقديم هذه الخدمة لي. جلستُ الآن لأعمل بجدّ، وكلّما وجدت واجبي أكثر صعوبة رحتُ أكافح الصعوبات بحماسة أشدّ.

بـدأتُ أفهم مـاذا كان يعني غوتِه Goethe عندما قال بأن تعلّـم لغة جديدة يفتح باباً لعالم جديد. في فترة تدريبي واطلاعي البطيء في خفايا هذه اللغة الصعبة تعلّمتُ أكثر بكثير من القواعد والكلمات التي كانت جديدة ومهمّة. وبدأتُ أدرك معنى أشياء كثيرة كانت سابقاً مبطّنة بالغموض.

وحـده سـرّ الرّكـوب الليلي في الصّحراء بقـي غامضاً لي، إلى أن ألفيـتُ نفسـي في إحدى الليالي مُكرهاً على أن أخرج مع الآخرين في البرّية...

«سلامة، انهض يا سلامة!».

نهضـتُ لأجد مسـلّم جاثياً بالقرب مني يهزّ كتفي قائلاً: «قُمْ، علينا جميعاً أن ننطلق بعيداً. الشرطة قادمة لتفتيش القرية وستكون هنا خلال عشر دقائق».

لـم يكن هناك من وقت لطرح الأسـئلة. كنت أنام بثوبـي الوحيد، الجلاّبية الممتازة التي يتم تنظيفها الآن بانتظام، فلم يكن عليّ سـوى أن أنتعل حذائي وأرتدي قلنسـوتي الصّوفية. دفع مسلّم بزجاجة ماء في يدي ووضع بضعة تمرات جافّة في قماشة قبل أن

يسرع بي إلى الخارج إلى حيث يرقد الجمل.

تنبهت القرية بأكملها. وهرع الرّجال، والنّساء، والأطفال محمّلين بحزم وطرود مسرعين خارج المنازل في الصّحراء.

أمّا أنا فتوجّب عليّ للمرة الأولى في حياتي أن أمتطي ظهر جمل، أو بالأحرى أن أمتطي ظهر دابة. علّمني رجال القبيلة حالاً ركوب الجمل قبل تعليمي اللغة العربية. فبالنسبة لهم الرّكوب والهروب بعيداً وإطلاق النار كلها كانت أكثر أهمّية من القراءة والكتابة.

وضع مسلّم الرّسن في يدي وقفزتُ إلى السّرج. تشبثتُ بقربوسَي السّرج بيديّ الاثنتين، ولكن حالما أعطى الولد كلمة الأمر ونهض الحيوان على أرجله الطويلة الخلفية، كنتُ على وشك السقوط. استعدتُ توازني بصعوبة عندما انتصب الجمل على قدميه الأماميتين، محركاً قربوسَي السرج ممّا آلم فخذيّ. وقبل أن أفتح فمي متذمّراً، كان مسلّم قد صاح: «يلا!» وضرب الجمل بصفعة على المؤخرة. وثب الحيوان للأمام وركض في الصّحراء وأنا أتخبّط على ظهره.

صحيحٌ أن الزنزانة 6 كانت سيئة، لكن ما أنا فيه الآن يفوقها سوءاً. انطلقت الدّابة لا تلوي على شيء، ورأيتُ مجموعات من الرّجال في ضوء الصباح الخافت يدفنون في الرمل الأشياء التي أتى بها النساء والأطفال خارج القرية. رأيت في مكان ما قربي راكباً على جمل كُميت يعدو مسرعاً لا يُشقّ له غُبار في الصّحراء. أعتقد أن ذاك لا بدّ أن يكون سليمان.

يلقّب أهل البادية الجمل «سفينة الصّحراء» وهو اسم على مسمّى، فعلى ظهر هذا الجمل شعرت وكأنني أُبحر في يَمّ متلاطم الأمواج. قبضتُ على القربوس الأمامي للسّرج بيديّ كلتيهما وواصلتُ التقدّم. ونظراً لعدم وجود رِكاب أو ما يمسك بقدمي المرء، فعليه أن يبقى ممتداً فوق انحناءة رقبة الحيوان، الأمر الذي أعطاني شعوراً بقلق ويأس كبيرين. سبّب لي الارتجاج الشديد اضطراباً في أحشائي، وأحسستُ كأن

أمعائي قد خرجت من مكانها، وقد بلغ قلبي حنجرتي. علاوةً على ذلك، لم أعرف في أي اتجاه من المفترض أن نسير، وبما أن اللجام قد انزلق من يدي منذ فترة طويلة، فلم أستطع السيطرة على سير الجمل المتهوّر. وعندما خارت قواي ولم يعد باستطاعتي أن أواصل السير خطوة أخرى، دنا جمل عربي أصفر قريباً إلى جانبي وإذا بيد خبيرة تمتد لتمسك حبلي المتدلي. سُحب جملي وتوقف عن السير بأنفاس متسارعة، ودون انتظاره لينوخ، انزلقتُ فوق رقبته وسقطتُ في الرمل.

قال لي من أنقذني: «تعال، تحتاج شربة ماء». وناولني قِربة مائه. رفعت بصري بيأس ورأيت أنه كان حقاً سليمان وأنه كان يمتطي الجمل الكُميت الذي لمحتُه لدى انطلاقنا إلى الخارج. دون زهوّ أو غرور البتّة بعدوه السريع، نظر إليّ بهدوء. حتى أن مطيّته، وهي ناقة من السودان فاتحة اللون، وواحدة من أجمل الحيوانات التي شاهدتُها على الإطلاق، لم تكن تلهث.

وأردف قائلاً: «علينا أن نتابع»، «الأرض هنا مكشوفة جداً أكثر ممّا ينبغي».

لدى أهالي الصّحراء موهبة عجيبة في إيجاد منخفض في الأرض إذا رآه شخص مثلي قد يبدو له مسطحاً. في واحدٍ من هذه الوهاد أوقف ذو الندبة الجملين اللذين ناخا أرضاً، ثم وقف على قمة المنحدر ونظر بإمعان باتجاه القرية. كان يحمل بندقيّة محشوّة وحزاماً مليئاً بالخرطوش إضافةً إلى مسدّس ألماني وخنجر، وكان معروفاً بلا شكّ ما سيقوم به إذا اقترب عدو.

* * *

4 - اعتراف ذي الندبة

مَـن كان سـليمان هذا، الذي اعتاد أن يغيب خارج القريـة في ظلمة الفجر ولا يعود أبداً إلا بعد حلول الظلام، والذي قد يبقى غائباً، أحياناً لعدة أسـابيع معاً، دون أن يخبر أحداً متى سيعود؟ كما أنه يحتفظ دائماً بسـلاح في متناول يده. وعندما يقضي الليل في القريـة فإنـه يجلس أو يقف في وضعية واحدة وظهره قبالة الجدار في موضع يسـتطيع منه أن يرى الباب والنافذة أو أي شـخص آخر من المحتمل أن يقترب. رأيتُه سـابقاً ينام وهو بكامل عتاده ببندقيّته ومسدس في متناول يده وحزام خرطوشه حول خصره. كان ينام نوماً خفيفاً كحيوان برّي، وفي الحقيقة لم يكن أبداً يستغرق في نومه.

لدى جلوسنا معاً أعلى الغور الصّحراوي قال لي: «لا بدّ يا صديقي أنك محتارٌ في أمري، وأن الكثير من الأسئلة تدور في خلدك عنّي».

فاجأني سؤاله حتى أني لم أحِر جواباً له، فما كان مني إلا أن قلت له: «كيف علمت ذلك؟ فإنك لم تكن حتى تنظر إليّ!».

«يسـتطيع المرء أن يعلم دون أن ينظر، ويسـتطيع المرء تعلّم ذلك. عندما يقرأ رجل مثلي أفكار رجل آخر يفكّر، فلربما، توقف ذلك الرجل عن التفكير بعدها. إن أفكارك يا صديقي مختلفة، فهي لا تنطوي على أيّة مخاطر تتهدّدني، ولكن عندما تتأمل وتسـأل نفسـك مَـن أنا، وماذا أفعـل، ولماذا أعيش مـع قبيلة غريبة، وكيف أنهم يسـمحون لي بالعيـش بينهـم ولكن دون أن أكون مرحبـاً بي، ولماذا ينظر القرويـون إليّ بازدراء، قد تُصاب بالحَرَج بعدها لكوني صديقك. لكن، لو فكّرت ملياً، ألا تجد قواسـم مشـتركة كثيرة بيننا؟».

لـم أعد أعـي ما يقصد، لكنني لـم أرغـب بمقاطعتـه. وتابع: «أوَليـس كلانـا منبوذاً، ومُطـارداً، ومشـرّداً، ومُجبراً على العيـش فـي أرض أجنبية؟ أنت تعلم بأني لسـت ابن هذه المناطق، لكني آتٍ من ليبيا التي لا تختلف كثيراً عن هذا البلد. بماذا تهمّ الحدود بالنسبة لنـا نحـن البدو؟ مَـن هم الذيـن سـيتفرّقون إلى عشـائر وقبائل فـوق أراضينا المنفصلة؟ إنني أعيش هنا بين الأغراب لأنني لا أستطيع بعد الآن أن أعيش مع قبيلتي الأصلية».

كنت سأسـأل لماذا. لكنه ربما تنبأ بفكرتي عندما نظر خارجاً نحو الصّحراء، ثم بدا وكأنه عليه أن يجيب على سؤالي الذي لم أطرحه بعد.

فقـال لـي: «عندمـا بـدأت الحـرب»، وكأنـه يتحـدّث مع نفسـه، «وقـع العرب في معسـكرين. بعضهم فضّل الألمـان والإيطاليين، نتيجة بغضهم للإنكليز والفرنسـيين، الذيـن حكموا معظم العالم العربي. وأراد الآخـرون أولاً أن يطردوا الإيطاليـين خارج ليبيا لتكون لهم فرصة الفوز بغنيمة سهلة. كنت شاباً في تلك الأثناء والتحقتُ بحماسة بالصّراع من أجل الحرّية ضد الإيطاليين. جمعتُ مجموعة من الموالين ونفّذنا غارات ضد الطوابير الإيطالية وسـرقنا وأحرقنا عدداً من مخازن مؤنهم. كنا في أعين الإنكليز حركـة مقاومـة فزوّدونا بكل ما نحتاجـه، لكن وكما تعلم ففي الحـرب يمكن أن تتغيّر موازيـن القوى من لحظة لأخرى. وعندما استسـلم الإيطاليـون وانضمّوا إلى الإنكليز ضد الألمان، لم يكن بإمكاننا اعتبارهم كحلفاء فجأة بعد أن كانوا أعداء. هذا ليس في مقدورنا، وهكذا بقينا كما كنا من قبل. ذات مرة عندما هاجمنا مسـتوطنة إيطالية أطلق الإنكليز علينا النار وقبضوا علينا بسـيارات مصفحة مثل ذئاب مسعورة عبر الصّحراء. قليل فقط من عصبتي مَن نجا. كنتُ واحداً منهم، لكني لم أستطع أن أعيش بعدها في ليبيا».

أعتقد بأن سليمان لم يتحدّث لأحد عن نفسـه وحياته لأي شخص آخر منذ سنوات طويلة. لذلك لم أرغب في أن أقاطعه حتى بإيماءة تعبّر عن الدّهشة أو الإعجاب. تابع: «بدوي بلا قبيلة كحبّة رمل في الهواء. ذهبتُ هنا وهناك وعشـت كحيوان متوحّش في

البريـة، أعـادي أي رجل وبندقيتـي هي صديقي الوحيـد. لم أعمد إلى أسـر أحد قطّ، فوجدهم الميتون فقط مَن لا يروون الحكايات. طاردني الإنكليز عبر مصر وفلسطين، وفي أحد الأيام تعرّضتُ لخديعة من إحدى القبائل التي قضيتُ الليل عندها».

علمـتُ الآن لمـاذا يجلـس ذو النُّدبة وظهره دائمـاً إلى الجدار وعينـاه باقيتان على الأبـواب والنوافـذ. توقـف للحظة وكأنه يقـرأ قصّة حياتـه المطارَدة من دفتـر يوميّات وعليه أن يقلب الصفحة، والصفحة التالية كانت الأكثر رُهبة على الإطلاق.

«كنـتُ مرهقاً جـداً كوني مطارداً ومُـــاقاً بالقـوة، حتى أنني وجدت حقـاً في حياة السّـجن راحة ونجدة. حُكم عليّ بخمس عشـرة سـنة مع الأشغال الشـاقة في محاجر طُـرّة. وفي سـعيي في تلك الحلقـة المفرغة وجدت أنـني لا أسـتطيع أن أتحمّل حياة حيوان محبوس في قفص. ورأيتُ أنه من الأفضل لي أن أكون شـخصاً مُطارَداً! وبينما كانـت تهـبّ عاصفة رملية وثبتُ فـوق الحارس واقتلعت منه بندقيتـه - ها هي ذي».. وأثناء حديثه ضربَ مقبض سـلاحه برقّة نوعاً ما. «نجحتُ بالهرب، ومنذ ذلك الوقت أصبحـت بندقيتي العالم كله بالنسـبة لـي - قدري وحياتي. أكسـب رزقي بقتل الناس مقابـل مكافـأة. أحيانـاً يأتي ورَثـة فلاح غنـي ويسـتأجرونني لأقتل مورثهـم، أو ربما يستأجرني مَن كان سبباً في حَمل فتاة لأقتلها مواراةً للفضيحة...».

بعـد اعترافٍ كهذا لم أعد أشـعر بأني قادر أن أدلي بأيّ تعليق أو أسـأل أي سـؤال. الجواب الأخير جاءت به الصّحراء فيما بعد، حيث وُجد ذو النُّدبة مضرّجاً بدمائه بعد مبارزته لشخصٍ ما كان أسرع منه في استلاله السّلاح.

أخبرنـي فجأة بنبرة مختلفة تماماً أن باسـتطاعتي العودة الآن بأمـان إلى القرية. «لا بُـدّ أن الغارة قد انتهت بالتأكيد». وقال لي: «سـآتي معك جزءاً من الطريق حتى تصبح البيوت ضمن مرمى نظرك».

بعدها لم أسـتطع أن أمنع نفسـي من أن أسأله سؤالاً بـسيطاً، يُعدّ في تلك الظروف سؤالاً سطحياً أثناء اقتيادنا للجمال خارج الغور، ألا وهو: «كيف اكتسـبت هذه الندبة؟».

ضحك باستهزاء.. «أتمنى لو أستطيع أن أخبرك أنّ رجلاً قد عمل هذا الثلم في وجهي، لكن الحقيقة هي أنّ تلك الخبيثة الصغيرة، ابنة الشيخ صالح عبد الله، قد خدشت خدّي بسكين مطبخ».

انتهت الغارة. وتوارى سليمان على ظهر دابّته الجميلة في الصّحراء القاحلة ليظهر في اليوم التالي أو اليوم الذي بعده أو في أي تاريخ آخر، عندما يلتقط أنفاسه من اشتباكاته الكثيرة. قبيلة الجمال المُسرجة لم ترحّب به، لكنهم يقبلونه على مَضَض بينهم.

هل يعلم هذا الرجل الكثير حقاً؟ على أيّة حال فقد تلاشى بينما كان الآخرون يدفنون في الرّمل الأشياء التي يجب ألاّ تقع في يد القانون. وربما لم يكن يعرف كل شيء.

* * *

5 - القضية عند تل الكبير

«عليّ أن أتحدث معك، يا سلامة».

وسار الشيخ الشاب دون أن يراه أحد إلى نار المخيّم ولمسني على كتفي. وأومأ إلى جاري سويلم وبدوي آخر ليرافقاه. وعلى مسافة عشرين ياردةً بعيداً عن النار أقعينا على قفانا بالطريقة العربية وانتظرنا الشيخ ليتكلم.

بدأ كلامه بقول: «اسمع، أتى أحد رجالنا بخبر جيّد اليوم. يبدو أن هناك بعض الجنود الألمان عند محطة ضخّ جانب تلّ الكبير يريدون أن يبيعونا بنادق وذخيرة حربية. لكن معلوماتنا ليست مؤكدة بتفاصيلها، إذ أنه يعلم قليلاً من الإنكليزية ولا يتحدّث الألمان العربية. ووفقاً لذلك أعدّ ترتيباً لمقابلة غداً مساءً عند الساعة التاسعة».

لم أكن مرتاحاً عندما أشعل الشيخ سيجارة بهدوء ونظر حوله حتى وقعت عيناه عليّ. وقال لي: «أنت يا سلامة، سوف تذهب مع هذين الرجلين لتقابل الألمان» - أمرٌ صريح. «ستفهم كل الأسئلة الضرورية، وخصوصاً فيما يتعلق بعدد البنادق وكمية الخرطوش. بالإضافة إلى ذلك سوف تقوم بمعاينة أولئك الرّجال بعناية، وبذلك سنعلم إذا كان بالإمكان الوثوق بهم».

وحتى أكسب الوقت، وإذا أمكن، عليّ أن أفكر بمبرّر ما للتهرّب من العمل، سألتُ عدداً من الأسئلة حول موقع محطة الضخّ وعن كيفية حراستها. طلبتُ رجلاً رابعاً ويدعى مسلّم الشاب، حيث سأحتاج لرجلين معي على الأقل كحماية، في حال كان الأمر عبارة عن كمين، وثالث ليعتني بالجمال. وافق الشيخ على اقتراحاتي ولم يكن أمامه إلا أن يوافق.

لكوني ألمانياً، كانت وظيفتي أن أنجز هـذه الصفقة الغامضة مع الألمان الآخرين، ولكـن لم أسـتطع أن أكـون متأكداً من المعلومـات التي أملكها بحيـث لا يكون الأمر عبارة عن مصيدة. إذا جرت الأمور بشكل خاطئ، سوف أرسَل إلى مخيّم التعذيب من قِبل البريطانيين مع إمكانية أن يُحكم عليّ بالسـجن من قِبل المحكمة المصرية. ومع ذلك، كان مُضيفيّ يطلب عوني للمرة الأولى، ولديهم بعض الحقّ في أن يتوقعوا مني أن أعمل شيئاً لأردّ حُسن ضيافتهم.

منذ أن أغارت الشرطة علينا تدرّبتُ على ركوب الجمل لعدّة ساعات كل يوم، لكن الرّكـوب الطويل من الفجر إلى الظهر، في جو بـارد في البداية وحارّ ملتهب فيما بعد، جعلنـي أدرك كم أحتاج حتى أكـون خبيراً وراكباً لا يتعب. إذ أن راكـب الجمل يجلس فوق السّـرج كما يجلس على كرسـي دون وجود شيء ليمسـك به، ودون القدرة على التأثيـر على المركوب عن طريق ضغط السّـاق أو الـرّكاب. لذلك فإني وجدتُ أنه من المسـتحيل تقريباً أن يبقى الراكـب في منتصف السّرج.

نُفّذ المشروع كمهمة استطلاعية في حرب، وكان على الأقل بنفس الخطورة. حيث تركنا الجمال في رعاية مسـلّم الشـاب في وادٍ متوارٍ عن الأنظار يبعد عدة أميال عن تل الكبير، يجري تحته جدول جاف. وبعدها تحرّكنا خِلسـةً على الأقدام باتجاه المخيّم. عاينـتُ الأرض طويـلاً وبعناية من خلال زوج مـن مناظير الميدان من طـراز زايس[1] Zeiss التـي باعهـا للبدو مدفعي ألمانـي أو حارسـه البريطاني. كان السّـجناء الألمان يعملون تحت إشـراف الإنكليز أمام المخيّم الضخم المطوّق بالأسـلاك، الذي يحوي مسـتودعات ذخيرة، ومخازن أسـلحة وورش إصلاح متنوعة. لقد اتّحد أعداء الأمس ليتاجروا بممتلـكات المخيّم للبدو أو التجّار المصريين. وكثيراً ما حُمّلت ذخائر على

(1) التسمية بلفظها الألماني الأصلي: تسايس، نسبةً إلى العالم والصناعي الألماني كارل تسايس Carl Zeiss (1816-1888)، الذي أسّس شركة رندة لصناعة العدسات والأجهزة البصرية في مدينة يينا Jena. وما تزال شركة كارل تسايس في أوبَركوخن Oberkochen بألمانيا إلى اليوم واحدة من أعظم مصنّعي العدسات والمجاهر والمراقيب الفلكيّة والأجهزة العلميّة والمخبريّة في العالم.

شاحنات في وضح النهار وأُرسلت مع بيانات كاذبة إلى تجّار غير مرخصين.

وهناك ميّزتُ محطة الضخّ - وهي عبارة عن مضخة مبنيّة جيداً بين كوخين خشبيين. قلتُ في نفسي إذا كنا لا نريد مفاجأةً بغيضة أثناء مساوماتنا فعلينا أن ندخل إلى المحطة باكراً قدر الإمكان وبالتأكيد قبل الساعة المحدّدة، حيث سيحلّ الظلام عند السابعة وسيمنحنا ذلك ساعة إضافية إذ أن موعدنا كان عند الثامنة.

أرسلتُ واحداً من رفاقي بتعليمات ليشقّ طريقه ببطء للأعلى إلى المخيّم ويواصل التحرك بين المخيّم ومحطة الضخّ. وإذا هدّده خطر فعليه أن يومئ لنا بمشعله. لم يكن هناك شك بأننا كنا في مغامرة خارجيّة خطرة ولذلك فقد تسلّحنا جيداً. حمل سويلم، الذي ذهب متقدّماً أمامي، بندقيةً بلجيكيّة وأرسلوا إليّ بمسدس إيطالي ذي عيار كبير بدا وأنه قد خرج من المتحف. لقد كان بديع الشكل، لكنه كان كبيراً وثقيلاً إلى حدّ الإزعاج.

عندما وصلنا محطة الضخّ، همستُ لسويلم ليقف عند المدخل. كانت الساعة السابعة. قلتُ له: «لا تدَعْ أحداً يدخل، وتذكّر أن تراقب المخيّم جيداً. يمكن أن تأخذ إشارة من صديقنا، فلا يمكن للمرء أن يتكهّن».

من محطة توليد الطاقة سمعنا أصوات المحرّكات المنتظمة لشاحنات الدّيزل. أُغلق أحد الأكواخ ولكن كان هناك ضوءٌ في كوخ آخر. كنت متأكداً أنه في هذا المكان هنا كان يوجد أسرى الحرب الألمان. وعندما رُفعت السّتارة جانباً، والتي تحلّ محل الباب في الطقس الحار، ألقى سويلم نظرة سريعة داخل الكوخ وبعدها توجّه ليأخذ موقعه عند المدخل.

«مساء الخير يا رجال»، صحتُ بصوت مرح محاولاً أن أدخل الجو. كان هناك في الغرفة خمسةٌ من الألمان في زيّ أسرى حرب. اثنان منهما كانا مستلقيين على سريريهما، وثبا إلى الأعلى عندما سمعا صوتي. كانت المفاجأة عظيمة جداً حتى أنّ الثلاثة الآخرين الذين كانوا يلعبون الورق وضعوا أيديهم على الطاولة. نظروا

إلـيّ جميعهم بفتـور، ليقول لي أحد لاعبي الورق: «مسـاء الخير!». ثـم أضـاف قائلاً: «اجلـس»، مشـيراً إلى مقعد خشـبي طويل، ولكـن قبل قبول الدعـوة أجلتُ نظري في أرجاء الغرفة، مركزاً بشـكل خاص على الرجل الذي بدا وكأنه مسـؤول. كان شـخصاً بليداً، بديناً بعض الشـيء وفوق الثلاثين من عمره[1]، وله شَعرٌ يشبه أعواد ثقاب مُطفأة وشارب قصير خشـن - رقيب أول ألماني نموذجي.

علـيّ أن أكـون حـذراً. ففضـلاً عن مظهـر الرّجل هنـاك العديد من الأمـور التي لم تعجبنـي - وكل رقيـب أول جيد سـيكون فخوراً أنـي تعرّفت عليها وكرهتهـا. لقد تمّ ترتيب الأسرّة الثلاثية بأناقة بالغة، حيث تم وضـع الوسادات تحت البطانيات المزمومة بشـكل متناسـق فـي كل جهة - كل شـيء بترتيب ممتـاز. وفكّرت للتوّ بـأنّ ثكنة على هذا المسـتوى من الانضباط والترتيب ستحدو بالأموات من الجنود إلى الاسـتلقاء في قبورهم بمنتهى الأناقة، وعندها لن تتم المتاجرة بممتلكات الجيش. فكل هذا الالتزام بالنظافة والأناقة يتعارض مع النشاطات التجارية المحظورة.

أصدر آمر الثكنة أوامره لأحدهم قائلاً: «اذهـب واجلـب الشـاي، فوغل».

وهكذا فإن واحداً من لاعبي الورق يدعى فوغل[2] Vogel، ذهب وجلبه.

تحدّثنـا ودخّنا حتى اسـتوفينا شـاينا. رددتُ إحدى سـجائر فوغـل ولففتُ واحدة لنفسـي مـن تبغـي الخـاص. وإذا كانت التعابيـر التي لاحظتُهـا على الوجوه الخمسـة تعكس كرهاً أكثر من إعجاب، فلا أستطيع لومهم. لقد نزلتُ إلى الحضيض، إذ عشتُ مع أهل البرّ وعملتُ كمترجم لهم في صفقاتهم الغامضة.

وقلت لهم: «حسـناً، ماذا عن البنادق؟». حيث يبدو أن لا أحد يودّ أن يفتح الموضوع، فشعرت أن عليّ أن أفعل ذلك.

---

(1) لعلّ هذه الملاحظة تدلّ على أنّ هربرت بريتسـكِه كان في أواخر العشـرينات من عمره. وربما نقدّر تاريخ ميلاده بحوالي عام 1920.

(2) معنى اسم فوغل بالألمانيّة: الطير.

«نستطيع أن نعطيك أربعين»، قال الفِلدفيبل[1] *Feldwebel*.

«والثمن؟».

تردّد قليلاً ثم قال: «عشرة جنيهات للقطعة؟ كلها تعود للعام 1942».

كانت هذه الجملة الأخيرة على قدر من الأهمية، عكس ما تعني في مصر، حيث يعلمون شيئاً قليلاً عن البنادق، إذ أن الأسلحة قد صنعت على عجل في القسم الثاني من الحرب دون دقة كاملة في التصنيع. «عشرة جنيهات»، أعدت. مع أن سعر السوق السوداء في ذلك الوقت كان بين 15 و17 جنيهاً، حيث كان واضحاً بأن أي شخص يعلم قليلاً عن الأسعار لم يعقد صفقة كهذه أبداً من قبل.

نظر الرقيب أول إليّ بعينيه الزرقاوين البريئتين وقال: «مممم.. حسناً عشرة جنيهات، لكن إذا كانت غالية جداً لأجلك...».

هل كانوا سينزلون بالسّعر قليلاً عن اتفاقهم؟

في الواقع. كانت الساعة التي أمضيتُها مع هؤلاء الزملاء البسطاء دافئة تماماً. توقفنا عن الحديث عن البنادق وسألني فوغل فجأة إذا كنت لا أحب أن أسمع الموسيقى. قلت له أحب سماعها، وعندما سمعت لحن وكلمات أغنية «إن آينِم كولِن غروندِه»[2] *In einem kühlen Grunde* تصدر من غراموفون من الطراز القديم، شعرت بغاية التأثر.. فكلّ إنسان يقدّر الفن لديه زاوية في روحه للموسيقى العاطفية. لم أكن استثناءً، وعلاوةً على ذلك، لم أسمع كلمة ألمانية منذ أشهر. لذلك فإنّ ذلك اللحن القديم جعلني أشعر بالحنين.

---

(1) رتبة عسكريّة ألمانيّة تعادل: رقيب أول.

(2) أغنية ألمانيّة قديمة: ..In einem kühlen Grunde, da geht ein Mühlenrad

وتعني: في مرج رطيب، يدور رحى طاحون..

وهي للشاعر الألماني يوزِف فرايهرّ فون آيخِندورف Joseph Freiherr von Eichendorff (1788-1857) ولها أيضاً عنوان آخر: *Das zerbrochene Ringlein* أي: الخاتم المكسور. ولولا الإطالة كنت ذكرتها بأكملها لشهرتها في الثقافة الألمانيّة.

«احذر، سلامة!» همس سويلم فجأة من المدخل. بلحظة وثبتُ عالياً من مقعدي ورأيت واحداً من الرّجال الخمسة يقف شاهراً سلاحه أمام فوهة بندقية سويلم. لقد حاول أن يستغلّ انشغالنا بالموسيقى لينسلّ خارج الكوخ.

قلتُ له: «إلى أين أنت ذاهب؟» بعد أن عاودتُ شكّي من جديد.

فتمتم قائلاً: «إلى مسؤول التموين، حيث يمكننا أن نرتّب تلك المسألة».

في الوقت الذي قال فيه الرّقيب أول ليساعده على الخروج: «نعم هذا صحيح». ثم قال موجهاً كلامه لي: «ما الذي اعتراك؟ نحن غالباً نتخلّص من بنادقنا الاحتياطية بهذه الطريقة. لا بُدّ أن أصحابك من البدو قد أخبروك بذلك. كما أنّ مسؤول التموين رجلٌ محترم ولن يشي بنا أبداً». بدا هذا حسناً، ولكن لم يكن على الرّقيب أول أن ينظر خلسةً إلى ساعة الجيب الكبيرة التي تركها له جدّه، واحتفظ بها في جيب صدرته. أراد أن يعرف الوقت. لقد أتيتُ مبكراً بساعة أيضاً والآن انتهت الساعة، وضيّعنا وقتنا في أمور تافهة. كان علينا أن نذهب منذ فترة طويلة. حاولوا أن يغيّروا وجهة المحادثة لكن سويلم الذي لم يفهم كلمة مما قيل، استشعر الخطر وبقي متحرّكاً للأمام داخل الكوخ وبندقيته على أهبة الاستعداد. وكذلك فإن حدسه قد خانه، فبينما كان يتوقع حدوث مشكلة في الكوخ، كان رجلنا في الخارج يومض له مشيراً إلى وجود خطر من الخارج.

تأخرنا كثيراً! لقد وقعنا في المصيدة. فعلى مسافة قريبة كنت أستطيع أن أسمع قعقعة السّيارات المصفحة. «خنزير لعين!».. صحتُ على الرّقيب أول وضربتُه في بطنه بقبضتي. فانثنى نصفين وهو يتلوّى من الألم.

أنا الآن وحدي أواجه الرّجال الأربعة الباقين، وقد فضّل سويلم التعقّل على الموت. لقد فرّ ويستطيع المرء أن يخمّن أين كان من صليل أسلحة الإنكليز الأوتوماتيكية، وفي هذه الأثناء كنت قد وقعتُ في الشرك. من السّهل أن يدسّ شخصٌ سلاحاً في طيّات جلاّبيته، وكان هذا بالطبع ما فعلتُه ببندقيتي القصيرة. سحبتُها من جانب الفوهة

ولم يكن لدي وقت أن أُسدّد حيث أتى الرجال الأربعة نحوي. أطلقت بصعوبة على وجه أبيض عريض أمامي فانهار صاحبه وهو يئنّ. في تلك اللحظة أمسك بي واحدٌ من زملائه من الخلف ضاغطاً سلاحي الناري في ضلعي. «ساعدوني، أيها الحمقى!» دعا رفاقه، لكنهم رأوا بأن مسدسي الذي أحمله الآن في يدي اليمنى بوسعه أن يفتح فيهم ثقوباً كبيرة، فتركوه ليتصارع معي. أصبحت يداي حرّة الآن إذ صرعتُ غريمي، حيث أفقدتُه وعيه بضربة من طرف عقب البندقية، ثمّ تحت تهديد البندقية جعلتهم يمشون إلى الحائط ويقفون هناك وأيديهم فوق رؤوسهم. رفعتُ صوتي بالأوامر بعنف حيث استجابوا كلهم كالأغنام. فقط فكّر الرقيب أول أنه من غير اللائق لمنزلته أن ينفّذ أمري بشكل حرفي تماماً، لذا فقد رفع ذراعيه فقط إلى مستوى أذنيه.

انتهرتُهم قائلاً: «أيّ واحد يستدير أو ينظر باتجاه الباب سيصاب برصاصة في بطنه»، عندما سحبت الستارة جانباً وسرتُ للخلف خارج الكوخ.

لم أكسب كثيراً بهذه الحركة. كانت أنوار الكشافة تمسح الظلام وكانت رشقات الرّمل تتطاير للأعلى بفعل طلقات رصاص رشيشات التومي Tommy Gun[1] التي تخترق الأرض. لحسن الحظ لم يلتقطني أيّ من أنوار الكشّافة. سحبت حواف جلاّبيتي للأعلى وانطلقت كغزال مُطارد. وبعد بضع مئات من الياردات كان عليّ أن أرمي نفسي أرضاً حتى ألتقط أنفاسي، رأيتُ النور يشعّ من مدخل الكوخ وسمعت الرشاشات تلفظ أنفاسها، طلقاتها الأخيرة، لكنني ما زلت لا أجرؤ أن أنهض. كانت السيارات المضاءة تتسابق غدوّاً ورواحاً عبر الظلام، تراوغ بحذق ككلاب الصيد وتجوب الأرض المتموّجة ثلاثاً ثلاثاً.

اللعنة! لا بُدّ أنهم رأوا سويلم الآن، حيث بدأ إطلاق النار مرة أخرى. لم يستطيعوا أن يصوّبوا عليّ حيث كنت متوارياً عن الأنظار نوعاً ما، وبدأ إطلاق النار في اتجاه آخر. لكني ظننت بأن سويلم مع ذلك قد أتى هذه الطريق ومن الممكن أن الإنكليز

(1) تسمية مجازية تطلق على الرُّشيش الأميركي من نوع طومسون Thompson من عيار 45. إنشاً (يعادل 11.43 ملمتراً).

كانوا يطلقون النار بشكل أعمى نحو الشجيرات. كانت السيارات تتحرّك بعيداً عن البقعة التي أتمدّد فيها، وهكذا نهضتُ وهربت، منحنياً للأمام كما فعلتُ منذ قليل، متوقفاً من حين لآخر لأختبئ خلف شجيرة. كان القمر في هذه الأثناء يرتفع ملقياً شعاعاً خافتاً من الضوء على البرّية، وراسماً منظراً أكثر روعة من أيّ شيء رأيتُه.

ساعدني القمر، حيث تعرّفتُ على آثار أقدام على الرّمل، آثار أقدام عارية لرجل واحد، وهو عربي بشكل واضح. كنتُ قد تعلمت شيئاً عن اقتفاء الآثار أثناء إقامتي بين البدو، ولاحظت أن طبعات الأصابع كانت مفصولة وأن القدم بلا حذاء، وأنها أعرض من مثيلاتها عند الأوربي.

كان بوسع المرحوم كارل ماي[1] Karl May أن يتعلّم مني شيئاً حتى في أيام إقامتي الأولى مع العرب. لقد لاحظتُ بأن آثار أقدام ذلك الرجل بعيدة جداً من واحدة لأخرى وعند كل خطوة واسعة كانت ترمي بشيء من الرّمل. لذلك فلا بدّ أنه كان يجري، وأستطيع أن أتصور كيف كان سويلم يركض. ما أستطيع قراءته من الآثار لن يكون بالطبع لغزاً بالنسبة لبريطاني خبير، وما أكثرهم. ما كان عليّ الخشية منه هو أن يصادف مُطاردونا هذه الآثار نفسها وأن يترجّل جند المشاة الجالسون في السيارات ويتبعوا الأثر وأُنوفهم إلى الأرض. ومازالت السيارات تتعرّج هنا وهناك ولكن بطريقة روتينية.

لبرهة عَتّمت غيمةٌ وجهَ القمر ومنعتني من رؤية الآثار، حتى عندما نزلت على يديّ وركبتي. لذلك فقد كان علي أن أنتظر مزيداً من الضوء.

ثم وصلتُ إلى مكان رمى فيه سويلم بنفسه أرضاً وبحث عن تجويف صغير يتوارى فيه، وعندما خرج منه انعطف نحو الزوايا اليمنى لطريقه السابق. اقتربت آثار أقدامه أكثر من بعضها وخطواته المتفاوتة الطول. والرّجل الذي مرّ بهذه الطريق كان يجرّ

(1) كارل فريدريش ماي (1842-1912) كاتب ألماني شهير، عني خصوصاً بقصص المغامرات والرّحلات، التي يدور الكثير من أحداثها في بلدان المشرق. وكان غزير الإنتاج وحُوّل الكثير من رواياته إلى أفلام عالميّة.

ساقه اليمنى. ها! ها هنا بقعة داكنة رطبة على الرّمل. لقد جُرح سويلم في قدمه اليمنى لكنه لا يزال قادراً على المشي، برغم ذلك تبدو آثاره غير ثابتة وطول خطواته بدأ يقصر رويداً رويداً.

على حافّة منخفض صغير نمت هنالك شجيرات شائكة كثيفة يدعوها العرب العَرفَج *arfag* وقد امتدّت الآثار قريبة بجانبها. سمعتُ صوتاً هادئاً خلفي يقول «سلامة». فأجبتُه: «نعم، أنا هنا سويلم». واعتقدت أن جرحه لن يكون بذلك السوء، إذا كان ما يزال قادراً على أن يلعب الخدعة القديمة أولاً بتجنّب المكان الذي قصد أن يختبئ فيه، ثمّ يقترب بشكل غير مباشر من اتجاه آخر. سيتبع المطارد الأثر بشكل طبيعي، لكن قبل أن يلتفت بوقت طويل سيكون الهارب قادراً على أن يرميه بالرّصاص من الخلف بكل راحة – هذا إذا كان يملك بندقية، لكن سويلم لم يعد يملكها بعد الآن.

وسألته: «ما الذي يجري معك؟».

قال «معلش *Ma'aleysh*، لا شيء مهم، مجرّد خدش في الساق».

إلا أن ذلك الخدش لم يكن إلا جرح رصاصة في الفخذ، وكان ينزف بغزارة. دخلت الرصاصة على مسافة حوالي عرض كف فوق تجويف الرّكبة، وبرزت عدة سنتمترات فوق الرضفة مخلّفة جرحاً خارجياً حجمه حوالي الشلن. بالحكم من موقع الجرح فان العظم لم يتأذّ، لكنه كان واضحاً من غزارة النزف بأن الشريان قد قُطع. لإيقاف النزف مزّقتُ شريطاً من جلاّبيتي وضغطتُ قطعة القماش القطنية بقوة داخل الجرح. ولأن ذلك لم يكن ثابتاً، أخذتُ حزام سويلم وعملت مرقأة فوق الجرح بمساعدة قطعة غصن قد اقتلعتُها من الشجيرة.

لم يكن الوضع آمناً لمتابعة المسير. إذ أنه عليّ أن أكون متأكداً جيداً بأن النزيف قد توقف لكننا كنا نفقد الوقت. سيتأكد الإنكليز من إرسالهم عدداً من الخفر السودانيين الذين لن يصعب عليهم اقتصاص آثارنا، وأذكر أن شعار الصّحراء «أطلق النار أولاً ثم تحدّى إن شئت» كان نافذاً لدى كل من اللصوص والإنكليز. بغريزته البدوية

الواثقة، تبع سويلم الطريق باتجاه الوادي حيث ترك الجمال هناك، ولكنه سقط بعد مسافة قصيرة، وهكذا أخذتُه على ظهري ككيس ذُرة وحملتُه، لكنّي لم أنجح أكثر من خمسين خطوة في كل مرة، حيث كان يتأوّه من الألم وأنا ألهث من التعب. لم نستطع أن نستمرّ بتلك الطريقة، وأخبرني أخيراً أن أذهب وحدي وبذلك فإن واحداً منا يجب أن يفرّ بأمان. رفضتُ عرضه السّخي بلباقة، لكنني علمتُ في داخلي أنه ما من مجال لأن نصل الجمال معاً على الإطلاق. أدرك سويلم ذلك منذ فترة طويلة، فقال: «احملني بعيداً عند الشجيرات هناك، وبعدها اذهب لوحدك». ولا أدري فيما إذا كنتُ قد تصرّفت بشكل مُعيب أو صحيح. ولكني حملته عدّة ياردات بعيداً ووضعتُه داخل بعض الشجيرات الكثيفة وبعد ذلك، عندما أشار مرة أخرى إلى الطريق تركتُه وتابعت.

وجدتُ تصرّفي دنيئاً وبعيداً عن أصول الصُّحبة، وعندما ذهبتُ عدة ياردات تذكّرت أن سويلم لا يملك سلاحاً. فما كان مني إلا أن رجعتُ إليه وأعطيته سلاحي الناري القوي.

قلت له: «خذ مسدسي، بإمكانك استخدامه، إذا اقتضت الحاجة. بكل الأحوال أنا أستطيع الجري أما أنت فلا».

ابتسم البدوي وقال: «احتفظ به يا أخي، إنه لا يُطلق».

فتمتمتُ قائلاً: «يا ابن الكلب!». هؤلاء الناس أرسلوني لعمل قذر خطير، والذي لم يكن في حقيقته سوى شرك أريد منه الإيقاع بي، وقد سلّحوني بمسدس لعبة لا يطلق النار. لقد بدا لي هذا أسوأ جزء في العمل بأكمله.

فقال لي: «كفاك إصداراً للضجيج يا سلامة، وإلا تنبه الإنكليز إلى مكاننا!».

لكني تابعت: «مسدس لا يُطلق، ومُرافق يهرب عند الطلقة الأولى». لفظتُ كل الشتائم التي أعرفها في وجه الرّجل، لكنه بقي مبتسماً ابتسامةً أكبر. فقال لي: «أنت لا تفهم، سلامة، أنت ألماني فلماذا تريد مسدساً أيضاً؟».

قلت في نفسي، ما هذا التقدير الرائع والساحر بطريقة ما من بدوي للمآثر البطولية لرومل[1] ضد القوات البريطانية الأقوى بشكل كبير.

تابع سويلم: «أنا لم أهرب. عندما دنت السيارات كان علي أن أشاغلهم وأقودهم بعيداً عن محطة الضخ. لو لم أفعل ذلك، لكنتَ رجلاً ميتاً الآن».

الله وحده يعلم ماذا في عقل البدوي. ربما أن سويلم قد اصطدم فعلاً بإطلاق نار السيارات المصفّحة للسبب الذي أعطاه، وأنه تقبّل تلك المخاطرة الضخمة من أجل أن ينقذ رفيقه الأعزل من العدو. كانت وظيفتي الآن هي أن أنقذه. ركضتُ بكل القوة التي أملكها لأنضمّ إلى الآخرين وأخبرهم عن مكان سويلم ليبدأوا بإحضار الجمال والإتيان به.

وجدتُ في الوادي عبد الرّحمن، مرشدنا، مع الجمال ومع مسلّم في انتظارنا لنعود.

قلت له: «تعال بسرعة، ولتحرّك الجمال، فسويلم مُستلقٍ هناك، ويعاني من جروح بليغة».

«لا، لا نستطيع أخذ الجمال»، قال عبد الرّحمن بتركيز. «فلا ندري إذا كان على مقربة من هنا دوريات. إذ أن الجمال تصدر أصواتاً عندما تنهض وممكن أن ترغي في الطريق. إضافة إلى أنها ستكون هدفاً جيداً جداً في ضوء القمر».

وهكذا بقي مسلّم مع الجمال في الخلف، وعدنا كلانا على أقدامنا لنجد سويلم ونحمله إلى الوادي. وجدناه حيث تركتُه وضمّدته من جديد في الضوء الظليل لمشعلي. وقد تضمّخ ضماده الأول بالدّم... كنت أعلم أن الموت يرافقنا عندما ركبنا بصمت خارج الوادي بسلسلة وحيدة من الأشخاص - موكب حداد عبارة عن أشباح تسير في البرية.

---

(1) هو الفيلد مارشال الألماني الشهير إرفين رومِل (1891-1944) Erwin Rommel الذي اشتهر كقائد للحملة الألمانيّة والإيطاليّة على قوّات الحلفاء في شمال أفريقيا، فكان أحد أبرع قادة الصّحراء، وألحق بالإنكليز هزائم نكراء على الرّغم من تفوقهم الكبير بالعدد، وهذا ما أكسبه لقبه الشهير: *Wüstenfuchs* «ثعلب الصحراء».

«هذه عين دار»، قال عبد الرّحمن، عندما أعلن نباح الكلاب أننا نقترب من المساكن. فُسح المجال لنا حالاً في خيمة كبيرة، حيث وُسّد سويلم على حصير من القش. كان هناك ضوءٌ كافٍ لي من مصباحين كازيين لأرى ما عليّ عمله. لكن خدماتي رُفضت بحزم ولكن بأدب من قِبل البدو الذين قالوا: «لا يمكنك فعل أي شيء، أم فهد وحدها هي من يستطيع إنقاذه».

تركتنا أم فهد، المُداوية، ننتظر لفترة طويلة. وأخيراً كانت تركب على حمار دون سرج. حتى تلك اللحظة كان كل واحد منا يحدّق بسويلم بفضول، الذي كان في تلك الأثناء يفقد الدّم بسرعة. كان على المداوية أن تشقّ طريقها عبر المتفرّجين المحدّقين وبعدها خلعت برقعها بجرأة، وكان يحمل الكثير من القروش واللآلئ، ليتبدّى عن وجه نحيل أسمر وشفاه مشدودة وأنف معقوف. فحصتْ الرّجل المجروح بلا مبالاة ثم طلبتْ فحماً محروقاً حيث رمت عليه بعض عيدان البخور الطويلة. كان الاحتفال الذي أقيم لطرد الأرواح الشريرة مؤثراً بقدر ما كانت معالجتها الطبية همجية. قامت بعمل عجينة سميكة من حبوب القهوة المطحونة، والسكّر، والسّمن، والأفيون، وبعدها ضغطتها بقوة في الجروح. استيقظ سويلم من إغمائه بسبب الألم والصّرخات والتدافع حوله، لكن المتفرّجين أمسكوا به بثبات حتى ضمّدت أم فهد جرحه ببعض الأسمال البالية الوسخة.

انتظر البدو بتوتر معجزةً تأتي بها المُداوية بفارغ الصبر، ولكن عبثاً كانوا ينتظرون. في هذه الأثناء جلست أم فهد بقسوة على الأرض بجانب المريض، وشفاهها الرقيقة تمتم بتعاويذ صامتة. والمصابيح ترسم ظلالاً ضخمة وبشعة على جدران الخيمة، لكن وجه سويلم بقي شاحباً أصفر عندما نظرنا إليه، وقد تشرّب ضماده الجديد دماً. أخيراً شعرت بأن عليّ أن أقنع الأشخاص الذين بدا لي أن الكلمة لهم بأن سويلم لن يعيش طويلاً دون تدخّل جراحي. ربما دفعتهم فطرتهم وعاطفتهم ليسمحوا لي بأن أفعل بالرغم من احتجاجات أم فهد، التي جُرح وقارُها في الصميم. راقب المشاهدون باهتمام طلبي لإبرة طويلة منحنية، وبعض الخيوط، ومقص، وسكين حادة، تم

الحصول عليها بصعوبة لاستخدامي، وعُقمت بماء مغلي.

أمسك الرجال الأقوى سويلم بهدوء عندما ركعتُ على الأرض لأجري العملية، فأطلق صرخةً مُرعبة مُجلجلة عندما بدأتُ أعمل شقاً فوق الجرح لكنه سرعان ما عاد لإغماءته مرة ثانية وأصبح عملي أسهل.

لم يكن الضوء كافياً، وكنت محاطاً بحشد من المشاهدين المنحنين للأسفل لينظروا إلى ما أعتقد أنه كان أصعب عملية بدائية في مسيرتي المهنية بأكملها.

أخيراً عندما انتصبتُ واقفاً ببطء، مع ألم في الظهر، سابحاً في عرقي، كان الشريان قد رُبط بإحكام بخيط أسود وضُمّد الجرح بعناية قدر الإمكان، وقمت بتعليق القدم للأعلى وأخذت أراقب الضماد بقلق. وبعد نصف ساعة من العملية لم يعد ينزّ منه دم، لقد توقف النزيف.

وبينما كنتُ نائماً تم إرسال رُسُل ليعلنوا الأخبار لعيد أبي سويلم، والد الرّجل الجريح. في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي لدى انتهائي من فحص مريضي، انطلق عيد إلى عين دار مع خمسة من رفاقه المسلحين. كان الرجل الأشيب الرأس ذو البنية القوية، الذي أنجب كثيراً من الأولاد من زوجاته الثلاث، بغاية القلق على سويلم وكأنه ابنه الوحيد. نزل بصعوبة عن بعيره، وأتى إليّ بأذرع ممدودة، وقبّلني بحرارة على خدَّي الاثنين. ثم سألني أن آخذه إلى ابنه الذي، كما شرحتُ له، كان لا يزال في خطر كبير. استمع إليّ وقال إنه سيفعل أي شيء لينقذ حياة سويلم. وقد كان على معرفة بصيدلاني يوناني في الإسماعيلية، وهذا ما أردتُه تماماً. عملت قائمة بالأشياء التي أحتاجها لهذه الحالة الخاصة، والتي كانت أساسية بشكل عام بالنسبة لطبيب تعهّد هذا النوع من المعالجة البدائية نوعاً ما. عندما بزغ فجر اليوم التالي أُرسل رسول على فرس من قِبل الرجل العجوز مُحضراً لي طرداً يحوي سمّاعة طبيب، محاقن، مشرط، إبر، مقصّات، ضمادات، وأدوية متنوعة. كنت قادراً على تجنّب خطر الالتهاب عن طريق حقن مصل الكُزاز، لكن حتى سويلم، الذي له بُنية حصان، لم يخرج من دائرة الخطر حتى مرّت أربعة أيام.

ولدى عودتنا إلى القبيلة استُقبلنا استقبال الفاتحين في القرية.

أتى ثلاثون رجلاً يركبون جمالاً مزدانة بالأشرطة من القرية لمقابلتنا. فركبنا في وسط عاصفة من هتافات الترحيب، وعندما وصلنا أُخذنا إلى خيمة الضيوف الكبرى حيث كانت تنتظرنا وليمة يرافقها احتفال.

وجدتُ هناك في المكان المحجوز لي ثوباً عربياً غالياً، كاملاً من الخفّ إلى الكفيّة *keffiyeh* الحريرية، ومعها مسدّس پارابيلّوم ألماني.

عندما بدأتُ بسحب مخزن المسدّس بارتياب، ضحك سويلم وأخذه من يدي قائلاً: «إنه يطلق»، ليبدّد شكوكي، وأطلق طلقةً تركت ثقباً في سقف الخيمة.

* * *

6 - العريف السّابق

الآن، وبعد أن كنت بالكاد مقبولاً في القرية، أصبحتُ الحكيم الألماني *El Hakim el Alemani*، رجلاً حسن السمعة والقدر. أعطيت خيمة لي قسمتها إلى غرفة معيشة وغرفة كشف. وصار الناس يأتون إليّ للمعالجة وللنصيحة حول مسائل طبية وغيرها. كنت أُزار من البدو من قبائل أخرى وكذلك قبيلتي وحتى الفلاحين من الرّيف المحيط يقصدونني وينتظرون بصبر عودتي عندما أكون بعيداً أزور مرضاي، غالباً في القرى البعيدة.

لقد اعتدتُ أن أُبقي عيناً على الستارة المعلّقة على المدخل في غرفة انتظاري، متوقعاً دخول المرضى.

خمسة مرضى إضافيين. أُشبعت ساعات الاستشارة بهم. وقبل ذكر أعراضهم لي يقوم مرضاي بإفشائها للناس الآخرين في «غرفة الانتظار».

«التالي رجاء...» كانت تقريباً مثل عيادتي في برلين.

وبعد أن أستمع إلى قصة مريضي، كنت أبحث له عن علاج مناسب في خزانتي الطبية، التي كان يُعاد ملؤها باستمرار من قبل الصّيدلاني اليوناني في الإسماعيلية. احتفظتُ بمؤونة منتظمة من الأدوية الرّوتينية والمُعدّة للاستخدام اليومي. جاءني يوماً مريضٌ اضطررتُ أن أصف له دواءً ليس بحوزتي. في البداية لم أرغب بذلك، ولكن لأنه لم يكن لديّ شيء آخر لأفعله كتبتُ وصفة له ليصرفها من الصيدلية قبل أن يأتي إليّ لأعطيه تعليمات الاستخدام وأضع عليها توقيعاً غامضاً: «لو دوكتور أنكونّو»[1]

---

(1) التعبير باللغة الفرنسية ويعني: «الطبيب المجهول».

."*le docteur inconnu*"

لقد كانت مشاعر غريبة تراودني وأحياناً تكون مزعجة كلما تذكرت بأنني كنت سجيناً فاراً، وفي قائمة السّجناء المطلوبين من قبل الشرطة، كنت أعيش وأقضي نصف اليوم راكباً على ظهر الجمل قادماً من الإسماعيلية. تناسيتُ قلقي بشأن احتمال اكتشافي وإعادتي للسجن، ولكنني شعرتُ بإغراء أن أوقّع وصفاتي باسمي الخاص. والآن، وللمرة الأولى، انتهزتُ الفرصة ووقّعتُ على وصفتي باسم «الطبيب المجهول» وتمّ صرفُها حسب الأصول.

بعد ذلك صرتُ دائماً أوقّع باسم «الطبيب المجهول» عندما يكون عليّ أن أصف دواءً ما لا أملكه.

كان زبوني التالي واحداً من هؤلاء الذين يتريّثون حتى يكونوا آخر ما في الطابور. نحن الأطباء نعرف أمثاله جيداً جداً. فهو إما خائف أن يتألم، أو إذا كان عربياً، جاء ليثرثر مع المرضى ويكتشف منهم أحدث إشاعات الصّحراء.

«دورك»، قلت له.

هذا المتريّث لم يكن الأخير تماماً على قائمة الانتظار، وإنه، ربما فضّل بشكل واضح أن يدَع المرضى القلائل الباقين يدخلون أولاً، ولكن عندما دعوته تبعني إلى الخيمة.

«حسناً»، قلت، «ما الذي تعاني منه؟».

فقال لي: «لا شيء، أنا جيّد تماماً».

كان الرجل يلبس ثياب فلاح. سحب بهدوء من جيبه قطعة ورق مطويّة مسطّرة، كُتب عليها، «زُرني رجاءً في الأيام القليلة القادمة، لديّ عمل قليل مهم جداً لك، عاجل». كلمة «عاجل» وضع تحتها خط ثلاث مرات وقد وُقّعت الرسالة من قبل: هِلموت شنايدر، أوبَرغِفرايتَر د.[1]:

(1) الأوبَرغِفرايتَر رتبة في الجيش الألماني تعادل: عريف، وفي بعض الحالات وكيل عريف. لكن ينبغي الإشارة إلى أن الرّتب العسكرية الألمانية لا تتطابق تماماً مع رتب الدّول الأخرى.

Helmut Schneider, *Obergefreiter D.*

كان هِلمـوت شـنايدر شـخصيّة أسـطورية، وكنتُ على وشـك أن أصبـح مثله بعد ممارسـتي الطويلـة فـي الصّحراء تحت اسـم «لو دوكتـور أنكونّو». لكن شـنايدر كان معروفاً في كل مكان في منطقة القناة. كان مثلي سـجين حرب[1] POW، ويُنسـب إليه التورّط في نشـاطات غير شـرعيّة، وبالطبع فأيّ عمل محظور في الصّحراء يُعدّ خطيراً دائماً.

لم يبدأ الفلاّح بالسـؤال إذا كنت سـآتي أو إذا كان لديّ رسـالة لشـنايدر. بل أخبرني ببسـاطة كيـف أصـل إلى المزرعـة فـي الريـف *rif* أو الأرض المحروثـة حيث يعيش شـنايدر.

«حسـناً»، قلت. «سآتي»، لأن شنايدر يهمّني.

عليّ أن أتخذ تدابير وقائية، وهكذا رتّبتُ لسـويلم ومسـلّم، الصديقين الاثنين الذين أثق بهما ثقة مطلقة، ليركبا معي.

* * *

كان عالَماً مختلفاً بشـكل كامل عن عالم البدو ذلك الذي دخلناه الآن. صاح أولاد القرية وراءنا، «لصوص! متسـكعون، متشردون!» عندما سألناهم عن الطريق إلى البناء المنعزل خارج القرية حيث كان يعيش شنايدر. لأن رجلاً مثله يحتاج إلى مخبأ بعيد.

كان من المؤلم أن يكون عليك أن تستمع إلى صيحات الإهانة من الأطفال وتعليقات الاحتقار من الأكبر سناً، وخطر في بالي أنّ القرويين، بطريقة حياتهم المختلفة، ينظرون بـازدراء للبـدو تمامـاً كما ننظر فـي ألمانيا بازدراء إلـى الغجر. الفلاحون هم السـكان الأصليون الذين عاشـوا لآلاف السـنين فـي الأراضي الخصبة للدّلتـا والمناطق النائية لـوادي النيل وظلّـوا ملازمين للمكان الذي ينتمون إليه، إذ أن انتقـالاً إلى القرية الثانية يُعـدّ بمثابـة هجرة. لهذا يولي الفلاح أهمية كبيرة لبناء بيت جيّد ومتين، مع أنه بالنسـبة

(1) التعبير الوارد POW اختصار العبارة الإنكليزية: Prisoner Of War.

لمقاييسنا يزوّده بقليل من وسائل الرّاحة. لكنهم يعيشون في بيوت مصنوعة من الطين أو القرميد الطيني المجفف بالشمس مع أبواب ونوافذ يقصرونها بطلاء أبيض.

لكن القلق هو أساس حياة البدوي.. إذ أنه لا يكفّ عن التجوّل والتحرّك هنا وهناك، حتى عندما يجد مكاناً يحوي كل شروط الحياة المستقرّة والقبلية. وعندما يستقرّ البدو، فإنهم يستبدلون خيامهم بمنازل، لكن البيوت التي يبنونها ضعيفة آيلة للسقوط ومبنية كيفما اتفق بحيث يأخذ المرء انطباعاً أنهم يقصدون الإقامة فيها لوقت قصير فقط. وبيوتهم الكدرة، التي لا يمكن العيش فيها، تزيد شعور الفلاحين بالاتضاع لرحّالي الصّحراء - وهذا الشعور قديم بقدم الجنس البشري في الشرق.

عندما توقفنا عند البوابة المفتوحة في الجدار الطيني المقصور في الفناء، رمى الفلاح الذي كان بانتظارنا حجارةً على الكلاب ليبعدها، قبل أن تبرك *barak* الجمالُ لنا لننزل. وبقي مسلّم في الفناء ليعتني بها.

«هذا هو الألماني الذي أعطيتُ له رسالتك»، قال الرّجل، وقد قدّمني لمضيفي عندما قادني إلى منزل صغير من الطوب الطيني الذي بدا كمُلحق لبيت المزرعة. عندها قابلتُ العريف السابق هِلموت شنايدر للمرة الأولى، وعندما رأى أناساً آخرين قد قدموا للمنزل أكثر مما كان يتوقع، امتدّتْ يدُه إلى قبضة المسدّس بشكل غريزي. كان يجلس على أريكة من صنع منزلي غُطيت بسجادة، ووسائل الرّاحة البدائية لغرفته لم تكن تتناسب مع المسدّس المعلق في قِراب مفتوح من حزامه.

«اجلس»، قال لي.

كان رجلاً نحيلاً وقوياً، ذا وجه نَضِر سفعته الشمس وشفاه رقيقة للغاية، وكان يرتدي قميصاً حريرياً أبيض، مع سروالٍ رمادي من الفلانيل.

نظر إليّ بشيء من الدهشة وقال: «أنت إذن الرجل الذي اعتقدوه أنا؟!».

لم أفهم ما يقصد.

واستأنف شارحاً: «تل الكبير، عندما روى الألمان من محطة الضخّ أن ألمانياً قادماً

إلى المخيّم ليعقد صفقة، فقد اعتقد التوميز[1] Tommies بأن ذلك الرجل هو أنا. وكانوا توّاقين لأن يقتلوني - تكلّم بنوع من الغرور - وهنالك الآن إشارة أمام اسمك في قوائم الشرطة».

لقد أشبع هذا الكلام غروري، لكن إطراءً من هذا الفم ذي الشفاه الرقيقة يبدو أكثر من طعنة سكين.

«لماذا أحضرتني إلى هنا؟»، سألتُه. أمَر شنايدر الفلاح بأن يحضر القهوة، وقد بدا وكأن الرّجل يعمل كخادم وحارس له. كان الفلاح غير راضٍ البتّة عن مغادرة الغرفة، ونظر بارتياب إلى بندقية سويلم عند خروجه لإعداد القهوة. وعندما أتت القهوة، قدّم شنايدر لي سيجارة غولد فلايك Gold Flake وطلب مني إخباره كيف هربت وماذا أعمل منذ ذلك الوقت.

وعلّق قائلاً «يقولون إنّ أعمالك مزدهرة هذه الأيام. وافترَّ الشق الكائن تحت أنفه بما يبدو كابتسامة».

فأجبتُه «نعم، الأمور جيدة نوعاً ما».

فقال شنايدر: «لقد بدأتُ عملي قبلك بوقت قليل» مائلاً للخلف على أريكته، ويداه تلعبان بالمسدّس بنَزَق.

وأردف قائلاً: «بما أنّ كلينا ينتمي إلى القوّات الألمانية العاملة في أفريقيا Afrika-Korps وقد أُخذ كلانا سجيناً، فيجب أن تكون قد ألفت الظروف التي نعيشها قبل الأسر وبعده. لذلك سوف تقدّر الطريقة التي ينخرط المرء بواسطتها في مهنة كمهنتي، حيث يبدأ الشخص ببطّانية وبعض الملابس الداخلية أو بضع قطع قليلة من الألبسة الموحّدة. وبإمكانه دائماً أن يجد المشترين، لكن الثمن الذي يحصل عليه للبضاعة لا يزوّد الشخص بكثير من الطعام أو التبغ، لأن هناك دائماً مَن يحصد معظم الغلّة. فلا يحصل التاجر على العشرة حتى يدفع التسعة».

---

(1) تعبير عامي كان يُطلق على العسكر البريطانيين.

«نعم، أعلم. هذا عُرفٌ عام».

«يمكن أن يكون لديك آراء أخرى، لكن ما الفائدة من الحزن على أمور لا يستطيع المرء تغييرها، عندما يكون المشرف البريطاني شريكاً فاعلاً في العمل ويأخذ حصّة الأسد من الغنيمة؟ لقد أمسكوا بي ذات يوم وحُكم علي بثلاثين يوماً في الزّنازين لسرقة مُلك الجيش».

قلت له: «كنت في الزنزانة 6، وأخذتُ فكرة بسيطة عن معنى أن تكون في زنزانة».

«حسناً، لن أجلس مكتوف الأيدي وأترك الناس تستغلّك. لم يكن في مخيّمنا أقفال، لذلك تم تكليف جنديين بريطانيين ليرافقاني بالأغلال، مقيداً كمجرم خطير، إلى المخيّم الرئيسي.. صبيين قليلي الخبرة، كلاهما غرّ. سافرنا في حافلة مفتوحة، كانت مليئة بالمصريين. لم يبدُ أنّ ثمّة مودّة حقيقية بين الغجر والبريطانيين وقد استفدت من تلك الحادثة أيّما استفادة. بالإضافة لذلك... لكن هل كنت تتحدّث عربية مقبولة من قبل؟».

«لا زلتُ في طور التعلّم. لم تكن اللغة العربية بتلك السهولة، لكن المرء يتعلّمها، كما يتعلم الشخص كيف يسبح عندما يُلقى في ماء عميق».

«لكن المرء يتعلمها بشكل أسرع إذا كان لا يريد أن يكون على الهامش في كل قضية يتم تداولها». على أية حال فإني أتحدّث العربية الآن بطلاقة كما الألمانية ونجحتُ في إثارة المصريين في القطار إلى درجة الاهتياج، حيث كان البريطانيّان قليلي الخبرة، ودون أن يعلما، وجدا نفسيهما فجأة يواجهان جماهيرَ مغتاظة. يستطيع المرء أن يعزف على وتر القومية، يشتعل الوقود في دقيقة وبعدها يحدث الانفجار. تلقى أحد حارسَيْ ضربةً في عينه، وتمّ نزع سلاح كل منهما ودُفعا إلى الزاوية، دون أن أعرف أو حتى أن أهتمّ لما حصل لهما. ثم ألقيتُ نفسي خارج القطار عندما بدأ يتحرّك وتدحرجت أسفل السدّ، تماماً كما كنت، مقيداً بالأغلال. تجوّلتُ ليوم أو يومين حول قناة المياه العذبة ثم وجدتُ فلاحاً طيّباً كسر لي قيودي بمبرده وساعدني في طريقي. توقف عن

الحديث قليلاً ثم استأنف قائلاً: «يبدو الوقت الآن مناسباً لي لأفعل شيئاً لأصدقائي الإنكليز. بعضهم سيحبّ ذلك، وبعضهم لا».

قلتُ له: «حملت رياح الصّحراء سابقاً سمعتك شهرتك على طول البلاد وعرضها».

«نعم، لكني ما زلتُ أئنُّ تحت وطأة الفقر المُدقع».

«ماذا؟ أرجلٌ يعمل عملك يقول هذا الكلام؟».

«آه، أنت لا تعلم القصّة بأكملها. النذل الذي يملك هذه المزرعة تعرّف علي مصادفة عدما كنت أجري وقدّم لي منزلاً هنا، إنه يعرف كل شيء عني. انظر، هذه بطاقتي الشخصية. أنا لم أغيّر أوصافي. وعند الضرورة، لباسي الرّسمي ما زال لدي، وبإمكاني الدخول إلى المخيّمات في أي وقت دون عقبة، وأقوم بعملي مع البريطانيين وكذلك مع الألمان».

«إنك إذن تتمتّع بالجرأة والحصانة على الدّخول والخروج».

«من الطبيعي ذلك، كما إني أتمتع بالمزيد من التسلطات التي تفوق ذلك بكثير. فقد أمدّني صاحب المزرعة بفلاحَيْن جديرين بالثقة ليرافقاني في رحلاتي، وعندما أعود يأخذ كل شيء مني، ولكن بأي سعر! أنا متأكد من أنه يأخذ عشرة أضعاف ما يعطيني مقابل البضائع. ولكني معتمدٌ على أحنف القدمين البغيض هذا، الذي نهشتْ وجهَه آثارُ الجدري، ابن الفاسقة. وليس لدي الوقت ولا الفرصة لأبيع الأشياء هنا أو في الجوار. أحتاج إلى منزله، وأُناسه، وحمايته. إذا أغظته كثيراً، فإن النَّذل سوف يفضحني، لكني لم أعُد أستطيع المقاومة بعد الآن. ينبغي لي التوقف».

وثب شنايدر، الذي تحدّث بغيظ وحُنق كبيرين على قدميه، وبعد التنقيب في صندوق صغير قدّم لي أنبوباً زجاجياً لأنظر إليه.

«هل ترى ذلك» قال. كان الأنبوب يحمل لصاقةً كُتب عليها: «مورفين

هيدروكلوري»[1]. «حسناً، ماذا تقول في ذلك؟».

قلت له: «اتركه وشأنه».

«كيف؟».

«هل يمكنك أن تتحرّر من عادة أدمنت عليها؟».

«هل تظن بأنني مغفّل بغيض لأن آخذ الأشياء لنفسي؟ سوف أبيعها، وهذه المرة لن يكون لهذا البغيض أحنف القدمين فيها أي شيء، ما رأيك؟ أنت طبيب. ألا تستطيع أن تجد سوقاً لهذه المواد؟ سنقتسم العائدات مناصفة».

سار بتجهّم جيئة وذهاباً في الغرفة، نظر سويلم بارتياب ودون أن يفهم شيئاً، لكنه عينيه لم تتركا شنايدر أبداً. لا بدّ أنه كان يفكّر أن المرء لا يعرف أبداً كُنه هؤلاء الألمان.

تابع شنايدر: «هذه فرصتي الوحيدة والأفضل للخروج من كومة الرّوث التي أغوص فيها. أوَتظنّ بأنه من الممتع بالنسبة لي أن أعيش هنا كمواطن محلي وأضحّي بهويتي الأصلية كل يوم لكي يصبح هذا الخنزير السمين أغنى وأغنى كل يوم، يُتخم الدولارات في حقائب نقوده حتى يأتي يوم ويحزم أمره ويفشي أمري؟»، أكمل بتأنٍّ مؤثر ليجعلني أعيش الحالة التي يعيشها. «أنت تريد أن تفرّ بنفس القدر الذي أريده، لا يمكنك التظاهر عكس ذلك. أنت مشمئزٌّ من حياة البلادة والخمول بين الصّحراء والقناة النتنة كما أنا وتريد العودة إلى الوطن».

كان محقاً لكن كان صعباً أن أعترف بذلك لرجل مثله. تابع قائلاً: «لا يمكن أن نفرّ من هنا بشكل شرعي. سوف نحتاج إلى جوازات سفر مزوّرة، وملابس، وتذاكر باخرة. كل ذلك يكلف جبلاً كبيراً من النقود. الآن فقط وإذا نفّذنا خطتي سوف نحصل على النقود التي نحتاج. وإذا لم نفعل، سوف نتعفّن هنا. فإذا لم يهلكنا جو هذه الأرض اللعينة، فإن هذا الحيوان المفترس، وأبغض الناس - القاتل ذو القدمين - سوف يفي

(1) التعبير بالإنكليزية: morphium hydrochloric.

بالموضـوع، عندما يفتح دستة ثقوب في بطنينا بمسدس».

كان شـنايدر محقاً - للأسف! كان محقاً. لكنني لن أتطرّق للموضوع برمّته، إذ أني لا أريـد أن أنســاق في الدوّامة الخطيرة التي تُحيق بشـنايدر. لكن هـذا الرجل المطارَد الـذي يمـوت كل يوم بين هؤلاء المحليين، حوّل أفكاري بشـكل ذكي جداً إلى العالم الخارجـي الذي أتـردّد بالخروج إليـه. لأعود مرة أخـرى وإلى الأبد إلى سـماع لغتي الأصليـة والتحـدّث بهـا، أن أعيش كما يعيش النـاس في وطني، أن أخـرج في أضواء المدن الكبرى، أن أستمتع بالفن بكل أشكاله. أن أسمع أوبرا مرة أخرى...!

«أنعم النظر بهذا»، قال شنايدر عندما أخرج من صندوقه كُتيباً مطوياً ذا غلاف أصفر - «يُلمس فقط بأطراف الأصابع. وكأنه كتابٌ مقدس».

كُتـب علـى غلافه: «وثيقة سـفر للأجانب»[1]. سُـجّلت داخلها العلامـات المميزة لشـنايدر، وفـوق صورته كان هناك ختم رسـمي بحـرف مطبعي سـميك مُطوقاً بدائرة زرقاء.

«حقيقي؟».

«بالطبع لا، لكنه مفبرك بشكل جيّد بحيث أنه يبدو حقيقياً أكثر من الحقيقي. الختم من الدرجة الأولى والشـيء الوحيد الذي يستطيع أن يميّزه المرء كتزوير هو الاسم. إذ إنني لا أسـتطيع أن أغادر مصر بشكل تام باسم هِلموت شنايدر. بالمناسبة، ماذا تحبّ أن تُدعى أنت؟».

حدّقتُ بالكتيّب الأصفر.

تابـع: «يكلف الموضوع بأكمله 100 دولار. بإمكاني الحصول على وثيقة سـفر جاهزة لك في غضون أسبوع، وإذا كانت حساباتي صحيحة، سوف نكسب مالاً وافياً ليغطي ليس فقط ثمن الوثيقة بل أيضاً لنشـتري ثياباً داخلية وخارجية وأجور سفر في الباخرة».

---

(1) ترد العبارة في الكتاب بالفرنسـية:

"Laissez-passer pour les étrangers".

«حسناً، أنا معك».

كانت الإغراءات كبيرة، لذلك فعليّ أن أدع احترامي لذاتي قليلاً كشخص شريف، وأن أغيّر آرائي السابقة عن العفّة والأخلاق، إذا أردت أن أحاضر من أجل حريتي وأعود إلى التمدُّن. ومن الأفضل ألاّ أفكر بالوسائل إلى النهاية. وكان هدفي أن أكون مشغولاً جداً حتى لا أسمح لضميري بأن يؤنّبني، لكن أن أعود إلى الوطن، الوطن، كان أعظم غاية.

بعد بضعة أيام، ارتديتُ مرّةً ثانية بزّة أسرى الحرب ووجدتُ نفسي أجلس إلى جوار هِلموت شنايدر في سيارة جيب متداعية. لم يكن ركوباً مريحاً حيث كانت نوابضها بالية، الأمر الذي يُحيل ركوب مثل هذه السيارة إلى عقوبة خاصّة كلما قفزنا بفعل أخاديد الطرق التي كانت من الكثرة بمكان. ومع ذلك، فان القيادة حتى في هذه الحافلة القديمة كان جيداً وأسرع من ركوب الجمل. دبّر شنايدر كل شيء نحتاجه بمشقة: الجيب، البدلات له ولي وبطاقات هوية سجناء لكلينا، بنسخ أصلية أو مصورة عنها، وكان يستطيع تموين عشرة أناس آخرين بكل ما يحتاجونه، وصولاً إلى الوثائق.

ارتدينا أثناء القيادة جلاّبيات طويلة خلعناها قبل وصولنا تلّ الكبير بوقت قصير. بعد ذلك سلّمنا الجيب لواحد من أتباع شنايدر الأوفياء الذي كان عليه أن يقودها إلى مكان معين، حيث عليه أن يأخذ أشياءنا المشتراة إلى متن السفينة. كان تقدّمنا من تلك النقطة للأمام متسماً بالمراوغة والخداع. وقفنا بجانب الطريق، وأشرنا بإصبعنا لأول شاحنة ذاهبة باتجاه تلّ الكبير. فركبنا وسار بنا السائق المحلي وقادنا إلى داخل المخيّم دون أي أسئلة تُسأل. وتحت سرعة معتادة بلغت 15 ميلاً بالساعة، عدتُ مرة أخرى إلى العالم الذي هربت منه ببنطال قماش. كنا في صيف سنة 1947 والألمان يعملون في المخيّم، حيث لم يعد هناك سجناء حرب، إذ أن السجناء القدامى قد عُدّوا بمثابة أعضاء في كتائب العمال. إلى جانب بوابة المخيّم كان هناك الكوخ المألوف للحارس وبجانبه جنود سود ممدّدون في الظل. وأمام مساكن الجنود كان هناك مجموعة من

جنود المستعمرات السّود يجرون تدريباتهم العسكرية، ضاربين بأعقاب بنادقهم على الأرض بشكل مبالغ فيه، على طريقة الناس البدائيين. وهنالك اختلط الضباط مع بعض الألمان الذين يعملون في المرج، الذي دونه لا يستطيع الإنكليز، أن يعيشوا حتى في الصّحراء. في الخلف هناك ملاعب التنس وكريكت. وإلى يمين الطريق هناك مخيمات مليئة بخيام الجنود وأسرى الحرب. لاحظت صفاً من دلاء إطفاء النيران الحمراء مليئة بالماء مع بقع نفط لقتل يرقات البعوض. كان كل شيء في المخيّم فارغاً وغير مريح كما هو متوقع. وأنزلنا سائقُنا أمام مخزن مؤن حيث انتهت رحلته.

«سنكون محظوظين»، تمتم شنايدر. «المخيّم كبير جداً حيث يستغرق منا المسير من مخزن إلى مخزن وقتاً طويلاً. لكن رجلنا الزنجي قد أنزلنا في المكان الصحيح».

وجدنا في المكتب الصحّي رقيباً كهلاً بانتظارنا. بدا فاتراً لكنه في الوقت نفسه عصبي.

قدّمني شنايدر كصديق يريد رؤية البضاعة.

رحّب بي الرقيب بفظاظة وأخبرني أن أدخل.

«الآن، استمع إلي» قال شنايدر مفرقعاً أصابعه بتوتر. «عليّ أن أذهب لأتابع الشاحنة وبضائع أخرى. أخرج كل شيء يمكنك استخدامه وتحقق من أن كل البضائع قد حُمّلت على الشاحنة. بعد ذلك يجب أن تذهب إلى مخزن الملابس لتأخذ حمولة أكبر. وعند الثانية عشرة تماماً نتقابل أمام مطعم النّدوة البريطاني».

كنتُ منزعجاً من جشعه وتهوّره، فقت له: «ابقَ هنا. سنضع المستحضرات على ظهر السفينة ونغطيها بالأكياس أو بالرّمل ثم ننصرف بعد ذلك. فما معنى الاهتمام ببضائع أخرى في حين نهدر وقتنا الثمين».

فقال لي: «أيها الطفل المسكين» مع ابتسامة تنمّ عن ازدراء. «يعلم مالك الأرض ذو القدمين المقوّستين بأنني هنا، وعلي أن أحضر له شيئاً لأجعله سعيداً. مفهوم؟».

فأجبته: «أياً كان ما تقول، سنتقابل عند الثانية عشرة في المطعم - وأرجو توخّي الدقة».

لا شـيء يمنعني مـن أن ألتزم الدقة في الموعد. قام الرّقيب بعمله بشـكل رائع ولم تطـرف عينه عندما وضع لـي صندوقاً على أحد جانبيه عليه تعليمـات ألمانية تفيد بأنه كان يخصّ المفوّضية الألمانية. كان الصـندوق يحوي عشرة آلاف أنبوبة مليئة بأقراص المورفيـن - مـا يُعدّ حقاً ثروة كبيرة. وبما أنه لدينا بعـض الوقت لنبقى، فقد بحثتُ في المـكان عن شـيء آخر يمكنني اسـتخدامه، واخترت عـدداً من زجاجـات الكوكائين واليـودوكال eudokal التـي سـنحمّلها فيمـا بعد في الشـاحنة التي سيقودها السـائق المحلي الذي يخدم شنايدر إلى المخزن.

«مازال لديك وقت». قال الرّقيب عندما أنهيتُ ما كان عليّ عمله، وهكذا ذهبتُ معه إلى مكتبه، وهو عبارة عن سـقيفة خشـبية صغيرة، حيث شربنا الشاي وجِين غوردون. في البداية شـربناً شـاياً أكثر من الجين، وبعد ذلك كمية جين أكبر من الشاي. وأخبرني الرقيـب بأنـه لا يزال هناك وقـت للمزيد من الجين والشـاي. بالطبـع كان لديّ وقت، ولكـن لـم أكن في مزاج يسـمح لي بأن أكترث بعد ذلك بشـيء من اللهـو كذاك. لديّ الكثير من الوقت وكان رأسـي يدور بشـكل غريب. مع الوقت قمنا سـوياً بحلّ شؤون العالم بمسـاعدة مزيد من الشـاي والجين وكانت السـاعة في ذلك الحين قد تجاوزت الثانية عشرة.

تذكـرتُ فجأة أن شـنايدر سـيكون بانتظـاري وانطلقت إلى المطعم بأقصى سـرعة أستطيعها.

علـيّ أن أتبع طريق المخيّـم ثم أتحول إلى اليمين متابعاً إلـى ما قبل مخزن المؤن، بعدها... وبالتحديد بعد ربع ساعة أضعتُ طريقي بشكل كامل حيث لم يكن لدي أي فكرة أين كنت. لكني لا أسـتطيع أن أسـأل أحداً أو أقف سـاكناً لأتبيّـن اتجاهي حيث سيفضح ذلك حقيقةَ أنّي غريبٌ في المخيّم.

أصبحت المباني والطرقات بالتدريج أقلّ أُلفة. بالتأكيد لم آتِ لهنا قبل اليوم، لكني إذا لـم أجد شـاحنة شـنايدر، والتي من المحتمـل أنها لا تنتظرني، فعلـيّ أن أخرج من المخيّم عبر إحدى البوابات وألتقي شنايدر لاحقاً.

لكن أين كانت البوابات؟ مع شمس الظهر في منتصف السماء كان صعباً أن يجد المرء اتجاهاته. وقفتُ ساكناً تتملكني الحيرة.

هنا كانت الشمس...

وإذا بصوت ألماني يناديني «هيه، تعال هنا!»، وعلى الجانب الآخر من الطريق رأيتُ للمرة الأولى شرطيين ألمانيين بخوذتين بيضاوين فولاذيتين ونطاق أبيض فوق بدلتَي الأسر اللتين يرتديانهما. وكانا بالطبع يحملان هراوتين.

لم يكن من المفيد أن أساومهما، لأنهما كألمانيين جيّدين كانا يكسبان 33 مليماً في اليوم لقيامهما بعملهما بأمانة ودون رشوة، وفي دقيقة سيكون من واجبهما أن يقتاداني ويبدأا بتفتيشي.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى البوابة الشرقية».

«ماذا؟! الآن، خلال استراحة الظهر؟».

لم أفكّر في ذلك.

«أرنا ترخيص المرور الخاص بك».

قَبِلَ الحراس الزنوج عند البوابة ترخيصي كأي ترخيص صحيح لكن هذين الزميلين، المدرّبين والمتمرّسين، سيدركان حالاً أنها مزوّرة، إذ أنها لم تُكتب على ورقة نظامية. وحتى لو كانت حقيقية، سوف يظنان أنها آتية من أسير حرب فارّ ذي سجلّ أسوأ من سجلي. كل ذلك وأنا تحت تأثير الجين وحرارة الشمس اللذين زادا على خوفي اضطراباً. لم أهتمّ كثيراً بما حدث ولا أحد يستطيع مساعدتي الآن، ولأنه لم يعد لي شيء أفضل لأفعله، صحتُ بهما، «ماذا تقصدان بإيقافي؟ ألا تعرفان طبيب مشفاكما؟ هل عليّ أن أعلق علامة حول عنقي واسمي عليها؟ أنا الضابط الطبّي المساعد دكتور بريتسكِه».

تلفظت بذلك الاسم من دون قصد، وقد سيطر علي الذعر والقنوط، مع أنني تظاهرت بالغضب والانزعاج، ولكني تذكّرتُ بعد أن نطقت به أنه من الحكمة ألا أتبجّح باسم بارز في سجلات الشرطة. لم يبدُ لحماقتي أثر سيء، وكان لثورتي أكبر الأثر. اتّخذ الجنديان وضعيّة الاستعداد على طريقة جنود الفيرماخت[1] القدامى، واعتذرا على اعتراضهما إيّاي. «اسمح لنا سيدي الطبيب *Herr Doktor*، أن نذكّرك بأنك تسير في الطرق الخاطئ». ثم أشارا إلى الطريق الأقصر إلى البوابة الشرقية بغاية ومطلق التهذيب.

لم يعد يبدو مهماً كيف أو متى أو أين أقابل شنايدر. بعد تأخّري الطويل سأكون محظوظاً أن أقابله. الشيء المهم بالنسبة لي هو أن أخرج خارج المخيّم. كان الاتجاه الذي أُعطي إليّ من قبل الألمانيين دقيقاً جداً بحيث لم أفقد طريقي إلى البوابة. كانت، بأية حال، البوابة التي عبرها شنايدر منذ وقت طويل بشاحنته، إذ لم يكن هو الرجل الذي يبقى لفترة أطول في الوجار أكثر من الضرورة.

عند البوّابة كان الحرّاس الأفارقة لا يزالون جالسين بكسل على مقعدهم بعد أن أدخلوا داخلاً جرس الدخول حتى لا ينزعجوا أثناء القيلولة. عمّ الهدوء والاسترخاء ظهر ذلك اليوم الصيفي في المخيّم. كنت أتمنى أن يكون الرجل الذي يقوم بالمهمة كسولاً جداً بحيث لا يتحقق من إجازتي بعناية. كانت معي في جيبي قُصاصة ورق، جهّزتها لأخرجها وأظهرها بشكل طارئ عند استطاعتي.

ولكن ما الذي يحصل! سمعتُ صفارات الإنذار تنطلق، وكل مخاوفي وهواجسي قد استُنفرت فجأة مرة أخرى. سينتهي أمرنا في حال تنبّهت الشرطة، بسبب غباء بعضنا، وأدركتْ وجودي أنا وشنايدر في المخيّم، وأغلقت البوابة في وجهي.

نظرتُ حولي – بتريّث، حيث كان من الضروري ألا أُظهر أيّ أثر قلق قبل أن أتجاوز الزنوج. كنت أريد أن أكتشف لماذا كانت صفارات الإنذار تعمل.

---

(1) الفيرماخت بالإلمانية Wehrmacht تعني الجيش الألماني النظامي، كما كان يسمّى بين 1935– 1945. والمعنى الحرفي بالألمانية: قوّات الدّفاع.

وأخيراً اكتشفتُ أنها كانت مجرّد حادثة روتينية. اقتربت شاحنة مغطاة إلى مسافة قريبة بسرعة أعلى من 15 ميلاً في الساعة، وخلفها شرطي عسكري على دراجته البخارية، لحق بها وأوقفها، أخذ رقم العربة واسم السائق. ستأتي المخالفة غيابياً فيما بعد كما في ألمانيا. غيّر سائق الدراجة النارية اتجاهه وانطلق ليعود إلى المخيّم. شعرتُ أن عليّ فعلاً ألا أسمح لنفسي أن أخاف من شيء تافه كهذا، وأملت أن أكون محظوظاً بالدّرجة ذاتها عندما قدّمتُ تصريح الخروج.

خرج بعدها رقيبٌ بريطاني من المحرس ليراجع البيان. نظر إليه للحظة، وناوله عبر النافذة إلى السائق، ثم رفع يده كإشارة إلى الجنود عند الحاجز ليدعوا الشاحنة تعبر.

عند تلك اللحظة سمعتُ صوت صياح: «هيه أيها الرّقيب!»، لا بُدّ أنه إفريقي نظراً للضجّة التي قام بإصدارها. ومضت السيارة يقودها السائق مخلّفةً وراءها بقع بنزين وسحابة من الدّخان المنفوث من العادم. وتبعها حارسٌ زنجي كان يؤدّي مهام نوبته، وصاح بإنكليزية متكسرة: «لقد أخذ معه أكياساً وسترات وبطانيات»، ملوّحاً ببندقيته بشكل مثير في الهواء.

نزل الحاجز ثانية وسار الرقيب متجهّماً إلى الباب الخلفي وفتحه.

وقال: «اخرُج من السّيارة»، ثم التفت إلى الجندي الزنجي قائلاً: «اذهب وأخرج السّائق وامسكه».

قفز الرجل الذي بزيّ أسرى الحرب خارج الشاحنة إلى جانب الرّقيب تماماً. كان جسداهما متلامسين تقريباً، أمسك بيده مسدساً ووجّهه إلى معدة الرقيب، ضغط الزناد وسمعتُ صوت انفجار خافتاً، ثم واحداً آخر. انهار الرّقيب دون أن ينبس ببنت شفة. لم يصرخ الجنود حتى لطلب المساعدة.. بأفواه مفتوحة تشبثوا ببنادقهم، وكأنهم كانوا يخشون أن يفقدوها، وحدّقوا بالمأساة التي لم يستغرق حدوثها سوى ثوانٍ قليلة.

هِلموت شنايدر!

كنتُ على وشك أن أنادي عليه – الأمر الذي كنت سأقضي من جرّائه إن فعلت –

لكني تأثرت بصمت كالأفارقة، وبقي فمي مفتوحاً دون أن يندّ عنه أيّ صوت. في هذه الأثناء ركض شنايدر مارّاً بالرجل في الأمام ومتجهاً نحو الحاجز، فاعترض طريقه الجنديان الأسودان. لقد كان مصمّماً على الخروج، ولذلك ما كان منه إلا أن أطلق عليهما النار، لينزوي السّود الآخرون بسرعة في مخبأهم.

كان عدد الحرّاس أكبر مما توقعت عندما عبرنا البوابة. أتى رقيب ثانٍ إنكليزي راكضاً خارج غرفة الحراسة، وهو يصيح: «هيّا.. عليكم بابن الحرام» ثم أطلق على الرجل الفار عدّة طلقات. أيقظت صيحات الرقيب الغاضبة وعي السّود، فبدأوا بالصياح وركضوا خلف شنايدر مطلقين النار من مستوى أوراكهم أثناء ركضهم.

رأيتُ شنايدر فجأة يقصر خطواته وينهار ببطء على ركبتيه. استدار، ومازال مصرّاً على أن يحمي نفسه ويحمل مسدسه بتثاقل. لم أسمعه يطلق فعندما ركع كانت عاصفة من الرّصاص من السّود المصوّبين من مدى خمس عشرة ياردة قد اجتاحته. سقط للأمام على وجهه ومسدسه ما يزال في يده، وبعدما مات استمرّ الجنود بإطلاق النار عليه لفترة طويلة، ولم يكفّوا حتى جاء ضابط ورفع عصاه يأمرهم بأن يوقفوا إطلاق النار.

في الفاصل الصغير ما بين طلقة شنايدر الأولى ووصول الضابط الإنكليزي، اندفع حشد من البريطانيين، والأفارقة، والألمان، والعرب إلى مسرح الحدث باهتياج. اندفعوا جميعهم عبر الحاجز وكنت أنا معهم. لم يعد الخروج خاضعاً للسيطرة بعد الآن، إذ أن الحراس قد انشغلوا بأمور أخرى.

رأيتُ هناك جثة الرجل الذي كان هِلموت شنايدر. كانت يداه ممدودتين وقدماه تحت جسده كهيئة المسلم في صلاته. شكّل الدّم من جروحه بركةً سوداء بجانبه. لو لم أره حين قفز من الشاحنة، لما استطعت التعرّف عليه. كان وجهه مطموس الملامح ولم يكن هناك موضع شبر في كامل جسده لم يتمزّق بالرّصاص.

وبينما كان الجميع محتشدين بشغف حول الجثة، اتّخذتُ طريقاً لي ببطء بعيداً،

ومشيت متأنياً على غير هدى في البداية، ونجحت في أن أبتعد بعيداً عن المخيّم دون لفت انتباه أحد، لكن الليل كان قد حلّ عندما وصلت إلى النقطة التي رتبنا أن نقابل عندها سيارة الجيب في طريق عودتنا. لم يكن هناك لا رجال شنايدر ولا الجيب.

والآن، لا بُدّ أن الجميع ضمن مساحة نصف قطرها خمسون ميلاً قد سمعوا بالقصة. وعندما وصلت قريتي قرية الجمال المُسرجة لم يذكر أحد القضية مع أنني متأكد بأن الجميع قد علم بها. وفوق ذلك، فإنّ سويلم ومسلّم كانا قد حضرا أول مقابلة لي مع شنايدر ولا بدّ أنهما توقعا ما كنا نخطط له.

«ابقَ معنا»، قال مسلّم، «لسوف تلقى السّعادة معنا».

وقال سويلم: «انسَ أي شيء آخر. أوه، أعلم أنك ستنسى».

لم يكن الخروج من الصّحراء سهلاً حتى بالنسبة لِهلموت شنايدر، بطل الأسطورة. إذ أن دخول الصّحراء ليس كخروجها.

«ابقَ، سلامة!»، لا زال صدى تلك الكلمات يتردّد في أذني.

«وانسَ»، أضفتُ مخاطباً نفسي، «بأنك كنت مرة الطبيب بريتسكِه وكنتَ تعيش في المدينة العظيمة برلين مع ناس من بني جلدتك. انسَ يا سلامة».

* * *

7 - أحلام الحشيش

إنّ حياةً تخبئ في جعبتها مفاجآت تنذر بنهاية قاسية وغير متوقعة لها لهي حياة مريرة، لذلك فقد بدأت أقدّر بالتدريج الطرق التي من خلالها كان بدو قريتي يحوّلون تراب حياتهم اليومية إلى تِبر، طائرين على جناح هلوساتهم وخيالاتهم بتأثير الحشيش إلى عوالم أخرى ملؤها الأفراح.

دعاني سويلم مرة لحفلة في كوخ قصبي دائري جانب القرية. فوافقت مع بعض التردّد، حيث رغبت أن أجرّب وأعرف بنفسي ماذا يحدث لرجل عندما تأخذه نشوة الحشيش.

هذا ما كانت تبدو عليه الأمور قبل أن نبدأ التدخين: كان هنالك خمسة شباب، متحلقين حول النار تحت سقف من قصب الذّرة. كانت أصابع سويلم السّمراء تلفّ مادة رمادية في كرة صغيرة، سخّنها فيما بعد متحولة إلى كريّة إلى درجة الالتهاب بواسطة كوز ذرة محروق قبل إدخالها في رأس الشيشة. تلك الشيشة كانت عبارة عن أنبوب مائي قصير ذي رأس نحاسي وساق خيزران نحيل. من اللحظة التي اجتمعنا فيها في الكوخ، لم نقل ولا كلمة. كان الصّمت جزءاً أساسياً في مراسيم تدخين الحشيش، لا أكثر من إيماءة تقدير يُسلّم معها كل مُدخن الشيشة بعد سحبتين أو ثلاث سحبات عميقة إلى جاره. حتى عندما قاطعتُ الأحداث باختناقي والسُّعال بعد سحبتي العميقة الأولى، لم يُظهر أحدٌ ابتسامة تنمّ عن معرفته بمراسيم التدخين. بعد ذلك ساد صمتٌ مُطبق، حيث كانت محاولتي الثانية أكثر نجاحاً، واستطعتُ أن أسحب الدخان دون اختناق.

خمدت النار، ولم يحدث شيء. إذ أنني لم أختبر شعور المتعة ولم أرَ شيئاً من الأحلام. ما زال عقلي صاحياً بشكل كامل، حيث راقبتُ بإدراك كامل واحداً من أفراد حفلنا يغذّي النار بالقش وأكواز الذرة. بعد فاصل طويل أتت القصبة إليَّ ثانية وفق الدور. مازلت لا أحلم، ولكني بدأت أتأمّل في حقائق حياة البدو، المؤلفة كما كانت من المتعة والاضطراب والقلق. فكّرت في حملاتهم الخطرة والبعيدة في البحث عن هذه المادة الخضراء الرّمادية. لم يعد سراً بالنسبة لي، أن الشرطة عندما تشنّ غارة على القرية، فإنها إنما تفتّش عن الحشيش. وبما أنهم لا يجرؤون أبداً على الدخول إلى المستوطنة في الليل، فإن البدو، الذين لديهم استخبارات بارعة، بإمكانهم دائماً مواراة مخزونهم من الحشيش في الصّحراء قبل الفجر مباشرة. كان لغزاً بالنسبة لي كيف يجدون مخابئهم الوفيرة من الحشيش مرة أخرى مع أنهم لا يتركون أيّة علامة أو أثر أبداً على الرمل يظهر أين قاموا بإخفائها، لكنهم مع ذلك يجدونها. لكنني عندما جلست هناك رأيت كم كان الأمر عادياً ويخلو من أية إثارة أو تشويق كما ظننت. لم يكن لدي أيّة أحلام ولم أؤمن بها أبداً.

شعرتُ بالتعب، هذا كل ما في الأمر. كانت أطرافي ثقيلة، لم أستطع أن أنهض بعد الآن وكنت مضطراً إلى أن أضطجع على جنبي. ثم بدأ الكوخ يلفّ بي. علي أن أسجّل وأتذكر الإحساس. فكّرت أنه من الحكمة أكثر أن أُغلق عيني حتى لا أُصاب بدوار كالفتى بعد تدخينه سيجاره الأول.

ثم توقف الكوخ فجأة عن الدّوران.

لا أحلام!

والآن صار بإمكاني أن أفتح عيني ثانية، عندما فعلت ذلك، بدا غريباً جداً أن جدران القصب لم تعد هناك أبداً. لكن كيف نجح رفاقي بإحضاري إلى هذا القصر المملوكي؟ وجدت نفسي أقف وحيداً بالكامل في فناء تزيّن جدرانه الفسيفساء، وعلى كل جانب هنا وهناك نوافذ مشربية *mushrabiyeh* تزيّنها زركشات بهيّة. وأمامي كانت هنالك نافورة بديعة تنثر رذاذها المنعش، وفي البركة أسفلها أسماك ذهبية تسبح. كان حولي

حديقة كبيرة بمروج خضراء، تتناثر فيها الأزهار التي تعبق بأزكى العطور. مشت فتاتان بخطى رشيقة متراقصة، تضحكان وتمرحان، يتبعهما ثلاثة عبيد بدينون يعزفون لهما الموسيقى على الرّق والناي والقانون وهما تتراقصان عليها. تبعتهما أخريات يتمايلن بأجسادهن النحيلة على أنغام الموسيقى الرائعة. كنت الآن جالساً على سجادة، بغاية السّعادة والسرور كما لم أكن من قبل أبداً، أُراقب تلك الغواني الفاتنات يؤدّين أبدع لوحات الرقص الشرقي. ورسوم السجّادة المحاكة تحتي تنبض بالحياة حتى تكاد تنطق. على الجانب البعيد للحديقة جلس رجلٌ عجوز تبدو عليه أمارات المرح بعمامة على رأسه ولحية قد خُضّبت باللون الأحمر، امتدّت أمامه على طاولة مرصعة باللؤلؤ والعاج أكوام كثيرة من البطاقات الصّفراء المطبوعة. التقط الرجل العجوز واحدة منها قرأتُ عليها، على الرغم من بُعد المسافة: «وثيقة سفر للأجانب».. وثمّة صفّ طويل من الرجال في زي أسرى حرب جاؤوا ووقفوا أمام الطاولة واستلم كل واحد منهم جواز سفر.

وصاح منادياً عليّ: «حسناً، سلامة، ألا تريد واحداً أنت أيضاً؟».

عندما حاولت أن أنهض وأذهب إليه، شعرتُ بيد فوق ذراعي وسمعتُ صوتاً لطيفاً يقول: «هربرت، ابقَ قليلاً». وقفت أمامي فتاة شقراء طويلة ترتدي عباءة صيفيّة مزدانة بالأزهار، وتنتعل كعباً عالياً. كانت عيناها زرقاوين رماديتين، وأنفها مستدقاً، وكانت شفتاها مشققة. أوه، نعم، تذكرت جيداً الساعات السعيدة التي قضيناها معاً في بيتها الصغير المريح بجانب الحدائق النباتية في برلين.

ناديتُ عليها: «ليزا! عزيزتي، أين كنتِ كل هذا الوقت؟».

مالت قبالتي، مع أنها لم تعد تستطيع الوقوف ثم همست: «في وارسو، عند مركز القيادة، تحت الأنقاض». أمسكتُ بيدها، فوجدتها باردة متجمّدة. ابتسمت مرة أخرى ثم بدأت تتلاشى بعيداً، ولم يكن هناك شيء يُرى إلا خيط دخان كالذي يراه المرء عند إطفاء شمعة.

ناديتهـا: «ليزا، ليزا»، عندما ضللتُ طريقي في الحديقة حتى وجدت نفســي أواجه الرجل العجوز المرح. فسألته: «ماذا حلّ بليزا، ماذا حلّ بليزا؟».

فما كان منه عند سماعه كلامي إلا أن التقط بسـرعة كل الوثائق المتبقية عن الطاولة، ممزقاً العمامة عن رأسـه واللحية عن ذقنه بحركات سريعة، ورأيت العينين السّوداوين لضابط الاستخبارات من المخيّم رقم 307 تحدّقان بي من تحت حاجبين كثيفين.

قال بسخرية: «علمتُ أنك ستعود. كلهم يعودون، لكني أنتظرك بشكل خاصّ لتأتي وتردّ على اتهامات سرقة ملكية الجيش البريطاني والتخريب المتعمّد للمعدات، لا أن تذكـر كيف ضلّلت سـلطات المخيّم وفررت مـن المخيّم. تأكد بأنك سـتحصل على سبع سنوات في مخيّم عقوبات».

وثبـتُ للخلف وركضت بعيـداً منه داخل الحديقة التي كانت مظلمة وخالية. لأرى في المنتصف حيث كانت النافورة ناراً متوهجة يخرج منها دُخان سام أخضر كثيف.

بـدا أنه مقدّرٌ علـيّ أن أقضي عمري جرياً دون توقف. انقطع نَفَسـي بالركض لكني لاحظت أنني لم أتحرّك من حيث كنت، لأنني كنت أركض على شريط يتحرك بالاتجاه المعاكـس لذلك الـذي كنت أرغـب بالذهاب إليه. قمتُ بجهود يائسـة لكـن عبثاً: لا أسـتطيع التقدّم. لا يزال الحوض النحاسـي هناك وقد ارتفع اللهب منه لأعلى وأعلى. لـم يصدر عن اللهب أي نور وأصبح الدخان الذي رافقه أكثف وأكثر خضرة وسـمّية. ومـن خلال الدخان الذي كان يوشـك على خنقـي، رأيت وجه ضابط الاسـتخبارات الذي أصبح لونه أكثر خُضـرة وسُـمكاً كرأس ضفدع عملاق، وسـمعته يقول: «ذاهبون لإحضـارك، لقد أحضرناك فعلاً، سبع سنوات، سـبع سـنوات!».

بعدها استيقظت.

هـذا مـا كان في حلمي. كان مجـرّد حلم وحيـنها رأيت، كما رويـت لتوي، الفتيات الرّاقصات المحجّبات النحيلات، وكنت مفتوناً بصوت موسيقى كهذه لم أسمع مثلها أبداً. لكن النشـوة التي تملّكتني شابَها الرُّعـب الذي داخلني بدافع من توتري قد أحاط

فأصبح إيقاظي كارثياً.

كان الكوخ فارغاً والنار قد تلاشت. كنت مستلقياً على الأرض مُغطىً ببطانية رماها أحدهم علي، لكني كنت أرتجف من البرد. شعرت بأني بغاية التعب والإنهاك وكأني أنجزت لتوّي مهمّة بدنية ضخمة وعلي الآن أن أجرّ جسدي المرهق إلى خيمتي. لا، ما الذي كان علي فعله؟ بعد بضعة خطوات تردّدتُ بالعودة وسقطت عند مدخل الكوخ والنجوم الباردة التي تجلّت عنها السماء الصافية، تنخر عظمي.

أصبحت حقائق حياتي تبدو أكثر قسوة ووحشة من قبل على الإطلاق. الأمر الذي سيفضي بها ربما قريباً إلى نهاية قاسية.

* * *

8 - الحملة إلى خان يونس

فيما بعد بفترة قصيرة أتى الشيخ سليم خضر ليبحث عني في خيمتي. فرآني مشغولاً بمريض.

«أسرع»، قال.. «لدي شيء مستعجل لأقوله لك».

كان صوته منخفضاً وأثار شكوكي. لم أرغب في أن أجعل الشيخ ينتظر، وهكذا فحصت مريضي بسرعة ودفعت في يده برزمة صغيرة من أقراص إنتيرو - ڤيوفورم Entero-Vioform لعلاج الإسهال، وأخبرته أنه إذا لم يشعر بتحسن فعليه أن يأتي ويراني ثانية. ثم دفعتُه دفعاً إلى الخارج.

وجدتُ سليم خضر يجلس واضعاً رجلاً على رجل في كوخ الانتظار عندي. جلستُ بقربه، فقال لي: «اسمع، سلامة، نطلب مساعدتك اليوم، إذ أنني أعتقد أنك تستطيع قيادة جيب أميركية»، كان هناك نبرة استفهام في صوته. فالعرب يعتقدون بأن كل غربي، وخاصة إذا كان ألمانياً، قد تشرّب معرفة المسائل التقنية مع حليب أمه.

إذا قلت الآن إنني لم أقد سيارة جيب أبداً، لن أكون قد جانبت الحقيقة، لكن، تماشياً مع الولاء للشيخ، صرّحتُ بوقار بأنني أستطيع. أستطيع بصعوبة أن أقود سيارة عادية، ومزايا الجيب من ناحية متانة إطاراتها الأربعة وقدرتها على أن تعبر أرضاً قاسية لن تكون شيئاً غير مألوف بالنسبة لرجل تعوّد أن يقود عربات الجيش الألماني.

ثم سألتُه فيما بعد عن غايتنا، فقال لي: «نحن ذاهبون إلى خان يونس، بعيداً في سيناء. هناك بعض البضائع أودّ أن أحضرها».

لـم يكن هناك فائدة من محاولة الانسـحاب. كان علـي غالباً أن أقود حتى ولو قلت إنني لا أسـتطيع القيادة أبداً، فلن يصـدّقني أحد. كانت خان يونـس، وهي مدينة صغيرة تقع مباشـرة على الجانب المصري من الحدود الفلسـطينـية، كانت بالنسـبة للبدو على الأقل مصدراً هاماً للحشيش.

تُجلـب المـادة أو البضـاعـة، أو كما تريد أن تسـميها، إلى هـناك بالسـفينة أو الطائرة أو عـن طريـق البرّ، ثم تُحمّل إلـى مصر من خلال مهرّبي الحشـيش المصـرين. كانت الشـرطة التـي تخفر الصّحـراء بكاملها شـرقي القناة بقـدر ما تخفر الحدود بسـيارات الجيپ والسـيارات المصفحـة، تعرف عن الطريق أكثر مني، غيـر أن دوريات الهجّانة السّودانيين في الواقع كانت نوعاً ما أكبر فاعلية من سيارات الشرطة.

سـألته: «لماذا لم يذهب اسـماعين[1] كالعادة؟»، لأنني كنـت أريد بكل الأثمان ألا أذهب.

تبـتم الشيخ بتأمل. قارئاً نواياي جيداً.

قال: «آسف، لكن اسماعين اعتُقل البارحة في الإسماعيلية».

«ثمّة شيء خطير؟».

«سيبقى فـي الخـارج مرة أخـرى ليومين أو ثلاثـة. لدينا رجل ذو نفـوذ موثوق مع الشرطة، لكنه اليوم عندما أردناه لم يكن هناك».

قلـت: «إنـه رجل خبير ويعـرف الطريق. أليـس من المُجـدي أن تؤجّل الرحلة لعدة أيام، وهكذا ستكون قادراً على أخذه معك؟».

ابتدعتُ العديد من الأعذار واستمع الشيخ بصبر وأعطى رأياً مهذّباً لكلٍ منها. أخيراً قال: «في الدرجة الأولى، حتى تنجح خطتنا، علينا أن نرشو بعض ضباط الشرطة الذين يكونون على رأس عملهم الليلة. ثانياً، إن المجموعة بأكملها قد تهيأت لتنفيذ المخطط

(1) كذا في الأصل: Ismain بحسب اللهجة العاميّة للريف المصري، والمقصود بها طبعاً: إسماعيل.

الليلة. ثالثاً القمر في ربعه الأول ويعطي ضوءاً كافياً لنا لنكتشف الطريق وهو قليل جداً لنا لنُكتشف من مسافة. وخلال عدة أيام سيكون ساطعاً جداً. هل فهمت الآن؟».

بالطبع فهمت لكن المشهد لم يسرّني. وما قاله عن رشوة الشرطة يمكن أن يكون صحيحاً في جزء منه. كانت المخاطرة كبيرة وأكبر بالنسبة لي من البدو، لكني كنت واثقاً بالنيّة الحسنة للرئيس. إنما لبثتُ أتذكر عواقب خطة هِلموت شنايدر لنقل المورفين، التي أردته قتيلاً وكادت أن تلحقني به. لقد فقدتُ فرصتي بالحصول على وثيقة سفر وتذكرة الباخرة. لم يكن هناك الآن إمكانية لهروبي، إلا إذا...

ولكن، عندما تأمّلتُ القصة من كافة أبعادها، وجدت أن هذه الحملة توفّر لي إمكانيات مؤكدة. إذا عبرنا حالاً الحدود الفلسطينية، فربما سأحصل على فرصة فرار وأتخذ طريقاً لي شمالاً عبر فلسطين وسوريا. لن أحصل على الأرجح على فرصة مماثلة أخرى لأنسلّ عبر الحدود. بأيّ حال، لن يكون من الحكمة أن أظهر حماسة تجاه خطة لم أبدِ حماسة لها من البداية. وهكذا أبديتُ عدّة اعتراضات أخرى، أقنعني بها الشيخ بحِلم.

وهكذا تنهّدت وقلت: «حسناً، إذا كانت الأمور ستجري كذلك...».

يجب أن تُنفّذ الخطة بدقة، لذلك فقد غادرنا أنا والشيخ وسويلم وبدوي آخر قبل الظهر على ظهور الجمال. كان الطريق مألوفاً نوعاً ما بالنسبة لي. عبرنا مسرح هروبي من المخيّم والمكان الذي كنتُ فيه ميتاً من العطش، لولا أن راعي ماعز صغير كدِر أدركني. لقد كانت جرأة مني أن أمرّ راكباً بالمخيّم الذي هربتُ منه، وكنت فيه «مطلوباً» حياً أو ميتاً، لكن في الحقيقة لم يكن هناك من خطورة فعلية عليّ. لقد أدركتُ بأن هروبي لم يحملني بعيداً جداً، وأنا أتساءل الآن: هل سأبتعد أكثر هذه المرة؟

عند حلول الظلام وصلنا إلى مخيّم عربي إلى الجنوب من «القنطرة» وقريب جداً من قناة السويس. هناك سلّمنا جمالنا لأحدهم كأمانة. أُعدّت خططنا بعناية وقد تمّ تحديد مكان دقيق على ضفة القناة سيتوارى فيه زوجان من البدو الرُّحّل عن الأنظار.

في تلك الأيام كانت القناة بطولها تحت حراسة الشرطة، والمسافة ما بين مخفر ومخفر كانت من اثنين إلى ثلاثة كيلومترات. علم شيخنا أن الحرّاس كانوا يحرسون أماكنهم على طول الضفة بنمط بطيء الحركة. كانت المشكلة هي أن تعرف تماماً في أيّة لحظة مفترضة مكان أقرب حارس. اختبأنا أنا والشيخ وانتظرنا بينما قام الرجلان الآخران يستطلعان على جهة كل منا.

أمامنا فترة انتظار طويلة ومرهقة. كنت معتاداً بشكل جيد على أصوات الليل. لكنني لم أستطع أن اتمالك نفسي عندما سمعت صراخ الضبع.

نهض الشيخ فجأة وقال: «القارب». كان كل شيء صامتاً. استمعتُ إلى صوت المجاديف، لكني لم أسمع أيّ صوت. وإذا بشبح إنسان يقترب منزلقاً فوق الماء على مسافة عدّة أقدام من الخردة ثم ينسحب بهدوء من أمامنا. لا بدّ بأن هذا المشهد قد أُعيد تمثيله عدة مرات من قبل. شخص يخطو خارج قارب، منسلاً بصمت فوق حافة المركب وصرت أشعر، أكثر مما أرى، بأنّ هنالك أياديَ تقوم برشاقة بربط القارب إلى الرّزّة في الضفة.

سنبقى ننتظر حتى يعود زميلانا ويقدّما تقريراً بأن الساحل كان خالياً من العقبات. وأخيراً أتيا وأومأا بصمت، دون كلمة تقال. أعطانا الشيخ إشارة لنركب السفينة. صعدنا بأقصى حذر في زورق بخاري صغير وقد حُمّل بمؤن ومعدات كثيرة، حتى أننا لم نتجرأ أن نتحرك بسبب أن مركبنا، الذي غاص جزء كبير منه في الماء، كاد أن ينقلب. كان الولد الزنجي الذي يقود القارب يعرف عمله. لم يُصدر أي صوت عندما جذّف وبالكاد شعرنا بأننا نتحرك، لكن بعد عدّة دقائق وجدنا أنفسنا قد وصلنا الضفة الشرقية.

لم يكن الشيخ بتبجّح عندما كان يتحدّث للمجموعة. لقد نُفّذت خطتنا بإحكام حتى في أدقّ تفاصيلها، بما يليق بكامل كادر المجموعة.

مشينا على طول الشاطئ بصمت لمسافة ميلين حتى وصلنا إلى وادٍ غير واضح

المعالم، حيث وجدنا بدوياً ينتظرنا مع الجمال..

لكن لماذا جمال أمتعة؟

تمّ اختيار هذه الحيوانات البنيّة السّمينة بطيئة الحركة حتى لا تلفت نظر شرطة الصّحراء، والتي تستطيع بسهولة تمييز آثار تلك الحيوانات ذات الأقدام المسطحة من الجمال العربية ذات الأصابع الضيقة. ولو امتطينا ظهور جمال الرّكوب كانوا سيتبعون قافلتنا في الحال. لذلك سيكون أكثر أمناً بالنسبة لنا أن نسير متمهّلين، لأننا لم نكن نرغب أن يتم إلقاء القبض علينا كمهرّبي بضائع، الذين غالباً ما يستخدمون هجن الرّكوب السّريعة في مناطق الحدود.

ركبنا طوال الليل دون توقف. في البداية كان القمر هلالاً ثم حلّ الظلام، وبتنا بالكاد نستطيع رؤية شيء من المناظر الطبيعية، كانت الأرض في معظمها مسطّحة، أو بحراً متماوجاً من الرّمال إن صحّ القول. حيث مررنا بطريقنا بشجيرة شوكية أو بقع صغيرة من نباتات الصّحراء.

بدأت مشاهد الطبيعة عند الفجر بالتغيّر. حيث أصبحت الشجيرات الشوكية أكثر وأكثف والأرض حجرية أكثر.

وصلنا إلى «أبو ترجمان» Abu Tarjuman، بوابتنا التالية للارتباط، وكانت الساعة تقرب من العاشرة. شعرت بالثقة أننا وصلنا في الساعة المحددة عندما ترجّلنا أخيراً عند مخيّم بدوي، حيث أخذ رجلٌ يعتني بجمالنا. كانت تلك أيضاً عبارة عن حلقة في سلسلة مجموعتنا الفعالة جداً، والتي زادت ثقتي بفعاليتها عندما قدّم لي العرب سيارة الجيب لقيادتها.

منذ ذلك الحين وصاعداً بدأتُ بتحمل مسؤوليات جمّة على عاتقي، وحقيقةً أنني لم أقُد سيارة من قبل فوق ذلك النوع المروّع من الأرض لم تكن أخفّها وطأة. لقد أخذنا بالتخبّط فوق منطقة حجرية من الصعب تماماً اجتيازها، ولكننا لم نواجه مشكلة حقيقية حتى الظهيرة عندما وصلنا نحو منحدر عميق مغطى بأحجار كروية بحجم كبير

أخذت بالانزلاق تحت الإطارات مما جعل القيادة فوقها بمثابة عقوبة. وبقينا في حالة تدحرج فوق هذا السطح غير المأمون لمدة ثلاث ساعات حتى وجدنا أنفسنا فجأة، ودون سابق إنذار نتدحرج فوق رمل صلب.

احتجنا إلى راحة بعد تلك القيادة المروّعة، وهكذا سرنا بالسيارة حتى وصلنا أجمة من الشجيرات الشوكية، حيث استطعنا أن نخفي الجيب بشكل مموّه. لم يكن أمامنا إلا القيادة بشكل مستقيم داخل الأدغال ونترك مبرّد المحرك يفتح لنا ممراً لنا عبر الأغصان الجافة.

كأني أسمع رُغاء جمل؟

نعم، إنه كذلك، وهناك شيء آخر أصبحنا مُدركين له، ألا وهو صوت فكّ قفل أمان صادر عن بندقية تم توجيه فوهتها البكماء نحو صدورنا.

كان الرجل الذي يحمل السلاح أتعس وأبأس مخلوق رأيتُه على الإطلاق. ضغط عقب بندقيته على كتف أسود أعزل وبقايا جلاّبية ممزقة بالكاد تغطي جسده، ومن تحت كوفيته تدلّت خصلة شعر واحدة، وهي علامة بدوي سيناء، بأعلى جبهته. ولم يكن يُرى منه غير جبهته وعينيه، أمّا باقي وجهه فكان مغطى بلفة قماش رأسه الذي يحميه من الغبار والهواء، ويُعدّ بمثابة لثام.

انخفضت البندقية فجأة، حيث تبيّن أن الشخص الهزيل ورفاقي كانوا يعرفون بعضهم. لقد بدا أن كل الناس الذين يتاجرون في الحشيش يعرفون بعضهم. ظهر شيخنا سعيداً باللقاء. كان الرجل المتنكّر بجلابيته الممزقة يعود «بالبضاعة» معه وكان قادراً على تبادل بعض المعلومات معنا. إنّ لديه أسلوبه الخاص في السفر ولا يتحرّك أبداً إلا في الليل. وكان لتوّه قد انسلّ في الأجمة قاصداً النوم باقي النهار، عندما دخلنا وأفزعناه.

انتظر الشيخ خضر بصبر. دون أن نستطيع قراءة أفكاره أو مشاعره على وجهه. ربما يعود غياب الوكيل إلى سبب تافه، أو ربما كان يشير إلى حدوث خلل ما قد يعرّض

مشروعنا برمّته للخطر.

أتى الرجل أخيراً وأعطانا بشكل خفي إشارة للتقدم. حيث صار بإمكاننا أن نقود إلى داخل المدينة ودون عوائق.

فسرنا بالسيارة إلى بيت يبدو إلى حدّ ما كقصر أحلامي.

كنتُ بغاية التعب والإنهاك حتى أني لم ألاحظ مواطن الجمال والروعة في مسكن الحاج محمّد عبد الغفار المهيب: المدخل بأعمدته الملتفة والزينة الحجرية فوق المدخل التي توحي بقصر عائلة قديم. كان في الفناء نافورة مع حوض من الرُّخام تذكرني بنافورة حلمي، وفي الحوض يسبح بعض السمك الذهبي المضيء. حدّقت بها متسائلاً إذا كانت ستتخذ أشكالاً أخرى كأسماك حلمي. وكل ما كان ينقص كان ثلّة الفتيات الرّاقصات بثيابهن الشفافة.

ربّاه! كيف لي أن أفكر في الفتيات الراقصات، وكيف كان الشفاف من الثياب يكسو أجسادهن النحيلة، بينما كان علي أن أتذكر أنا كنا قد وصلنا إلى ساحل البحر المتوسط وأنه، إذا استطعت أن أنسلَّ بعيداً عن رفاقي هنا، ستكون رحلتي إلى وطني قصيرة قطعياً.. ولكن عندما قادنا مضيفنا إلى غرفة كبيرة بها أسرّة مُعدّة لنا، استلقيتُ واستغرقت في نوم عميق لم أستيقظ منه لساعات طويلة على وقع نداء خادم استدعانا إلى غداء فاخر مع الحاج محمّد. إنّ الطعام الجيد والمسكن المريح الذي تم توفيره لنا في بيت هذا التاجر في الحيّ القديم لخان يونس يجعل من العودة جحيماً عند المقارنة به.

أثناء الوجبة التي لا تنتهي لم يقل مضيفنا كلمة واحدة عن العمل الذي حدا بنا إلى القدوم إلى خان يونس. لم يجرِ من حديث سوى تبادل المجاملات والسؤال عن صحة أفراد مجموعة الشيخ ومُضيفنا، وهم كُثر، وأفراد عائلته. وفي الفواصل بين المجاملات ركزنا جميعاً على أصناف الطعام من الطيور والأرز ولحم الضأن والسّمك وأشهى الحلويات. ولم ينزَوِ كل من الشيخ والمضيف جانباً للحديث عن

العمل، إلا بعد ارتشاف القهوة.

تعلّمتُ منذ فترة طويلة من المشارقة فن الذهاب للنوم في أي وقت وأي مكان مهما كانت الظروف، وعوّدتُ نفسي على أن أستغلّ كل فرصة للنوم تسنح لي.

بعد الغداء صعد صديقاي العربيّان إلى غرفتنا للنوم، فما كان مني إلا أن رافقتهما، ولكن برغم أن إغراء النوم بعد وجبة ثقيلة كهذه كان قوياً جداً، فقد وجب علي أن أقاومه.

كنت متأكداً بأن المفاوضات ستدوم وقتاً طويلاً، لذلك إن حانت لي فرصة خلالها فعليّ أن أحاول الخروج من البيت. وبما أنه ليس هنالك من وميض حرّية يلوح في الأفق، فقد كان عليّ أن أناضل بإصرار أكبر مما فعلت لأتجنّب الوقوع قدر الإمكان في هذه المغامرة الخطيرة. حملتُ تحت جلاّبيتي مبلغاً جيداً من المال الذي ادّخرتُه لنفسي في حقيبة جلدية. إذ أن الأجور التي حصّلتها من خدماتي الطبية قد نمت ووصلت إلى رقم كبير، وقد قرّرتُ ألا أهرب أبداً مرة أخرى دون مال كافٍ يفي باحتياجاتي. لقد بات الأمر الآن، كما في أي وقت آخر، يعتمد كله على الخطوة الأولى الجريئة.

كان رفاقي ينامون بشكل عميق جداً، حتى أيقنتُ بأنهم لن يستيقظوا ويعترضوا طريقي. كان أهل البيت جميعهم مشغولين ولم يكن لدى أحدهم متسع ليستطلع بفضول هنا وهناك. لقد اضطررت - للأسف - إلى أن أغادر قصراً جميلاً وكبيراً كهذا. على كل حال هو لم يكن بيت أحلامي بكل معنى الكلمة. وهمستُ بهدوء «الوداع» يا أصدقائي الأعزاء، ثم مشيت الهوينى بهدوء أسفل الدّرج إلى الطابق الأرضي.

وإذا بصوت سائل خلفي يسألني: «هل أنت خارج يا سلامة». كنت قد وصلت حينها لتوّي أسفل الدرج، وكنت أنظر حولي لأجد أقصر طريق إلى الباب الأمامي، عندما سمعت الصوت وتبيّن لي بأن ابن مُضيفنا كان يجلس واضعاً رجلاً على رجل على وسادة في الرُّدهة ويدخن النرجيلة.

لـم أكن قـد وصلت بعد لمرحلة فقـدت فيها أعصابي، وهكذا أجبـت ببرود «لا أنا أبحث عن دورة المياه». أشار الشاب إلى باب دورة المياه الذي دخلتُه، ولسوء الحظ، فـإن تلـك الأماكن لها باب واحـد فقط، وفي حالتنـا هذه فإن الباب كان بشـكل كامل ضمن مرمى نظر الشاب مدخّن النّرجيلة.

لـن أُسـهب فـي خصائـص دورة المياه الشـرقية، مبينـاً ما تتمتـع به من مزايـا مثيرة للاهتمـام، ولا الفروقـات التقنيـة التي يسـتفيد منها المسـتخدمون لتلـك الأماكن في الشرق والغرب، والتي لن أستطيع وصفها بدقة تامة...

عندما خرجتُ كان ابن الحاج ما يزال جالساً على وسادته، إلا أنه قد غيّر موقعه إلى حدٍ ما حتى يكون قادراً على رؤية الباب الذي سأخرج منه. لاحظت في الرُّدهة خادماً ينفـض الغبار بنشـاط عـن قطع أثاث. ربمـا كان وجـوده اعتيادياً، لكنه ظهـر لي وكأنه استُدعي ليشدّ من أزر ابن الحاج. الآن وعلى الأغلب قد حُوصرت. كان الشيخ خضر يتوقع طوال الوقت بشـكل جليّ أن أقوم بمحاولة للهرب وقد وضع حرسـاً يراقبونني، ذلك أن وجودي ضروري عند عودتنا بحمولتنا الثمينة، أكثر من وقت خروجنا.

فكّـرت أنه علـي المحاولة مرة أخرى. لـم أتوقع أن أنجح ولكنـي أحببتُ أن أعزّز آمالي، وهكذا مشـيتُ بحذر إلى الباب الأمامي. وحالما وصلت أعلى الدّرجات التي توصل في أسفلها إلى الحديقة، أتى الشاب ورائي راكضاً.

«هل ترغب في أن تخرج الآن؟»، سأل.

«نعم أريد أن ألقي نظرة على المدينة».

«سوف آتي معك».

قلت له: «صدّقني لا داعي للقلق»، وحثثتُ خطاي خارجاً بسرعة، لكنه كان يمشـي معي كظلي خطوة بخطوة.

ناداني قائلاً: «أخي العزيز، سوف لن أغفر لنفسـي إذا ضـللتَ طريقك أو إذا أصـابك أي مكـروه. وأنـت تعلم بأن أقدس واجبات المضيف أن يعنـى بضيفه ويوفر له أقصى

درجات الراحة. وأخيراً، دعني أذكّرك بأنك أول ألماني أعرفه على الإطلاق. لذلك فمن دواعي سروري أن أصون رفقتك».

لقد أقنع نفسه بهذه الأكاذيب ولكن بشكل لبق، علمتُ معه أني لن أستطيع التخلص منه إلا كرهاً، لكني لا أستطيع اللجوء للعنف بشكل مباشر. عليّ أن أتحمّل صحبته وأنتظر أول فرصة للإفلات بعيداً عبر حشود الناس في واحد من الأزقة الضيقة. ولكن لسوء الحظ فإن طرقات خان يونس كانت مكشوفة للناظرين، وتكاد تخلو من المارّة، في الوقت الذي تمنّيت فيه أن تكون مزدحمة. وعلي الآن أن أعدل عن خطتي وأعوّض خيبة أملي بمحاولة الاستمتاع بالمناظر المبهجة التي تحيط بالمدينة.

كانت هناك ثكنة شرطة بريطانية لفت نظري إليها صديقي باهتمام بالغ. في حقيقة الأمر لم أحتج لشرحه وبيانه لأعرف ما هو ذلك البناء المستطيل الأصفر ببرج مراقبته ونوافذه، المنزوي شيئاً ما عن الشارع خلف سياج من الأسلاك الشائكة. وفوق المرج العشبي الذي كان من الواضح بأنه ينال قسطاً وافراً من العناية وجزّ العشب كان بعض الجنود الإنكليز يلعبون الكريكِت. فكرت ساعتها أنه من الأفضل لي أن أتجنّب المكان.

وهكذا نزلنا المدينة باتجاه شاطئ البحر، وجلسنا على صخرة، محدّقين بعيداً في البحر.

قال لي الشاب: «هذا هو البحر المتوسط الذي لا أعتقد بأن مياهه تغسل شواطئ بلادك، فلا بُدّ أن ألمانيا بعيدة جداً».

لم يكن صعباً جداً أن أفهم التحذير الذي حملته كلماته. وبالتأكيد فقد نسيتُ على الأغلب بأنه حال بيني وبين الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة. كان خلفنا بيّارة برتقال بثمار خضراء غضّة متدلية من الأغصان، بينما في الأسفل، وصولاً إلى البحر امتدّت مدرجات من أشجار الزيتون يتألق على جذوعها وأوراقها وميضٌ فضي. وفي الخلف كان بإمكاني رؤية أشجار الموز، وأوراقها أشبه ما تكون بمراوح خضراء داكنة،

يحيط بها عدد من أشجار نخيل التمر الباسقة ذوات طَلع نضيد. وأمامنا امتدّت زُرقة المتوسط حتى الأفق ورُشّت عليها بضعة نقاط بيضاء أو ملوّنة كانت عبارة عن أشرعة قوارب الصيد الصغيرة. بينما أظلّتنا سماءٌ زرقاء صافية.

بدأت أتساءل ما معنى محاولتي الهرب، إذا كان هروبي سيعيدني لبلاد الشمال التي لا يزور الصّحو أيامها إلا خجلاً، وكل مَن يرى فراشة مزركشة الألوان فقد حظي بكنز عظيم.

«حان الوقت للعودة»، قال رفيقي، قاطعاً سلسلة أفكاري.

نعم، العودة من حيث أتينا، وليس العودة إلى الوطن.

عندما عُدنا وجدنا مضيفنا والشيخ لا زالا جالسين في الرُّدهة يدخنان النّرجيلة. بدا وكأن نقاشاتهما قد حازت الرّضا، وخاصة بالنسبة إلى الحاج، لكن الشيخ ابتسم أيضاً بقناعة عندما رَبَت المضيف على كتفه.

تم ضغط حمولتنا لتشغل حيّزاً صغيراً جداً في السيارة. ثم حُزمت في حقائب كرتونية لا تلفت الانتباه، وكل منها كان يحتوي اثنتي عشرة زجاجة من مشروب «سوندرز» "Saunders" وقد تم ترتيبها بعناية، تحت مقاعد الجيب. أما قطع الحشيش الصغيرة المسطحة، فكل واحدة منها تم لفّها بالكتّان، حيث كانت تساوي مبلغاً كبيراً من المال. لقد احتاج الأمر منا مجموعة كبيرة مصحوبة بالرجال والجمال والمركبات والقوارب، وربما حتى الطائرات لنقل تلك الرزم الكتانية التي لا تملأ العين، من المُنتجين في لبنان إلى المستهلكين في مصر. لقد كان كل شخص يُعدّ بمثابة حلقة وصل في هذه السلسلة الطويلة، ويقامر بحريّته إذا لم نقل بحياته، لكن بريق المغريات كان لا يقاوم، والأرباح الضخمة التي يتمّ توزيعها بين كل مَن شارك بالعمل، يبدو أنها تستحق المخاطرة.

في هذا المشروع كنتُ أمثل حلقة وصل هامة، لكني لم أحظَ بشيء من الأرباح. وكل ما أستفيد منه هو بقائي لاجئاً في هذه القبيلة.

لم يكن هناك صعوبة تُذكر في عبور الحدود بين فلسطين ومصر في رحلة العودة. على الجانب الفلسطيني كانت الجمارك والتدابير الوقائية للشرطة غير كافية، ولا يقع في يدها إلا كل أخرق أو عديم الحظ. ومنذ نشوب النزاع الداخلي بين العرب واليهود، الذين كانوا يسعون لخلق دولة جديدة في وطنهم التاريخي[1] [المزعوم] ومكاناً للجوء إخوانهم المضطهدين، فإن كافة وحدات جيش الاحتلال البريطاني والشرطة قد انسحبت من الحدود إلى الداخل.

ولكن إذا كان ذلك قد سهّل من مهمّة مهربي البضائع على الجانب الفلسطيني، فإن الضوابط المصرية بالإضافة إلى سياسية الحكومة قد شُدّدت بالقدر نفسه، لتصعيب المهمّة قدر الإمكان على العناصر الخطيرة والمزعجة المتجهة إلى مصر.

تحرّكت الجيب بصعوبة في طريقها عبر الرّمال بمصابيح أمامية معتمة. ورحتُ أحدّق بعينين واجمتين على المبرّد المتدلي على الأرض أمامنا حتى أتجنّب الارتطام بصخرة أو كسر محور العجلة في حفرة. إذ أننا لم نعد نستطيع تحمّل المزيد من المخاطر. وصحيح أن الشيخ خضر قد رشا ضباط الشرطة، لكنه لم يكن واثقاً من النتائج الايجابية لعمل كهذا، إذ يمكن لأولئك السادة أن يأخذوا النقود ثم لا يلتزمون بإيفاء وعودهم. وحتى لو أوعزوا لبعض الدّوريات بتجنّب منطقة معيّنة في ليلة معينة، فمن الممكن أن يعبر قائد دورية لم تعجبه تلك التعليمات طريقنا بشكل غير متوقع. إذ أن طُرق الدّوريات تمرّ عبر بعضها، وإذا حدث أن عملت دوريتان في المنطقة نفسها دون أن تعلم إحداهما بالترتيبات التي تقوم بها الأخرى، فيكون قيامنا برشوة واحدة منهما لا جدوى من ورائه.

«توقف!»، قال الشيخ بهدوء.

---

(1) هذا ما يكتبه المؤلف، ولكننا نرفضه رفضاً قاطعاً، ففلسطين ليست ولم تكن يوماً وطناً قومياً لليهود، بل هي بلاد الشعوب الكنعانيّة واليبوسيّة والفلستيّة، وأما اليهود الغربيون (الإشكنازيم) الذين بدأوا بغزو فلسطين منذ القرن التاسع عشر فأصولهم تعود إلى مملكة الخزر بأواسط آسيا، وتشتتوا منها في القرون الوسطى في كافة أنحاء أوروبا، وخاصة الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الرّوسيّة. فكيف تكون فلسطين وطناً قومياً لهؤلاء؟!

«ما الأمر؟».

توقفنا وسحب الشيخ من الأمتعة بندقية ألمانية آلية[1]، موديل 34، وثبّتها بمهارة في الإطـار الحديدي للنافذة الأماميـة التي حُفر فيها ثُقب. قام خضـر بإدخالها في مكانها بإحكام. وتلك الفتحات يتم استخدامها عادة لتثبيت ماسحات نوافذ السـيارات.

لكل بلد عاداته وتقاليده.

«هل علينا ذلك؟» سألتُ باستياء.

«ربما يكون ضرورياً، لا أعرف».

«من الذي سيطلق النار؟».

«أنت، بالتأكيد». وهو عمل قذر من دواعي سروري أن أتجنّبه.

«ولو لم أكن هنا؟ لو كان اسماعين هو من يقود؟».

«نحـن نحمل هذا السّـلاح للمـرة الأولى اليـوم، فقط لأنك هنا، لأنـي أتوقع بأنك تعرف كيف تستخدمه».

وهذا ما كان. بشـكل عـام كان البدو على علم جيّد بالأسـلحة الأوتوماتيكية، لكن أحـداً من رفاقي لم يمسـك في حياتـه بندقية ألمانية على الإطـلاق. كانت تلك إحدى المهمات التي أوكلوها إليّ من الآن فصاعداً.

سحب الشيخ صندوقاً من الذخيرة الحربيّة ووضعها على ركبتيه.

وقال لي: «توجّه قُدُماً».

(1) هكذا يرد التعبير في اللغة الألمانية: Maschinen Gewehr (بندقيّة آليّة) إنما المقصود بحسب الترجمة العربية المألوفة: رشاش، وهذا المذكور هنا هو الرّشاش الألماني الشهير MG-34 عيار 57 X 7.92 وكان هذا السّلاح من أفضل نماذج عصره وسرعته تبلغ 1700 طلقة/ دقيقة. ثم حلّ محلّه في الحرب العالميّة الثانية طراز MG-42 بالعيار ذاته، إنما تم خفض سرعته إلى 1200 طلقة/ دقيقة.

وهكذا توجهتُ قُدُماً، محدّقاً بالرمل والحجارة ومحافظاً قدر استطاعتي على الخط الذي طلبوا مني اتباعه.

وفجأة وضع الرجل في الخلف يده بظهري دافعاً إياي بقوة ليرتطم أنفي بعجلة القيادة. وإذا بالجميع يهمسون بانفعال قائلين: «توقف». فما كان مني إلا أن دُست على المكابح بكلّ قوتي موقفاً السيارة في مكانها. ليطفئ الشيخ المحرّك بسرعة.

وقفنا ساكنين.

ماذا كان ذلك؟ لا - نعم، لقد كان. أستطيع سماع دوران المحرك، بشكل واضح تماماً.

لم يمهلوني وقتاً لأستمع إلى الصوت الذي يقطع سكون الليل. على أيّ حال، لقد وصل قلبي إلى حنجرتي حتى ما عدتُ أسمع صوت المحرك الذي كان يدور قريباً منا في مكان ما. لقد كان حديثنا عبارة عن أخذ وردّ. وإذا بشخص ما يدفعني من جانبي فقُمت جالساً على مقعدي لأهيّء البندقية للاستخدام. واتكأتُ مائلاً للأمام ومحدّقاً في الظلام الذي يأتي منه صوت دوران منتظم لمحرك غير مرئي يقترب أكثر فأكثر.

ثقبَ الظلامَ فجأة ضوءٌ أبيضُ متألق وركّز على كثيب رمل. ثم انساب مغطياً نصف دائرة وذهب فجأة كما أتى. ثم ظهر ضوء مجدداً من مصباح كشاف آخر، مرَّ هذه المرة قريباً منا تماماً.

«يا إلهي! انطلق للأمام، سلامة» قال صوتٌ مذعور من مؤخرة السيارة.

«أمسكوا عن الكلام، أيها الكلاب!» سبَّ الشيخ.

«إذا شغلنا المحرك فمن المؤكد أنهم سيسمعوننا. وعلى أي حال فالمتحرّك أسهل اكتشافاً من الثابت».

بدأ صوت المحرّك بالاقتراب رويداً رويداً. ثم رأيت شبحاً ضخماً معتماً ظهر فوق قمة كثيب رملي. وتبينت في ضوء القمر الباهت سيارة شرطة مصفحة سلحفائية

الظهـر. وإذا اسـتمر السـائق فقط بنفـس الاتجاه..! نعـم، جيد! إنه يقـود للأمام ببطء، موازيـاً لطريقنا. بدأت أشـعر بالهدوء، لكن ماذا يحـدث الآن؟ توقف محركه ووقفت السـيارة الثقيلة على بعد مئة ياردة.

«يـا محمّد، يـا نبـي!» "Ya Mohammed! Ya Naby!" همس الرجـال المملوؤون ذعراً في المقعد الخلفي، «لقد رأونا أو سمعونا وهم الآن قادمون ليقبضوا علينا».

بالطبع سيفعلون، كنتُ خائفاً بقدر خوف البدو في الخلف.

وأوعز الشـيخ إلينا بالصمت، قائلاً: «انحنوا للأسفل بحيث لا تكشـفوا أنفسـكم».

ثـم حدث أن بدأ نور الكشـاف بمسـح المنطقة بنوره الباهر حتـى أصبحنا في مركز تغطيته وبقي مُثبتاً علينـا. فما كان مني إلا أن أغلقتُ عيني.

«أطلـق النّـار، أيهـا الجبـان!» صرخ الشـيخ، حيث لم يعـد باسـتطاعته كبح جماح همسـاته، وبدا الجميع تائهاً. صرخ وضربني في خاصرتي بقبضته.

فأجبتـه: «لا أسـتطيع أن أرى، وليـس هنالـك مـن فائدة فـي الإطلاق على سـيارة مصفحة».

لم أتمنَّ بحال من الأحوال أن أكون الأول في إطلاق النار. إذ أن طلقاتنا لن تُحدث فيهم أثراً، ثم سـيبدأون بحصدنا برشاشاتهم[1] من عيـار 7.5 مم مستأصلين شأفتنا.

صاح الشيخ مجدّداً: «عليك اللعنة يا جبان!» ودفعني بعيداً عن الرّشاش. وفي آخر لحظـة نجحتُ في سـحب المخزن[2]. حاول الشـيخ انتزاعه مني، وأمسـكني من عنق جلابيتـي، فمـا كان مني إلا أن رميتُ به على أحد جانبيه. لم يبـقَ الآن أمام الرجال في السـيارة المصفحة إلا عمل ما لم نعمله نحن، وهو أن يفتحوا النار علينا، برغم أن ذلك

---

(1) يعني برشاشات برن Bren من عيار 7.5 مم.

(2) يعمل الرشاش الألماني MG-34 بشريط ذخيرة (50-250 طلقة) ذي مشابك معدنية تتساقط عند إطلاق الطّلقات، أو بمخزن دائري ذي 50 طلقة يُثبّت بأعلى المغلاق، لكن بشكل أفقي وليس شاقولي كما هو مخزن البِرن الإنكليزي أو الهوتشكيس الفرنسـي.

لم يكن ضرورياً على الإطلاق. فمجرد وزن سيارتهم سيكون كافياً لسحقنا إذا كانت محمّلة - والآن حان الوقت!

لكن ما الذي كان يحدث الآن؟ انطفأ نور الكشاف، وأعيننا التي بهرتها أضواء المصابيح الكشافة باتت الآن لا تبصر شيئاً. حدّقنا بموضع السيارة دون أن نرى شيئاً. وفجأة بدأ محرّكها بالدوران وسمعنا بوضوح صوت اهتزاز هيكلها على وقع دوران المحرك. وسمعنا صوت مسننات الحركة عندما بدأت تعمل، وفي أقل من لحظة بدأت تلك القلعة المتحركة بالمسير، ليس في اتجاهنا، لكنه باتجاه خط سيرها السابق، نحو الأمام، سابحةً فوق أمواج الرّمال ومبتعدة عنا بالتدريج، والمصباح الكشاف يبحث عن ضحايا أخرى.

«لماذا لم يطلقوا علينا النار؟» سألتُ عندما أصبح باستطاعتنا أن نتكلم بصوت مرتفع وكنا جاهزين لنتابع طريقنا.

«كيف لي أن أشرح لك؟»، قال الشيخ، الذي كان مزاجه قد تحسّن بعض الشيء. لقد كان ذكياً بما يكفي ليدرك أنني فعلت الشيء الصحيح.

لم أعِ أبداً ما الذي حصل مع السيارة المصفحة. ربما أن رجال الشرطة على متن سيارتهم قد حسبونا جزءاً من قوتهم العسكرية، حيث أن دوريات الجيب كانت تعمل جنباً إلى جنب مع السيارات المصفحة. أو ربما أن الضابط الذي استلم رشوةً أوعز إليهم بأن يكفّوا أعينهم عنا ويكتفوا بإخافتنا فقط. لكن يبدو من الصعب الاعتقاد بأنه سيفضح نفسه بشكل كامل للعناصر التابعين له.

فكّرت أيضاً بمنحىً مغاير تماماً لهروبنا، وهو أن رجال الشرطة في السيارة المصفحة ربما قد قرّروا بأن يأخذوا قسطاً من الراحة. فلقد أمضوا ساعات وهم يذرعون الصّحراء جيئة وذهاباً، وكل ذلك مقابل مرتّب زهيد ومعاملة قاسية من قبل ضباطهم، ففكروا أن يكفوا عن العمل لبرهة. إذا كان ظني صحيحاً، فإن كل الرجال في السيارة كانوا نائمين، بما فيهم السائق، الذي قبل أن يأخذ قيلولته، يشعل نور الكشاف ويحركه في

الأرجاء ليلفت نظر ضباط المراقبة، إذا ظهر أحدهم، أثناء دوريتهم.

«تابع المسير يا سلامة»، قال الشيخ سليم خضر بصوت متعب، مضيفاً، وهو يحرّك حبّات سبحة من كهرمان بأصابعه:

«الحمد لله ربّ العالمين».

* * *

9 - آمر الصّرف ذو الماندولين

وصلت حمولتنا من المهرّبات إلى وجهتها بأمان، لتحقق أحلاماً وتنشر البؤس والعذاب، بل البؤس والعذاب فقط. لم يكن هناك كلام كثير عن مغامرتنا أو عن الجزء الذي لعبته فيها. حيث بدت تلك الأشياء من المسلّمات. تُركتُ الآن لأقسم وقتي بين ممارستي للطبي، ومحادثات بين الحين والآخر مع معارفي من القرية، والدراسة الجادّة للغة العربية.

«ما الذي تعمله؟»، سأل مسلّم يوماً، عندما رآني جالساً في ظل الكوخ أكتب.

«أتعلّم كيف أكتب العربية»، قلت، «ولغتكم صعبة جداً».

«وماذا يجديك تعلُّم الكتابة؟»، سألتُ نفسي السؤال ذاته فأجابتني: «وكم من السنوات يعيش المرء حتى يهدرها بما لا طائل من ورائه؟».

لقد كان من الصعوبة بمكان تعلّم القراءة والكتابة، وأصبح أكثر صعوبة عندما تابعتُ بعد توقف. إن العربية، ككل اللغات السّامية، تكتب من اليمين إلى اليسار، وكأن المرء يقرأ كتاباً عكسياً إلى الوراء[1]. وحالما انخرطتُ في تعلم كتابة هذه الأحرف الموصلة، والتي لا تشترك مع أحرفنا بشيء، وجدتُ نفسي في مأزق لا مخرج منه. تحتوي العربية على أحرف أكثر من أحرف الهجاء عندنا، علاوةً على ذلك، فكثير من الأحرف تكتب

(1) بطبيعة الحال ينبغي التأكيد على أنّ هذه اللغات المسمّاة سامية (والتعبير على أيّ حال مغلوط) هي أمّ الكتابة المقطعيّة، منذ أن وضعت في جبيل حوالي 1200 ق.م أبجديّة الحروف الكنعانيّة المقطعيّة الأولى، ومنها اقتبست الحروف اليونانيّة والرّومانيّة وجميع حروف أوروبا بالتالي. حتى أنّ اسم أوروبا ذاته كنعاني فينيقي.

بثلاث أو أربع طرق مختلفة بحسب موقعها في الكلمة. ثم علي أن أعتاد على الفرق الشاسع في الأرقام العربية، التي استعرناها منذ أمد بعيد من العرب، وبين أرقامنا التي لا تشبهها بشيء. وما زاد من صعوبة دراستي غياب الأحرف الصوتية. هذه مزيّة كل اللغات السامية والتي تُستخدم فيها الحركات فوق وأسفل الحروف. كل طالب لاهوتي يتعلم العبريّة يستفيد من هذه المزيّة، لكن غالبية الأشخاص الذين يكتبون العربية لا يرون مشكلة في استخدام تلك الحركات، والتي تعني أنه ما لم يتمتّع المرء بالكثير من الخبرة في القراءة، لا يمكن له من النظرة الأولى أن يكون متأكداً من معنى الكلمة أو الطريقة الصحيحة للفظها[1].

وأصعب ما في العربية ربما هو أنه عندما يتعلم المرء الكتابة، فعليه أن يتعلّم معها لغة أخرى وهي العاميّة. إذ أن اللهجات العاميات المحكية كثيرة وتختلف من واحدة لأخرى، كالاختلاف بين الألمانية، والسويدية، والهولندية، ولا تستعمل أبداً في الكتابة. يلتزم العربي المسلم تماماً بلغة القرآن مع قليل من التعديل. وبالنتيجة فالاختلاف بين اللغة المحكية والمكتوبة كبير جداً – ومتكلّف – كما نحن الألمان إذا تحدّثنا كل يوم بالألمانية الفصحى، لكننا نستعمل مستوى متوسطاً للكتابة بالألمانية المتوسطة للهجة نيبلونغِنليد[2].

في البداية وجدت هذا مدعاةً للسُخط، حتى أني صرتُ أحياناً أرمي بكتب التدريب إلى الزاوية.

---

(1) صدق بريتسكه، فهذه ما تزال مشكلة فادحة في اللغات السامية الحيّة: العربيّة والعبريّة والسّريانيّة، والميتة: الكنعانيّة (الفينيقيّة والأوغاريتيّة والكنعانيّة الجنوبيّة الفلسطينيّة) والآراميّة والبابليّة. أعني مشكلة إهمال أكثر الحركات الصوتيّة. وبالنسبة للمؤلف فيجد الصعوبة أكبر ممّا يجدها الفرنسي أو الإنكليزي، بسبب أنّ لغته الألمانيّة التي اعتاد عليها تُكتب فيها جميع الحروف والتراكيب كما تُلفظ سماعياً تماماً.

(2) نيبلونغِنليد *Niebelungenlied* التي تعني في الألمانيّة: أنشودة النّيبلونغين، هي قصيدة ملحميّة كُتبت باللغة الألمانية الفصحى الوسطى. وهي تروي قصّة البطل زيغفريد Siegfried قاتل التّنين في بلاط البورغونديين، وكيفية مقتله وانتقام زوجته كريمهيلد Kriemhild. وتعود أصول هذه القصيدة إلى سيرة *Niebelungensaga* التي ترجع إلى القرن الخامس الميلادي.

«هذا صحيح» قال مسلّم «ارمها بعيداً. فما الفائدة منها؟».

فأجبته: «أنت لا تفهم، يا عزيزي»، ومسلّم يهز كتفيه استهجاناً ويبقى صامتاً.

وذات يوم قاطع مسلّم دراستي ليقول، «هناك ألماني يريد أن يراك».

«أين؟»، قلت له، وانتصبت واقفاً.

«إنهم يسقونه الماء، وسيكون هنا حالاً».

عندما رأيتُه بدا بأنه رجل وقع بين أيدي أفراد قبيلة «عتيبة»[1] Ateibeh قبل بضع ساعات بجانب قناة المياه العذبة. لقد كان يشبهني إلى حد كبير عندما وجدني راعي الماعز الصغير الكدر وناولني زجاجة مائه. كانت شفاهه متشققة وعيونه غائرة وخدّاه أجوفين. ظلّت يداه تلتمسان طريقهما بشَرَهٍ إلى جرّة الماء، فبالرغم من أنهم أعطوه سابقاً شربة طويلة، فإنّ جسده الجاف ظمآن للمزيد. أعطيته حقنة كافئين لأعيده إلى الحياة ولأمكّنه من استعادة وعيه.

وقال لي: «عليك أن تأتي معي».

«آتي إلى أين؟».

«لا أدري. القناة. لا، أنا فعلاً لا أدري».

«كم واحداً منكم هناك؟».

«خمسة – خمسة بما فيهم أنا. الأربعة الآخرون سقطوا البارحة من الإعياء. تركتهم ممدّدين في الصّحراء وأتيتُ وحدي. مشيتُ على طول الطريق حتى لم أعد أقوى على المسير. ثم وجدني عربي وأحضرني إلى هنا. يجب أن نذهب ونبحث عن الآخرين».

(1) المعروف لدى عموم الناس أن قبيلة عتيبة الشهيرة هي من قبائل جزيرة العرب، في نجد والحجاز خصوصاً، ولكن الواقع أن ثمّة جماعات من العُتبان في مصر بصحراء سيناء يُقال لهم: النّفيعات، وشيخهم يُدعى ابن سالم. كما أنّ بمصر أساعدة ومحاسنة يعودون إلى الرّوقة من عتيبة. وعدا ذلك فالعُتبان منتشرون أيضاً في أنحاء الخليج والعراق والأردن وفلسطين وسوريا.

أخبرني الرجل الذي وجد الألماني وأحضره بفظاظة أين التقطه.

سألتُ الألماني إذا كان قد ركب متن جمل قطّ، فقال إنه لم يفعل. لكنه لم يكن في حالة تسمح له بالاعتراض عندما أجلسناه على السّرج ووضعنا الحبل في يديه. حمّلنا قِرب الماء والأدوية على جملي وسرنا قاصدين المكان الذي وجد فيه البدوي رفيقي الألماني. وبناءً على ما قاله الثاني سيكون صعباً أن نجد الآخرين لأنه، بعد تركهم، تجوّل في الجوار ضارباً ضرب عشواء، لا يدري أين يسير من العطش، وقد ضلّ طريقه عدّة مرات.

قال لنا: «تركتهم ممدّدين تحت بعض الشجيرات. كان علي أن أُحاول أن أجد قناة المياه العذبة وأُحضر لهم الماء. أظن أنهم يجب أن يكونوا في مكان ما في هذا الاتجاه إذا ما زالوا أحياء».

هل لا زال بإمكانك الاستمرار؟

«نعم، أنا جيد. لكن علينا أن نجد أصدقائي سريعاً أو سوف نجدهم ميتين. أي حمقى كنا! أيّ حمقى خائفين!».

«ماذا تعني؟ هل اتخذت الطريق الخطأ؟».

«أنت قلتها. لقد ذهبنا إلى القاهرة».

«وصلتم القاهرة؟ تهانيّ القلبيّة. إذا وصلت أنا إلى القاهرة، فلا أحد سيراني هنا أبداً مرة أخرى».

«كان ذلك المحتال فاروق. أنت تعرف كيف هي الأمور، لم يتغيّروا كثيراً، مع أن أسرى الحرب السابقين يفترض أن يكونوا الآن في كتائب العمل. كثيرٌ منهم وصل القاهرة، ثم بدأ المصريون بإخبار مكتب مكافحة التجسّس البريطاني *contre espionage* عنهم وبدأت المشاكل في كل مكان مرة أخرى. كنا قد قرأنا في صحيفة «بروغريه إيجيبسيَن» *Progrès Egyptien* (التقدّم المصري) بأن ملك مصر قد حرّر

كل الألمان الهاربين من البريطانيين. وهكذا وقعنا نحن المغفلون[1] في الشـرك، وكنا من السّذاجة إلى حدّ أننا توجّهنا إلى مخفر شرطة في القاهرة وأبلغنا عن أنفسنا. وأنت تعـرف مـا تعنيـه كلمة ملك. علمنـا في النهاية أنه قد شـغَلَ أسيرَ حرب ألماني سـابق كمهندس صيانة لمحطات الضخّ في الممتلكات الملكية. حسـناً، أخرسـتنا الشـرطة. ولـم يبـدُ الأمر في البداية خطيراً جداً، لكنا فيما بعد نُقلنا إلى سـجن آخر لنجد أنفسـنا قيد الاستجواب من قبل ضابط إنكليزي وعلمنا أننا ستتعرّض لعقوبة. في رحلة العودة قفز خمسـتنا خارج القطار، دون أن نعلم أين كنا، ومشـينا حتى شارفنا على الهلاك من التعب والجوع، وتبيّن أننا سنموت من العطش».

وقبل أقلّ من أربعة أميال وجدنا الرّجال الأربعة في أجَمَة. كان الرجل الذي وجده العربي قد استغرق اليوم بأكمله ليقطع المسـافة، وكان الأقوى فيهم. وأحدهم لم يستطع أن يشرب، لقد كان في غيبوبة تامة عندما وصلتُ ومات حالاً فيما بعد. وحالما أعدتُ الباقيـن إلـى وعيهم، وكنـت راضياً بأنهم سـيكونون بخير للسـاعات القليلـة القادمة، رجعـتُ أدراجـي لإحضار الجمال والمسـاعدين لكـي يحملوا الرّجـال المرضى إلى مأمنهم.

لكـن هـل يُقبل وجـود أربعة مرضـى ألمان في القريـة؟ عندما اقترحـتُ ذلك، كان الجوابِ لا مطلقاً، وكان باستطاعتي أن أفهم ذلك بسـرعة. إذ أن ذلك يُعدّ بمثابة انتهاك جسـيم يعرّض صاحبه لأشد العقوبات حين يؤوي أسـرى حرب، خاصة عندما تكون القبيلة مشـتبهاً بها سـابقاً بارتكاب أعمال محظورة، لذلك سـتكون الخطورة مضاعفةً عندمـا يقبلـون أيّة مخاطرات باسـتضافتهم لأولئك الرجال. إذا قبلناهم بيننا، ستنتشـر القصة في الصّحراء بأكملها انتشار النار في الهشيم في يوم أو يومين.

---

(1) المألوف في المعتاد نصب الاسـم في هذا التعبير، إن كان المقصـود التـباهي، كقولك: «نجوّلنا، نحن المسـلمين، في أقطار الأرض» وتأويل ذلك: «أخصُّ المسـلمين». لكن في هذا النص أثبت الاسم بعد (نحن) بحسب موقعه من الجملة، لأنّ المؤلف في مغامراته المنهكة كان أبعد ما يكون عن التـباهي.

لـم يكن لدي أدنى صعوبـة في الحصـول على مظلة وبطانيـات وفرش وطعام وماء ومسـتلزمات أخـرى. حمّلت كل هذه الأشـياء على جمل وأعددت فـي المكان الذي يسـتلقي فيـه اللاجئون مشـفى صغيراً، يمكن لهـم أن يقضوا فيه فتـرة النقاهة منتظرين فرصـة ليعـودوا إلـى القاهـرة. قمنـا بدفن الرجـل الميت علـى مقربة تحـت كومة من الحجـارة الثقيلـة، بحيث لا تكشـف الريـاح جثته، ممّـا يبقيه بمنأى عن بنـات آوى أو الضـباع أو كلاب البرية.

مـن وقت لآخر كنتُ قادراً على المسـاعدة بهـذه الطريقة، منذ موت شـنايدر. كان العرب في السـابق يرسـلون دائماً الألمان الذين يمسـكون بهم، أو من يأتي إلى القبيلة طلباً للمسـاعدة، إلى شـنايدر الذي يقوم بالتأكيد بعمل شـيء ما لهم. ورغم أنه يستفيد دائماً من بدلاتهم وبطاقات هوياتهم، التي يأخذها مقابل تزويدهم بالملابس المحلية، فـإنّ ذلك لا يقلل من شـأن الجهـود التي يبذلهـا بالنيابة عنهـم. وكان اللاجئون الذين هـم في حاجة إلى مسـاعدة يحضرون إليّ، وكنت قادراً على مسـاعدة الكثير منهم في طريقهم. ولا أذيع سراً إذا قلت بأنني كنت أعيش مع قبيلة «عتيبة» والأخبار قد تسرّبت في كل المخيّمات. وقد قيل الكثير عن ولاء أسرى الحرب الألمان حتى أن البريطانيين لم يعلموا البتة أين يمكن أن أوجد.

* * *

فـي الصّحـراء قمنا بتدبير الأمور بشـكل مختلـف إلى حدّ ما عمّـا كان آمر الصّرف الأعلى بيرِنز Behrens يتصور.

ففـي يوم خريفي، وسـط نبـاح الكلاب الهائجة، تقـدّم رجل أشـقر، أحمر الخدّين بسـترة خاكي عسـكرية، وسـروال طيار قصير وجزمة طويلة عبر القرية باتجاه مسكني، يتبعه ولد فلاح غارق في عَرَقه، وقد انقطعت أنفاسه تحت ثقل وزن صندوقين خشبيين ثقيلين وماندولين.

«أهـذا هو؟»، قال الرجل بالألمانيّة، مشـيراً إليّ. فأومأ الولد برأسـه مجيباً بنعم، ثم

وقف مشدود القامة وقدّم نفسه.

«اسمي بيرِنز Behrens. الأوبَرتسالْمايستَر[1] بيرِنز».

فطلبت منه الدّخول والجلوس ريثما أتبعه للداخل، فقد أردت أن أعلم من الفلاّح أين وجده.

قال الصّبي: «هرّبه الحاج عيد خارج المخيّم وأحضره إلى قريتنا في سيارة جيپ».

كان هذا كل ما يعلمه.

ودخلت خبائي، ليسألني الأوبَرتسالْمايستَر بنبرة المستهجن: «هل تعيش هنا دائماً؟».

«وأين تستحم؟».

فأجبتُه: «للقيام بذلك، عليك النزول إلى القناة. لكني لا أنصح بذلك، إذ أن هذه المياه الرّاكدة عادةً ما تعجّ بجراثيم البلهارسيا والإسهال».

لا أذكر أنني شاهدت أبداً شخصاً هزلياً كهذا، لكنه كان رفيق سلاح هارب وعليّ أن أُظهر له حُسن الضيافة، وأغضي عن تصرّفاته الغريبة. وكنت في ذلك اليوم قد ذبحتُ ديكين كانا لي وطبختهما مع الأرز لعشائنا.

«أليس لديك أدوات مائدة؟» سألني بكبرياء وتعالٍ عندما جلس بجانبي على حصير القش وراقبني أُمزّق بيديّ ديكاً إلى قطع، وآكل اللحم عن العظم دون مساعدة سكينة وشوكة. وقال لي: «أنا متأكد أنك لن تعجز عن شراء أدوات للمائدة». بأي حال، أخرج من أحد صناديقه سكيناً وشوكة قابلتين للطي من اللواتي تستخدم في الرحلات وبدأ باستخدامهما بأناقة في تقطيع فرّوجه. حتى تلك النقطة كنت ما زلت هادئاً، ولكن عندما طلب كأس ماء وناولته بدلاً عنه قلّةً خزفيّة، سأل بسذاجة إذا كان الماء مغلياً أو مطهّراً.

---

(1) العبارة بالألمانية *Oberzahlmeister* وتعني: آمر الصّرف الأعلى، أو رئيس أوامر الصّرف.

فما كان مني إلا أن علّقت ببرود، على كلامه الذي أثارني: «يبدو أنك لم تعاني شظف العيش من قبل ولم تعتد الخشونة مسبقاً!».

فأجابني بتواضع: «بل كنت أعاني من وقت لآخر»، وبعد البحث في صندوقه، أخرج زجاجة مليئة بالأقراص، وألقى اثنين منها في إبريق الماء قائلاً بابتسامة متعالية: «لأغراض التطهير».

وأثناء ارتشافنا لفنجاني قهوة سألته ماذا يخطط من أجل المستقبل.

لم يعرف تماماً ما كان عليه عمله في الخطوة التالية، وأخذ يتحدّث بغموض عن مالك أرض ثري في الصّنفين El Sanafin كان قد أجرى معه بعض الأعمال، عندما كان في المخيّم. ثم أخذ ماندولينه، وجلس أمام الخيمة وبدأ بعزف أغاني ڤاندَرفوغل[1] *Wandervogel* الألمانية، ليبدأ الأطفال الذين تجمعوا حوله بالصّياح والابتهاج. إلا أن الشيخ وبعض الكبار في السنّ أبدوا شيئاً من التحفظ تجاه القادم الجديد.

وعندما عاود عزفه في اليوم التالي، وُجّهت إليّ شكاوى حادّة اللهجة. حيث حُذِّرتُ بأنّ عليّ إبعاد ضيفي في أول فرصة. كان يكفي وجود ألماني لجذب الانتباه، فيكف إذا كان ذلك الألماني يرتدي ملابس لافتة ويمضي نهاره عازفاً على ماندولينه؟ عندها بالتأكيد لن يمرّ وقت طويل قبل أن تصبح القضية بين يدي جواسيس الشرطة.

لم أكن لأتمنّى أن أصرفه بفظاظة، لكن التلميحات المؤدّبة لم تُجدِ نفعاً معه، وهكذا خطر ببالي أن أفضل طريقة ليرغب عن البقاء هنا هي أن أدعوه إلى حساء خضار مليء بقطع لحم الجاموس القاسية. ثمّ في اليوم الذي يليه، كان طعامه فقط بضعة شرائح مسطحة من الخبز العربي مع قطع بصل نيّء. وتوقعت من بيرنز أن يبدي ازدراءه على

---

(1) العبارة بالألمانية *Wandervogel* تعني: الطائر المهاجر، وهي ضرب من الأناشيد الشعبيّة الشبابيّة شاعت منذ عام 1896 إبّان تأسيس حركة الشباب الألمان Jugendbewegung، وهذه الأناشيد تحضّ على الانتفاض على قيود المجتمع والعودة إلى الطبيعة ومفاهيم الحريّة. ثمّ تحوّلت في عام 1901 إلى حركة شبابيّة منظمة على يد هِرمان هوفمان فولكرزامب Herman Hoffmann Fölkersamb ثم قام الحزب النازي في عام 1933 بمنع نشاطاتها.

قائمتي، لكنه في حقيقة الأمر لم يفعل شيئاً من ذلك. فقط أخذ زجاجة پيرمَنغنات من صندوقه ورشّها فوق البصل، ثم أكلها برضا واضح.

نصحته بلا جدوى أن يبيع أمتعته حيث علمتُ تمام العلم بأن ممتلكات الآخرين تثير حفيظة أهل البرّ، وأن الكثيرين تمّ التخلص منهم بجريرة أمتعة أقل جاذبية من تلك التي يملكها بيرِنز. لم يبدِ الرجل أية قابلية للنقاش لكن زملائي رجال القبيلة، الذين كان استياؤهم يزداد يوماً بعد يوم، هدّدوا بأن يُقصوا صديقي بالقوة، إذا لم أستطع أن أجعله ينتقل إلى مكان آخر.

فلم يكن مني إلا أن قلت لهم: «حسناً، أعيروني جملاً وأعد بأن آخذه غداً إلى بلبيس». إلا أنهم سألوني لماذا عليّ أن أُرافقه، يكفي أن أقوده للخارج ولا أُضيّع وقتي في مرافقته. ومن جانبهم فإنهم سوف يرسلون عدّة رجال على الجمال خلفه حتى يتأكدوا أنه ذهب حقاً. لم أحبّذ فكرة مغادرة بيرِنز وحده لمواجهة مستقبل مجهول، وهكذا قرّرتُ أن أصاحبه في المرحلة القادمة من رحلته.

فقلت لواحد من رجال القبيلة: «أعرني جملك يا صلاح الدين».

لكن صلاح الدين لم يوافق، مع أني عرضت عليه ثمن الجمل كضمان.

قال لي: «إنك لا تعرف المنطقة حول بلبيس، فالأعراب هناك هم أكبر لصوص وقطاعي طرق في هذا الجزء من الصّحراء، وإني أؤكد لك بأنك إذا ذهبت هناك فسوف ينالون منك، وستعود دون جملك ودون ملابسك. هذا إذا عُدت من الأساس».

وهكذا لم أحصل على جمل، وإنما على حمار عجوز ضعيف، وهو حيوان بائس متدلي البطن إلى حوافره، بارز الضلوع من الهزال ينهدل من رأسه زوج من الأذان الذابلة، ولم يُبق الدهر في فمه إلا بضعة أسنان مصفرّة متداعية، وقد تركت السّياط على ظهره قروحاً وجروحاً. مع ذلك فإنه لا يزال يُعدّ بمثابة حيوان للتحميل. أما أنا فلم تثنني قصص صلاح الدّين عن اللصوص. بشعري الأسود، وبشرتي السّمراء، ولحية ذقني التي تنسدل منها الخصل، بإمكاني المرور في أي مكان للبدو، وبخاصة

أنني كنت بارعاً بلغتهم ومطلعاً بشكل كامل على حيل شعب الصّحراء وخدعهم.

رفعنا صندوقي الأوبَرتسالْمايستَر إلى ظهر حمار التحميل المتقرّح ومضينا في طريقنا، حيث جلستُ أنا في المقدمة، قائداً الحمار الأعرج، وبيرِنز مع مندولينه يجلس في المؤخرة.

في البداية سار الأوبَرتسالْمايستَر بثبات وإقدام، لكنه سرعان ما بدأ يتباطأ، حتى بدأ أخيراً، في منتصف النهار يتداعى من العطش، والصداع، وألم القدمين. وقبل أربعة أميال من بلبيس، تبدّت لنا مضارب البدو التي اندفع إليها بيرِنز على قدم وساق.

ناديتُ عليه: «ارجع»، عندما مرّ بي مسرعاً باتجاه المضارب. وأردفتُ قائلاً: «بعد ساعة سوف نكون في بلبيس».

وساعتها فكرت أنه حتى إذا كانت الصّورة التي رسمها صلاح الدين مبالغاً فيها، فمن غير الحكمة أن أحتكّ مع البدو. لكن بيرِنز، الذي بلغ به التعب والعطش مبلغه، رفض أن يستمع. كان يظن بأن التعريج على مضارب البدو يشبه النزول بحانة على طريق السفر للاستراحة والتقاط الأنفاس.

فما كان منه إلا أن قال لي: «لن نبقى طويلاً يا صديقي، وإذا لم تكن لديك الجرأة لتأتي، سأذهب بمفردي».

لم أستطع أن أتركه يواجه المصاعب وحده، وهكذا تبعتُه كارهاً. لقد كان كل شيء حول المخيّم يدلّ على الفقر المدقع للسكان. وكل ما يملكونه من حيوانات لا يعدو كونه جملي تحميل أو ثلاثة، تجلس في ظل الأكواخ والخيام المتناثرة، وبضعة عنزات. بالنسبة لناس فقراء كهؤلاء حتى الحمار الهرم كان إغراءً. لقد ترك مظهر النسوة في نفسي أسوأ الأثر، كن يلبسن تنانير قصيرة وغير محجّبات، لا بد أنهن فلاحات. وماذا كانت تفعل نساء الفلاحين بين البدو؟ فالبدوي الذي يتزوج بفلاحة لا بد أنه سيفقد الكثير من مكانته بين الناس وسيفقد احترامه لذاته. لا بدّ أن ذلك كان أكثر المخيّمات التي أمرّ بها بؤساً.

«عُد، أيها الأحمق»، ناديتُه. «عُد». لكن كلاب القبيلة كانت قد لمحتنا. في قرية فقيرة

ما تزال الكلاب مثيرة للاشمئزاز أكثر من القرى الغنية، حيث تحصل على وجبات أقل للأكل من الفضلات. لم نكن من القوة بحيث نستطيع إبعادهم، لكن رجلاً جاء يسعى من كوخه لمساعدتنا. رمى عدداً من الحجارة باتجاه الكلاب النابحة مشتتاً شملها. وقال لنا: «مرحباً.. أدخلا يا صديقَي، استريحا قليلاً واشربا معي الشاي».

رفض بيرنز دعوتي الأخيرة للتوقف عن السير، وكأن قوىً خفيّةً تسير به نحو الكوخ، فيما أمسك العربي بلجام الحمار وربطه إلى سارية جانب المدخل. عندما دخلتُ وجدتُ بيرنز يشرب بلهفة الماء من آنية خزفية.

كان البدوي رجلاً ذا ساقين طويلتين، أشعث أسود الشعر حنطيّ البشرة. لم يكن يرتدي حتى جلاّبيته، بل مجرّد زوج من سروال داخلي أبيض فضفاض سائب، تعلوه صدريّة كما يدعونها، ويلف حول رأسه قماشة بيضاء كسرواله. انحنى بشدة وقدّم نفسه كشيخ لقبيلته المجيدة.

سألته: «هل يمكن أن تقدّم لنا القهوة بدلاً عن الشاي؟» لقد كان لديّ سبب وجيه لكي أطلب هذا الطلب.

لكنه أجاب معتذراً: «لسوء الحظ لا يوجد قهوة في المنزل».

لكني رجوته بإلحاح قائلا: «حبّذا لو تأتي ببعض منها من جيرانك».

لكن الرجل سرعان ما وجد بعض القهوة متظاهراً أنه لم يكن يتوقع وجودها. وعندما أصبحت القهوة المختمرة جاهزة للشرب صبّ بعضاً منها من مصبّ ذي فم بارز معقوف في فنجانين صغيرين دون عُرى قدّمهما لبيرنز ولي مع انحناءة تنمّ عن الاحترام، واضعاً يده اليسرى على قلبه كما يقتضي العرف.

قلتُ بسرعة عندما ناولني الفنجان: «ضيف من الله» *Deyf min Allah*.

تلك هي العبارة التي من أجلها أصررتُ على القهوة ورفضت الشاي تماماً.

إن شرب القهوة منذ زمن سحيق هو طقس ديني نوعاً، ما وأي شخص يستخدم هذه

الصيغة القصيرة، عندما تُقدّم له القهوة، يضع نفسه لمدة ثلاثة أيام تحت حماية مضيفه، الذي يلتزم طوال تلك الفترة بألا يصيبه أذى. ولدى العرب أعراف كثيرة حول شؤم انتهاك تلك الحرمة.

وهمست لبيرِنز: «أعد العبارة ورائي»، واكزاً إياه بمرفقي.

«أيّة عبارة؟».

«قل حالاً، ضيف من الله *Deyf min Allah*».

«ولماذا عليّ ذلك؟»

قلت بغضب: «لا تسأل أسئلة سخيفة.. قُلها».

فقال: «أريد أن أعرف أولاً لماذا».

«إنها صيغة مؤدّبة، لا أستطيع أن أشرحها بالتفصيل حالياً».

تأفف باشمئزاز قائلاً: «ما الهدف من استخدام صيغ مؤدّبة مع هؤلاء الزّنوج الكدرين».

بدا البدوي وكأنه أخذ فكرة عامة عما كان يحدث. ابتسم باحتقار إلى حدّ ما وسبّبتْ لي تعابير وجهه الخوفَ من توقع مفاجئة غير سارة. إلا أن بيرِنز كان مطمئناً، متجاهلاً المخاطر المحدقة بغباء.

ومع ذلك، لم يحدث شيء. وتصرّف البدوي كمُضيف شرقي يعلم كيف يتصرّف تجاه ضيوفه. ولم تتخلّل زيارتنا القصيرة أيّة حادثة، وعندما خرجنا وفكّ عقال الحمار قبل استئذاننا، ابتسم بلطف وانحنى لنا، متمنياً رحلة موفقة.

فقال لي بيرِنز برضا تام: «أرأيت؟» لم يكن هؤلاء الناس مؤذين على الإطلاق، بل على العكس من ذلك كانوا مضيافين وكرماء، وذلك عندما غادرنا آخر خيم البدو خلفنا، الأمر الذي أراحني أيّما راحة.

مع أن التسبب في مرور الأمور بسلام لم يكن يرجع إليه.

الآن، وبمرور الوقت، أصبحنا أبعد وأبعد عن هذه القرية وشؤمها حيث اقتربنا من الدِّلتا الخصبة والمأهولة بالسكان والتي تعد بالمزيد من الأمن. بعيداً فوق حافة وادٍ رأينا شجر النخيل يلوح في الأفق. فقلت له: «ها هي ذي أبو زَعبَل. سنجد هناك بالتأكيد عربة، أو ربما حتى شاحنة لتأخذك إلى بلبيس».

وسرنا بمحاذاة مجرى نهر جاف، وحتى نتجنب مقاومة كثبان الرّمل صعوداً وهبوطاً التي ملأت الطريق من كل جانب، الأمر الذي بالكاد راق لحمارنا، نزلنا إلى قاع الوادي الذي كان مليئاً بالأحجار والصخور الكبيرة.

«قِف» *Qif* صرخ صوت عالٍ، دعانا للوقوف. لم نرَ أو نسمع شيئاً، لكن بدوياً انسلّ بهدوء خلفنا وعندما استدرنا نحوه وجدناه يُصوب علينا جفتاً[1]. رفع بيرِنز يديه فوراً، قائلاً: «ماذا سنفعل الآن؟ ماذا يريد صديقنا منا؟».

لسوء الحظ لم يكن هناك أدنى شك عما كان يبغيه. لقد كان معي كل الحق في كُره بنادق الجفت، ولا أرغب على الإطلاق في البقاء ضمن مجال إطلاق حُبيبات الجفت المتناثرة الصغيرة. حيث لا تبدو فكرة التعرّض لإطلاق النار من جفت ومن مكان قريب مقبولةً على الإطلاق، إذ أنه من المستحيل أن تُنقذ ضحيّة مرتشقة بنثار الرّصاص على مدى قريب.

سرتُ بتمهّل ودون وعي نحو العربي وبدأت أتكلم إليه على أمل أن تسنح لي فرصة لأطبِق عليه أو أسحب مسدساً نحوه أو أصكّ قفل الأمان.

لكن قبل أن أقترب بشكل كاف لعمل أي شيء، ظهر حشدٌ من البدو المسلّحين

---

(1) الجفت عبارة تركيّة Çift دخلت العاميّة العربيّة في بلاد الشام عموماً، وتعني بندقيّة الصيد ذات الماسورتين بجفت أمر وتستخدم طلقات نثار الرّصاص (الخُردُق Schrotkugeln). ولعدم وجود مفردة مقنعة في العربيّة الفصحى آثرت استعمال هذا التعبير الشائع جداً. وعلى أيّ حال فالعبارة في الألمانية هي: فليتِه Flinte، وفي الإنكليزيّة: Shotgun، وفي مصر تسمّى: بندقيّة رشّ، وهذا تعبير غير دقيق على الإطلاق، لأنه يلتبس مع الأسلحة الرّشاشة. وفي الخليج يسمّى هذا السّلاح: شوزن، نقلاً عن الألمانيّة: Stutzen شتوتزن.

علـى كل الجهات، وكأنهم قد خرجوا مـن باطن الأرض، وتوقفوا عند ضفاف الوادي ملوحين بهراواتهم، وسكاكينهم، وأغصان النخيل.

قـال بيرِنـز وهو يرتعد خوفـاً: إن الموقف ليس بحاجة إلى تفسـير، وعاود السـؤال مجدّداً: «ماذا يريدون بنا؟».

كان حالـه يُرثى له عندما وقف هناك ويداه فوق رأسـه، يتابع التلميحات التي يومئ بها العرب لبعضهم. ولا أعتقد بأني كنت أكثر بطولة منه عندما احتشـدت جموع البدو الغاضبة حولنا وكبّلوا أيدينا خلف ظهورنا.

بـدأ بيرِنـز بالصّراخ وكأنه قد مُـزّق إرباً، وبالتأكيـد فإن المعاملة التـي نالها لـم تكن أفضل بكثير مني. ألقاه العرب أرضاً وبدأوا بضربه بعصيّهم وأغصان النخيل بينما داس البعـض الآخر علـى بطنه بأقدامهم العارية حتى توقف عـن الصّراخ لأنه فقد وعيه. ثم جـرّدوه حتى من لباسـه الداخلي، الذي تركوه، ليس بدافع إنسـاني، بل لأن البدوي لا يستفيد من ثوب كهذا.

ولـم يبقَ معي سوى اثنين من العرب اللذين أمسكاني بإحكام، بينما تولى الآخرون أمـر بيرِنز، الذي بينما كان مرمياً علـى الأرض فاقداً للوعي بدأ هؤلاء الرّجال يتقاتلون على أمتعته، حتى أني رأيتُ أحدهم ملقىً على الرمل.

ثم حان دوري. لقد كان هذا على الأقل ما توقعتُه، لكن حالما اتجه الحشـد نحوي ارتفع صراخ رجل من بعيد: «اتركوه وشأنه! اتركوه وشأنه! بالله! إنه ضيفي».

جاء مضيفي السـابق متدحرجاً لأسـفل المنحدر تبدو عليه أمارات الغضب. لقد وصل في وقته المناسـب. وسـرعان ما انسحب العرب الذين كانوا فوقي يجرّون أذيال الخيبة بعد أن حرّروا يدي، لكن بدوياً واحداً لم يغنم شـيئاً من حقائب بيرِنز، أراد أن يُعوّض عن حظه مني فحاول أن يسـلب جيوبي. ولحسـن الحظ أني لم أحضر معي شـيئاً باسـتثناء مسدسي، الذي يجب علي الحفاظ عليه. نجحتُ بالإمساك بأصابع السـارق قبل أن تمسـك بمسدسي، وما كان مني إلا أن عصرتُ يده عصرة اصطكت لها مفاصلها وركع بها مُتأوّهاً على ركبتيه.

ولم يعد يتجرّأ أن يهاجمني بعدما دخلتُ في حماية الشيخ.

في غضون ذلك كان بيرِنز قد صحا من إغماءته وبدأ أخيراً بالتصرف بوعي. ذلك أنه تمدّد بهدوء برغم التجربة القاسية التي كان يتعرّض لها وهي اغتنام القوم لصندوقيه.

أرادوا أيضاً أن يأخذوا الحمار، لكن الشيخ اعترض، صاح عالياً: «لا تأخذوا الحمار، إنه يخصّ ضيفي العزيز».

اختفت شرذمة الغزاة حاملين الصناديق بالقوة، حيث لا يرغب أي منهم أن يتأخر على اقتسام الغنيمة. الشيء الوحيد الذي تركوه هو الماندولين.

ودّعني الشيخ بعبارات لبقة متمنياً لي رحلة آمنة، وواضعاً يده على قلبه بإخلاص لم أشكّ فيه.

نهض حضرة الأوبَرتـالْمايستَر بيرِنز المرهَق مُتأوهاً على قدميه، قائلاً: «ماذا عليّ أن أفعل الآن؟» وبدأ بالنواح، متوقعاً مني شيئاً من التعاطف. ولكن، والحق يقال، لم أتعاطف معه البتة، بل على العكس لم يلقَ مني إلا الجفاء.

وقلت له: «أقترح عليك أن تنصرف من هنا بأسرع ما يمكن».

وأخذتُ لجام الحمار واستدرتُ لأذهب.

لكن عاد للتململ قائلاً: «أين أستطيع الذهاب، بزيي هذا؟».

«سوف تمرّ كما أنت تماماً، إذ أن أحد لن يشك بأنك تحمل ثروات في سروالك. تسلّق للأعلى إلى قمة التلة ومن هناك سوف ترى واحات نخيل أبو زَعبَل. وكل ما عليك هو أن تذهب هناك. أنت الذي وضعتنا في هذا المأزق اللعين وأنت الذي بإمكانك إخراج نفسك منه».

يا لها من هيئة يزحف بها إلى تلة شاهقة بسرواله الداخلي فقط، مع ماندولين معلّق حول رقبته! رحلة سعيدة!

* * *

10 - كوليرا في الصّحراء

«يا حكيم! يا حكيم!» "*Ya hakim! Ya hakim!*".

هكذا كانت الصّحراء تنادي على الطبيب.

الصّحراء، مثل فراعنة العصور الغابرة، لن تدعني أذهب، مهما عزمت أن أتركها، ومهما اتخذت من أسباب للعودة إلى حياة المدنية.

لقد سئمت منذ زمن بعيد مغامرة الحياة في البرّية وعملت جهدي لأعيش حياة الاستقرار التي أعيشها. وصحيح أني لم أكن سجيناً، ولم أكن مجبراً على البقاء، لكنني كنت على الدّوام خاضعاً لضغط متواصل ومستمر، وصحيح أنه ليس قوياً ليقودني نحو الانفجار لكنه كان كافياً لترك آثاره على رجل ينتمي لعالم مختلفٍ تماماً.

بقيتُ طبيب الصّحراء. وكانت الصّحراء التي خدمتُها هادئة ومملّة كشروط الحياة التي تفرضها، دون أي مسحة من السّحر الشرقي. لكنها مع ذلك كان فيها ما يشدّني ويثنيني عن المضيّ قدماً كلما عقدتُ العزم على الرحيل.

في الوقت الراهن أنا أكاد لا أُعدّ غريباً، وعندما يرفع المؤذن النداء للصّلاة بصوت بعيد عالٍ، كنت أشعر أنه يشملني بدعوته أيضاً.

عاملني رجال قبيلة «عتيبة» كواحد منهم، حيث كانوا بعد انتهاء صلوات الجمعة يأتون إليّ في خيمتي لنناقش آخر أخبار الصّحراء. وقد اعتدتُ أن أُحضر وعاءً من عصير التّمر الهندي يشربون منه تباعاً، ويشاركونني أتراحهم وهمومهم.

كنا نتحدّث عن الأخطار أيضاً إذ أننا لم نكن بمنأىً عنها، حتى ولو كان الخطر

الوحيد الذي على الناس أن يعلموه تماماً هو مقدار الأرباح التي تجنيها عتيبة من سلعها المهربة.

مُؤخراً، على سبيل المثال، قال قنديل Gandil، خادم سليم خضر، إنه رأى رجلاً يُدعى «أبو خالد»، يعرفه الجميع ولكن لا أحد يثق به، رآه خارجاً من مركز الشرطة في الإسماعيلية. لم يكن هذا الرجل مهمّاً بحدّ ذاته. كان من النوع المتسكّع الذي يتجوّل حول مستوطنات البدو ينادي على السجائر والتبغ والحلويات وبعض الحاجيّات الصغيرة. وبما أن قنديلاً التقاه مصادفةً عندما كان خارجاً من مركز الشرطة فإن ذلك يُعدّ دليلاً كافياً للعرب على قيامه بالتجسّس لحساب الشرطة...

لم تكن الشرطة بحاجة إلى أن تُخبَر من قبل هذا العجوز الرّقيع بأنّ الحشيش قد هُرّب. فلا أحد يعلم أكثر منهم ما كان يحدث، ولو شعر الضبّاط أن عليهم أن يفعلوا شيئاً حيال ذلك، وأن يقوموا بزيارة مفاجئة إلى القرية لكان بإمكانهم فعل ذلك منذ زمن بعيد. وفي الحقيقة فإن بعضاً من الغارات الشكلية فقط كانت تجري من وقت لآخر، ولم يكن من المحبّذ تقديم رشاوى لهم لأن الشرطة كانت ميّالة إلى حجز أي شيء يستحوذ على إعجابها.

وإن غارة خطيرة يتم شنها بغتةً ضد قريتنا المهرِّبة سوف تضطرنا إلى تقديم أجرة شهر لضبّاط الشرطة حتى يتركونا وشأننا، حيث يساوي هذا المبلغ عدّة أضعاف رواتبهم. وهذا هو السبب الوحيد وراء رغبة كل من الطرفين بالعيش وترك الآخر يعيش. ومع ذلك وحتى يبقى دخلهم الشهري في مستوى مناسب، اعتاد الضباط أن ينتزعوا من مخلوقات مثل أبي خالد معلومات مفصّلة عن الوضع المالي لكل واحد من رجال القبيلة، وبحسب إمكاناته فإن الجزية المدفوعة لتركه وشأنه ستزداد غالباً. وإذا كانت الجزية أقلّ من المعتاد، يفقد المستفيدون صبرهم ويبدأون بالتفاهم مع المتخلّفين عن السّداد بالكرباج *kurbash*. وبهذا، يمكن للمرء أن يقول بأنّ المعلومات المزوّدة من قبل أبي خالد تزيد من أعباء دافعي الضرائب غير الشرعية.

نعم، كانت لدينا مخاوفنا.

لكن همومي كانت بسيطة وتتمثل في المساومة اليومية على سعر اللحم، والخضار، والموز، والسمك والأغذية الأخرى الضرورية. علاوةً على ذلك فان عمليّة تحصيل الأدوية والعقاقير الطبيّة لم تكن بتلك السهولة، كما كان في وطني الأم، وكثيراً ما كان يسبّب لي مشاكل جدّية. كما كان عليّ غالباً أن أقطع مسافات بعيدة في زياراتي للمرضى والمصابين.

وفوق ذلك كله كانت هنالك مشكلة الأمراض المعدية، أو الوبائية، وقانا الله شرها.

«يا حكيم! يا حكيم!» "*Ya hakim! Ya hakim!*".

جاء ولد سوداني راكضاً في وقت اشتداد الظهيرة يصيح عليّ.

سألته: «ما الخبر؟».

فأجابني: «تعال بسرعة إلى بيت الحاج عيد: فهنالك مبيّض مريض جداً».

مبيّض أوانٍ متجول – وغالباً فإنه غجَري. عليّ إذن أن أحتسب الأجرة لوجه الله، إذ أنّ الحاج التقي لن يدفع بالتأكيد قرشاً لمتشرّد من ذلك النوع.

قلت له: «طيّب، خُذ حقيبتي».

أخذ الولد حقيبتي وتناولت سوط الرّكوب الذي لا يمكن للمرء دونه الخروج من البيت بسبب الكلاب. ولأحمي نفسي من الحرارة الملتهبة، وضعت على رأسي قلنسوة كتّانية. ثم مشيت بخطىً منتظمة، بحسب العرف المحلي، إلى منزل الحاج عيد.

رأيت الرجل المريض مستلقياً تحت مظلمة من القش في زاوية من الفناء. كان جسده يتلوّى من الألم ويداه الاثنتان تضغطان فوق بطنه. وقف حوله حشدٌ من المتفرّجين الفضوليين. كانت يداه الباردتان ترتعشان بسرعة.. عينان غائرتان، وأنف ذابل، وبشرة زرقاء، مصحوبةً بإقياء مستمر وبراز بلون ماء الأرز، وهي بلا شك دلائل

قاطعة على مرضه.

إنها الكوليرا!

كوليرا- وفي هذه الظروف غير الصحّية!

على جسده وفي برازه استقرّ سرب من هذا الذُّباب الأخضر المَقيت الذي يراه المرء كثيراً على أعين الناس العميان أو الأطفال في مصر.

حالما أنهيتُ فحصي نهضتُ بسرعة على قدميّ مبعداً يديّ اللتين لمستا الرجل المريض.

قلتُ لهم: «أحضروا لي وعاءاً كبيراً من الماء - على الفور».

صبّ الخادم الماء فوق يديّ من آنية نحاسية وغسلتهما بشكل كامل بصابون الفينول. ثم غسلتهما ثانيةً بالكحول النقي. وبعد أن نظفتهما بشكل آمن للاحتكاك بالناس، دخلتُ بسرعة إلى المنزل لأخبر الحاج بأن هناك كوليرا في القرية وأناقش معه الإجراءات لتطهير فناء داره.

وجدتُ الحاج عيد مستلقياً على أريكة في غرفة استقباله يدخّن نرجيلة ويغالب النوم.

قلت له: «مرحباً يا حاج، نهارك سعيد» "*Naharak sa'eed*".

فأجابني قائلاً: «نهارك سعيد ومبارك».

«اجلس، يا صديقي».

كنت منفعلاً وأنا أتخذ مقعداً لي وأبدأ بنقل الأخبار الطارئة المفزعة له.

«اسمع يا عيد...».

إلا أنه ألحّ علي قائلاً: «أخي، اجلس هنا على يميني». فما كان مني إلا أن أستجبت لما تمليه الآداب الاجتماعية.

«كيف صحّتك؟» سأل بهدوء. كان الاضطرار إلى المجاملة العربية أقوى من دواعي الاستجابة للكوليرا، وهكذا قلت:

«الحمد لله! وكيف حالك أنت؟» وكما تتطلب الآداب السائدة نظرت إليه بوجهي عندما كنت أتكلم، وكأني أردت أن أتأكد بأن ليس لديه أعراض المرض.

«الحمد لله!» أجاب بلطف.

«ما أتمنى أن أقوله لك...» وبدأت أغيّر الموضوع، فليس هنالك دقيقة لتضيع. إذ أنها الكوليرا، وكل شيء حول الرجل المريض في فوضى مرعبة وغيوم من الذباب مستوطنة فوق برازه - إنها حالة كارثيّة بكل معنى الكلمة.

قاطعني الحاج مرة أخرى مصفقاً بيديه وآمراً الخادم بأن يحضر لنا القهوة.

قلت له: «لدينا رجل مريض في الفناء»، متطرّقاً إلى صُلب الموضوع مباشرة بغض النظر عما يقتضيه الأدب.

«نعم، أعرف، أعرف»، قال الحاج بتململ ونظر إليّ بشكل ناقد وكأنه يعترض على طريقتي التي تفتقر إلى اللباقة.

«المريض يعاني من الكوليرا ويجب أن يذهب حالاً إلى المستشفى».

هكذا قلت مباشرة فليس الوقت وقت مراعاة الآداب الاجتماعية.

«وحالة المرض تزداد سوءاً، ولا يمكن إنقاذه إلا بالمعالجة في المستشفى».

«هل تعني بأنه يموت؟».

«ربما كان كذلك، وفرصته الوحيدة بالنجاة أن يذهب إلى المستشفى».

«الله المستعان، والأعمار بيد الله وحده»، قاطعني الحاج. وأضاف قائلاً: «إذا كان سيموت ولا بدّ، فاتركه يموت هنا».

لم أستطع تمالك نفسي أكثر من ذلك، لذا فقد وثبتُ بانفعال على قدميّ.

وقلت له: «ألا تفهم؟»، «إنها ليست قضية رجل مريض واحد. إذا لم نتّخذ حالاً كل التدابير الوقائية، ستسري الكوليرا في القرية سريان النار في الهشيم».

«الأعمار بيد الله»، أعاد الرجل، واضعاً جمرةً على نرجيلته.

«يجب أن يذهب الرجل مباشرة إلى المستشفى».

فقال لي: «مع السّلامة!».

وكان النعاس قد أخذ منه كل مأخذ. ثم قال لي بلهجة عادية: «اجلس». كان علي أن أُطيعه، وأن أجلس بجانبه، وأن أستمع بصبر إلى ما سيقوله.

تذكرت منذ زمن مضى فَرَج، وهو أحد جيراني، عندما دخل خيمتي للتحدّث في يوم من الأيام وأراني جريدةً طُبع على صفحتها الأمامية أخبار بأن الكوليرا قد تفشّت في بور سعيد - وكان ذلك قبل أربعة أو خمسة أسابيع مضت على ما أعتقد. علقَ فرج حينها على الخبر، الذي أُعطي مكاناً بارزاً، بالقول بأن الانكليز قد أحضروا المرض من كالكوتا. كل شيء سيّء يأتي من الانكليز، سلبهم الله أبصارهم وأخذهم بالكوليرا، والطاعون، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات - هؤلاء الكفرة الذين مصّوا دماء المؤمنين الحقيقيين مثل البق! - نعم، كان الإنكليز ينالون ما يستحقونه - وعلى كل حال فبور سعيد بعيدة جداً من هنا.

كان ذلك قبل أربعة أو خمسة أسابيع، والآن؟

«الآن أريدك أن تستمع إلي»، قال لي الحاج. «إذا ذهب الرجل إلى المستشفى، سيأتي إلينا مسؤولو الصحّة العامة في الحال، ويضعون القرية تحت الحَجر الصّحي ويحيطوننا بالعسكر والشرطة. وعندها لن يكون بمقدور أحد الدخول أو الخروج. سينقطع عملنا بشكل كامل، وأنت تعلم كم هو صعب حينها أن نتدبّر أمورنا. ببساطة لا نستطيع أن نخاطر بفقد عملنا».

هذا كلام لا أستطيع الاعتراض عليه حتى لو رغبت بذلك. لو حاولت أن أذهب وأخبر السلطات الصحّية في الإسماعيلية قد لا أصل هناك إلا ميتاً.

أخيراً قلت:

«حسناً، إنها مسؤوليتك».

«الأمور بيد الله وحده»، قال مصحّحاً، «فحياتنا جميعاً في يده. ما فائدة المشفى، عندما يكون لدينا طبيب في القرية؟ أنت مسؤول عن صحّة السكان. بإمكانك الحصول على كل ما تريد، لكن عليك أن تُبقينا بمنأىً عن الكوليرا».

ماذا بوسعي أن أفعل سوى الموافقة؟

لذلك قلت له: «سأنصب خيمة خارج القرية أتخذها كمستشفى للكوليرا. وسوف أُعدّ قائمة بحاجاتي في الحال. لكن متى سأحصل على الأشياء؟»[1].

«بُكرة» "*Bukra*".

إنه روتين التأجيل الشرقي، فعندما يُرغب بتأجيل أيّ عمل معيّن إلى أجل غير مسمّى، يجب أن يكون التأجيل مقترناً بكلمة بُكرة، والتي تعني غداً، والهدف منها المماطلة. لكن في هذه المرّة كان كل شيء طلبته جاهزاً في اليوم التالي. كل شيء، إلا لقاح الكوليرا، الذي لم يكن مُتاحاً، رغم أنه كان من المفترض أن يكون هنا «بكرة». علمنا فيما بعد، بعد أن تفشّى وباء الكوليرا، أنه لا يوجد أكثر من ثمانين أنبوبة من لقاح الكوليرا في المنطقة بأكملها. ثمانون جرعة لعدد سكان يبلغ 22 مليون في ذلك الوقت عندما كانت الكوليرا تهدّد المنطقة! الثمانون أنبوبة استولي عليها من قبل القصر وكان الملك فاروق أوّل مصري يُلقّح ضد الكوليرا.

كانت خشية القرويين من المرض أقل من خشيتهم من الإفصاح عن الحالة الوحيدة التي حدثت حتى الآن، والتي ستعود عليهم بالويلات. أشار كبار السنّ بنَزَق في القرية إلى وجوب تنفيذ الإجراءات الوقائية التي ألححتُ عليها في حينها. ولقد مرّت ثمانية

(1) تذكرنا هذه الحادثة بما رواه الرّحالة وليَمسون عن تفشّي الكوليرا في جنوب العراق، وحمله مسؤوليّة مكافحتها في إحدى القرى رغم أنه لم يكن طبيباً. انظر كتاب «رحلات المغامر العربي» في هذه السلسلة.

أيام قبل أن تحدث حالة أخرى. ثم أُحضرت فتاة شابة تنتمي إلى بيت الحاج عيد إلى مشفاي. وفي أيام قليلة كان لدينا في القرية ثماني حالات. ولحسن الحظ تمكنتُ من علاج تلك الحالات في الفترة الحرجة التي كنا نمرّ بها في فترة قصيرة نسبياً. باستثناء فتاة في العشرين، بقيت لفترة طويلة بين الحياة والموت، وقد كانت آخر مرضاي بالكوليرا.

وما صعّب من علاج تلك الشابة هو أن عائلتها بأكملها - الأب، والأم، وعمّين من أعمامها، وأبناء عموم كُثُر، وجدة - وكذلك زوجة أبيها الثانية، كانت تمضي وقتها كله على الأرض حول سرير الفتاة المريضة. لقد كان مستحيلاً أن تجعلهم يذهبوا. ولم أكن مُدركاً في ذلك الوقت بأن هذا العُرف سائد في كل المناطق العربية وأنه حتى مشافي المدينة كانت غالباً تؤوي عائلة بكاملها عندما تتم استضافة واحد من أفرادها في جناح في المستشفى. وكل احتجاجاتي الحادّة لم تُجدِ نفعاً معهم. فكلما أردت أن أفحص مريضتي كان عليّ أن أشق طريقي بالقوّة وسط أفراد العائلة، الذين كانوا يُعرّضون أنفسهم كل الوقت لخطر العدوى. ولم يكتفوا بإغاظتي فقط بوجودهم حولها، بل اعتادوا كذلك أن يقدّموا لمريضتي حليب النوق، خلافاً لتعليماتي، ويحتالوا للأمر بعدة طرق أخرى ليفاقموا من صعوبات مهمتي.

في خضمّ هذه الفوضى. التي لم تترك لي أي وقت للطعام أو النوم، فوجئت صباح يوم برجل بدين يركب على جحشته، يرافقه رجل ضخم أسود، يجرّ دابة سيده. وكنت لتوي قد أعطيت مريضتي حقنة ماء مالح، عندما قدّم مسلّم لي الضيف ثقيل الظل.

استقبلتُه بالترحاب كالعادة. وأعدّ مسلّم القهوة، التي شربها ضيفي بقرف قبل أن يضعني بصورة الطريقة الصحيحة المناسبة لمعالجة الكوليرا.

لقد تعرّفتُ على هذا الصحراوي الأسمر، شديد التأنق، الشيخ حسن، ولا رغبة لدي للمزيد من معرفته. كان يرتدي طربوشاً أحمر داكناً قصيراً تلتفّ حوله عمامةٌ أنيقة، وقفطاناً نظيفاً ذا لون داكن، وقد شُذّبت لحيته بعناية، وكان يعطي عن نفسه انطباعاً حسناً، يؤكده مظهر خادمه الحسن وجحشته القويّة الفارهة. في حقيقة الأمر كان من

أصل متواضع - مجرد بدوي كأيّ واحدٍ آخر. لكن ما يميّزه هو معرفته بالقرآن وقدرته على الكتابة بالعربية، وهما مزيّتان نادرتا الوجود نسبياً في مجتمعنا، وقد كان يقوم بوظائف الإمامة، بالإضافة للتعليم في مدرسة القرية الصغيرة، متبوّئاً مكانة المرجعية في العديد من النواحي. كان أكسل من أن يعمل وتعوزه البراعة للعيارة، ويفتقر للجرأة ليعمل في التهريب، لذلك كان يكسب عيشه بصناعة الحُجُب، التي بالرغم من سهولة عملها كانت غالية الثمن، وهي عبارة عن قطع مثلثة من الورق مع نصّ من القرآن الكريم مكتوب عليها، يتم طيّها ووضعها في لفافة جلدية تُعلّق حول الرّقبة.

نظر إلى سمّاعتي والأدوات الأخرى لمهنتي بتعالٍ، مظهراً عدم رضاه عن أساليبي الطبية.

«ما الأفكار الحمقاء التي لديك حول هذا المرض الذي تدعونه الكوليرا! نحن عرفنا هذا المرض منذ مئات السنين. إنه ليس سوى هواء أصفر *hawa asfar*». سألته: «ما هو الهواء الأصفر؟» فأجابني: «إنه مجرد أبخرة عفنة تنبعث من القنوات والحقول المروية، مسببة تفشي هذا المرض، عندما تكون الأبراج غير مواتية، وخاصة عندما يكون القمر آخذاً بالتضاؤل».

عليّ أن أكون حذراً مع هذا الثرثار. فقد كان بوسعه اتهامي بالكفر، إن أزعجتُه.

وتابع قائلاً: «إن كافة عقاقيرك الطبية لا تجدي نفعاً إزاء الهواء الأصفر. الشيء الوحيد هو أن تُدفع العفونة خارج الحقول بعد صلاة الفجر بواسطة سعف النخيل، والعصي، والقضبان. سوف نرتب لذلك غداً صباحاً، وأريد أن أخبرك بأن الحُجُب تُعدّ حماية أكيدة ضد المرض. سأعمل واحداً لك. وبما أنك صديقي، سيكلفك القليل من المال. بجنيه واحد سوف يكون لديك تعويذة ضدّ كل الأخطار. أعطني فقط اسم والدك ووالدتك وشهر ميلادك».

ثم أخرج من قفطانه عقب قلم رصاص وقطعة مجعّدة من الورق ونظر بترقب.

في حالة كهذه كان الصّمت أفضل من أي إجابة، مهما كانت مدروسة. وأدّى هذا

الصّمت إلى خفض سعر التعويذة.

وقال لي: «أنت كأخ أصغر لي، رغم أنك غير مؤمن».

تنهّد الرجل التمين بعاطفة أخوية.

«سأدعك تأخذها بنصف جنيه، رغم أنها ليست تأميناً دائماً ضد المرض والموت».

وازداد ليناً مع استمراري في الصّمت. تنهد وما يزال يُخفض السعر. وقال لي: «جيد جداً، سأقدمها لك بسعر خاص وهو خمسة وعشرون قرشاً».

ثم أطبق عينيه الماكرتين قليلاً ولوى رأسه بتجاهل جانباً منتظراً موافقتي.

لكنني ما زلت صامتاً.

«بتعويذة كهذه المتدليّة من رقبتك، حتى الكافر يمكن أن يدخل الجنة».

وبدأ بوصف متعها، التي سأحصل عليها بدفع 25 قرشاً فقط. لكن ذلك لم يكن ليغريني. وأخيراً نفد صبري وتركت صديقي دون استئذان في خيمة الانتظار وبدأتُ جولتي اليومية في البيوت والخيام في القرية. وجلست بالقرب من سرير فتاتي المريضة حيث احتشدت عائلتها حولها، يهوّون لها ويُشربونها حليب النُّوق.

في هذه الأثناء، جاءت السلطات الصحية للأمم المتحدة UNO بإمدادات كبيرة من اللقاحات. وبدأت الصحف مدعومةً بالمنشورات هي وأجهزة المذياع المتجولة، فضلاً عن الأطباء بإرشاد الناس بواجباتهم. وتبع ذلك فرق وطواقم صحّية تابعة لوزارة الصحة وفرق أجنبية طافت البلاد لتوعية العباد. وتمّ عزل المناطق الموبوءة وبدأ التحقيق في مدى انتشار المرض. وفي مدّة وجيزة تمّت الإحاطة بالوباء الخطير.

* * *

11 - اختطاف طبيب

كان لـديّ حـدسٌ بوقوع مشـكلة ما عندما نظـرتُ في الصّحـراء، عندما كنت أغلي أدواتـي، لأرى اثنيـن من راكبي الجمال آتيـن من مكان بعيد إلى سـاحة القرية، وهما يسـوقان معهما جملاً ثالثاً مُسرجاً بالقتب.

كان المنظر لافتاً. وبالحكم عليهما من خلال مظهرهما وتصرفاتهما، يبدو أن هذين الرجليـن كانـا غريبيـن، ومع ذلك فقد لوّحـا بيديهما إلى أول قروي مـرّا به في الطريق مسلّمين. وبرأيي أنه حتى لو كان هذان الرّجلان قد أتيا من بعيد فإن معرفتهما الشخصية بأبنـاء قريتنـا تُعزى إلى أنهما أبناء المهنة ذاتها التـي امتدّ أثرها ليس على صحرائنا فقط بل على مساحة أوسع بكثير.

رأيـتُ الرجل الـذي كانا يتحدثان إليه يشـير إلى خيمتـي. فأومأ أحـد الغريبيـن إليه شاكراً وأتى فوراً إليّ.

سـلّم عليّ الأسـمر القادم من سيناء قائلاً: «السّـلام عليكم». ولكن لـم يبدُ أنه قد أتى بمهمة سـلمية بالرغـم من تحيّته التي ألقاها علي. حمل بندقيتـه بين ذراعيه ضامّاً إياها إلى صدره، ووقف أمامي بجلاّبية ممزقة قد ذهبت الشمـس والرّمال والأوساخ بلونها. ومن تحت اللفة التي تغطي رأسه وشيئاً من وجهه انسـدلت ضفيرة شعر طويلة.

سـألني: «هل أنت الطبيب الألماني؟».

فأجبته نعم أنا هو.

في تلك الحالة كان عليّ أن آتي معه في الحال لأعالج رئيـس قبيلته الذي كان مريضـاً.

«ما قصته؟».

«أنت طبيب، وأنت الذي يجب أن يعرف».

لقد ارتأى أن سؤالي في غير محلّه على الإطلاق.

قلت له: «ولكن يجب أن تكون لديّ فكرة عما أصابه». وبدأت محاولاتي لشرح أن المرء يحتاج لأدوات مختلفة لعلاج جروح إطلاق النار أو قدم مكسورة عن تلك التي يحتاجها ليعالج حالة إسهال.

«موجوع». قال البدوي، وهذا كل ما استطعت أن أعرفه منه.

ماذا عليّ أن أحزم في حقيبتي؟ بعدما فكّرتُ ملياً جهّزتُ نفسي لأتعامل مع كل حالات الطوارئ العادية وتبعت العربي إلى الجمل.

عندما رأيت أن جملي ليس له لجام وأنه قد رُبط إلى إحدى الرّاحلتين الأخريين بحبل من القتب، تبيّن لي بأنني سأكون سجينهما دون أيّة فرصة للهرب.

لكنه قال لي: «لا نريد أن تتعرّض لحادث. إذ أن حيوانك هائج إلى حدٍ ما». وابتسم هذا الرجل الابتسامة الوحيدة التي رأيتُها على وجهه.

انطلقنا جنوباً، وعندما رأيت في أي اتجاه كنا ذاهبين، بدأت أفهم لماذا رُبط جملي إلى واحد من جمليهما. من المحتمل أنه كان نوعاً من اللطف في التنكّر، لأنني إذا انفصلت عنهما، فلن أجد ماءً ولا مرعى ولا مساكن للناس في هذه المنطقة - ولا حتى مضارب أيّ من العرب. أمّا رفيقاي الاثنان قليلا الكلام الرّاكبان على كل جانب فقد أحجما عن محادثتي. على أيّة حال كانا يتحدّثان بلهجة لم أفهم منها سوى بضعة كلمات فحسب. وهكذا انطلقنا مارّين بالبحيرات المالحة التي ما زالت النساء البدويات يتزوّدن منها بالملح.

لكنني قد شعرت بالفخر فعلاً، عندما فكّرت بالأمر، أن صيتي قد بات في الصّحراء ذائعاً، حتى أن أقواماً صاروا يأتون من بعيد ليطلبوا خدماتي.

إلى جنوبي البحيرات المالحة سار رفيقاي بعيداً عن طريق الجمال العادي، الذي يمرّ عبر الوادي، وسلكا طريقاً مختصرة عبر الكثبان الرملية.

«يا ساتر!، يا رب!» "*Ya saater! Ya Rabb*" صاحا بقلق عندما بدأ جملاهما بالانزلاق نزولاً عبر المنحدرات المرتفعة.

كان الشخص الأول الذي عبر طريقنا أثناء مرورنا عبر منطقة تغطيها الشجيرات امرأة بدوية، وكأنها شبح يتلوى قد خرج من الأجمة وقد كانت ذاهبة إلى المنزل بالحطب الذي جمعته. لم نرَ شخصاً آخر، وبدأتُ أسأل نفسي إلى أين كنا ذاهبين.

كان واضحاً أن العربيين كانا في عجلة من أمرهما، لكن الجمال التي سارت براكبيها لعدّة أيام قد نال منها التعب والإعياء. مدّ الرجل الأكبر سناً بين البدويين ذراعيه أمامه وبدأ يتحدّث بهدوء - إلى دابته. ثم غيّر درجة صوته ولفظ بنغمات حلقية كلمة «هِرّ» "*Huirr!*" واستمرّ بترددها. أصاخت جمالنا في الحال سمعها وشرعت تهرول سريعاً. إلا أنها عندما لم تعد تسمع الكلمة السحرية من حاديها عادت تجرجر أقدامها المتعبة بتثاقل.

كانت البلدة غريبة تماماً بالنسبة لي. وبدأت صخور الجلاميد السوداء التي تشكّل المادة الخام لتلّ عالٍ بعيد إلى يسارنا تتزايد أكثر فأكثر، حتى انجلت الأرض ذات اللون البني المائل إلى الصُّفرة عن سطح حجريّ قاسٍ. فاضطررنا أخيراً إلى الترجّل عن رواحلنا وقيادتها عبر منحدر عالٍ مغطى بالصخور. إلا أن الجمال التي كانت تقطع طريقها حتى الآن بحذر بالغ، تعالت أصواتها بالرُّغاء عند نزولنا بها أسفل الوادي عبر الصخور والحجارة.

وعندما شارف كل منا، نحن ورواحلنا على السقوط من التعب والإعياء لاحت بشائر وصولنا إلى وجهتنا.

«انظر»، قال البدوي الأصغر سناً، مُشيراً إلى زوج من الطيور الجارحة تحوم في السماء. «لقد ذبحوا خروفاً في المخيّم».

والآن بإمكاننا أن نمتطي جمالنا ثانية الآن وننطلق عبر الأخدود الحجري الذي ينفث ألسنة اللهب من انعكاس أشعة الشمس عن الصخور والحجارة البركانية. وعندما صارت الطيور الجارحة فوق رؤوسنا مباشرة سمعنا صوتاً ينادي: «توقف!»، فقدّم رفيقاي كلمة السّرّ وانطلقنا على الجمال. ثم خرج الحارس العربي من مكمنه ونظر إلينا أثناء اندفاعنا باتجاه أجمة حيث كانت مجموعة من الجمال تنوف على العشرين تلتهم علفاً من أكياسها في ظل بضعة نخلات عجاف. وجدنا هناك عشرة بدو يجلسون في خيمتين من شعر الماعز.

أول شيء لاحظته عندما ترجّلنا ومشينا بثبات إلى الخيمة الأكبر كان كومة من الحِزم وصناديق مُغطاة بقماش خيمة، أتت بها القافلة من فلسطين. إنها حمولة حشيش. كان جلياً أنّ الرجل الذي استُدعيت لمساعدته قد أصابه المرض في الطريق. كان هناك، مُستلقياً فوق سجاد قد مُدَّ على الأرض كيفما اتفق، وهو عربي في الأربعين من عمره، كان على الرغم من قوة بنيته وجسمه القوي المكتنز، كان صورةً للبؤس لكثرة أنينه وتلوّيه من الألم.

«الحمد لله!» تمتم بصوت أجش «لقد نجوت!».

لقد علمت ممَّ يشتكي هذا الرجل الضخم، فبإجراء فحص سريع تبيّن لي بأنه يعاني من الكوليرا.

قلت له: «عليك أن تأتي معي إلى القرية، إلى الخيمة التي أتّخذها مشفى».

«مستحيل»، قال الرجل المريض، و«مستحيل» كرّر البدو بفظاظة كما كانوا دائماً، وقد تجمّعوا في مدخل الخيمة.

وأردف الرجل قائلاً بصوت متقطع: «إذا ذهبنا إلى قرية، سوف تُمسك الشرطة بي بالتأكيد. أنت لا تعرف هؤلاء المبتزّين.. إذا رأوا ما نحمل، سوف يمصّون دمي إلى آخر نقطة. سيكون علي أن أبيع منزلي ومزرعتي وبستان النخيل في خان يونس. سيضطر أولادي للتسول للحصول على الخبز، وستصبح بناتي راقصات في المقاهي».

لقد آلمته هذه الأفكار أكثر من مرضه. وهذا كان السبب وراء تخطيطه لاختطافي. ولكن الآن، بما أنني في ضيافته، فقد خاطبني بلهجة لطيفة نوعاً ما.

«الله يرضى عليك يا سلامة! إن قلبك طيّب مثل العسل، وأبيض مثل اللبن. ولا بد أنك سترعاني وتعيدني إلى صحتي وسوف أعطيك مكافأة سخية. هاك، خذ هذا!».

وأخرج ورقتين نقديتين من فئة 1 جنيه من حزامه ووضعهما في يدي لكي يرقق قلبي، ويكون فعلاً بطيبة العسل وبياض اللبن!

إن فكرة العيش لعدة أيام في الصّحراء مع مريض كوليرا لم تكن لتروق لي على الإطلاق. لكنني كنت سجيناً وليس لدي الفرصة للهرب.

قلت له: «جيد جداً. ولكن علي أن أذهب بسرعة إلى القرية لأُحضر الأدوات والعقاقير التي أحتاج».

«لا يمكنك عمل ذلك. أريدك هنا. لا يمكنك أن تتركني، ولكن سوف نرسل راكباً على جمل سريع ليحضر لك ما تطلب».

وهنا تكمن صعوبة أخرى ليس من السهل التغلب عليها. إذ كيف بإمكاني أن أشرح لبدوي مثلاً، أنّ عليه أن يحضر جهاز التقطير، وإبرة وريدية، وأنابيب محلول ملحي؟ هذا وناهيك عن العقاقير هي الأخرى. الشخص الوحيد في القرية الذي يعلم كل شيء عن محتويات حقيبة أدواتي كان مسلّم، الذي غالباً ما كان يساعدني. ومسلّم لا يستطيع أن يقرأ، كما أن ملكة الإدراك لديه ضعيفة أيضاً، لكن محمّد خضر كان يتقن القراءة، لذلك فقد كتبت له الرسالة التالية:

«إلى صديقي محمد خضر، حماه الله ورعاه! أقبّل يديك احتراماً وتقديراً، وأبلغك بأنني وصلت بأمان إلى مضارب أصدقائنا. وأرجو منك قراءة السطور التالية للشاب مسلّم، ليقوم بإرسال الأدوات التي سأطلبها».

وهكذا أتممتُ رسالتي مختتماً إياها بإطنابات التبجيل والاحترام، ولا بُدّ أن إنشاءها أضاف ساعة إلى معاناة مريضي.

كانت تعليماتي لمسلّم كما يلي:

«أُريد أولاً الوعاء الزجاجي الكبير مع الأنبوب والملزمة المثبتة به، ثانياً، صندوق القصدير مع الإبر التي أحقن أذرع مرضاي بها، ثالثاً، الحاويات الزجاجية الكبيرة المسدودة الموجودة في الصندوق الأبيض».

وبما أنه من غير المجدي أن أشرح لمسلم ما هو العقار الذي أحتاجه، فقد أخبرته، بعد قليل من التفكير، أن يرسل جميع محتويات صندوق القصدير الكبير الذي حوى سابقاً قطع الشوكولاته السوداء السحرية - وهكذا كان رابع ما طلبته منه هو: «صندوق القصدير الأسود الكبير الذي قدّمته لي مرة كهدية، وكل ما بداخله».

عاد الرّسول مُتأخراً في الليل مع كل ما أمرتُ به. وصار بإمكاني الآن أن أبدأ المعالجة. ربطتُ أنبوب السائل الملحي إلى عمود الخيمة وأدخلت الإبرة في عضد الرجل المريض. ثم مددتُ الذراع على شريحة وربطتُ الجزء الأعلى منه ليبدأ السائل بالتقطير. حتى اللحظة لا أستطيع عمل شيء أكثر من ذلك.

وحتى صباح اليوم التالي لم تكن حالة المريض بأحسن مما كانت عليه ساعة وصلت. كان جلده جافاً وأصفر. ولم ينقطع عنه القيء والإسهال. وبعد فحصي إياه غسلت يدي في قدر طبخ قديم.

دعاني أحد البدو الموجودين قائلاً: «هلاّ تفضلت وشربت القهوة معنا؟» آخذاً وعاءً نحاسياً مسوداً عن النار، وصبّ بعض محتواه في فنجان من الواضح أنه قد استُعمل كثيراً ولم يُغسل أبداً.

وبما أني لم أعد أحس بالقرف والاشمئزاز منذ زمن طويل فقد شربتُ القهوة وأعدت الفنجان الفارغ. لكن البدوي أعاد ملأه ومرّره إلى مريضي الذي شربه مصدراً صوتاً عالياً.

وعادت الكرّة مرة ثانية.

ملأ البدوي الفنجان مرة ثانية. فأمسكتُه في يدي، مُتذكراً أن الرجل المريض شرب

منه لتوّه. والآن هل علي أن...؟

ولـم يخطر على بالي فكرة أفضل من الإشـارة إلى السـماء، حيـث الخيوط الأولى للفجر بدأت بالظهور، قائلاً: «انظروا لقد ظهرت النسور ثانية».

تحوّلت كل الرؤوس إلى حيث أشـرت، فكان لدي الوقت لأصبّ القهوة في كمّي الأيسر. كان ساخناً لدرجة أنه أحرق ذراعي، لكني فضّلت احتراق ذراعي على جراثيم الكوليرا في بطني.

قال لي أحدهم وقد لاحظ ما قمتُ به: «لا بدّ أنك تحلم يا سلامة».

«نعم، لا تؤاخذوني إنها غلطة غير مقصودة»، لكنني لم أستطع أن أمنع ضحكهم.

لـن أصـف لكم بالتفصيـل الأوضـاع البائسـة التي كانـت تحيط بالمريـض في هذه الخيمة. فلم يكن في ظروف تسـاعده على استعادة صحّته. فحول الرجل المريض الذي كانت حياته في خطر فاحت رائحة إنتان كريهة حادّة يصعب على أوروبي تحملها.

كان الحرّاس المناوبون حول الرجل المريض المستلقي في البرية بجانب أكوام من بضائعه الثمينة يؤدّون بواجبهم على الوجه الأمثل. وذلك عندما نبّهوا إلى اقتراب عدد مـن الخيالة نحـو الموقع في وقت متأخر بعـد ظهيرة ذلك اليوم. وتـم التأكد من هوية القادمين، ليتبين أنهم عمّ الرجل المريض وامرأتان وخادمان.

بالرغم من اعتراضي شـديد اللهجة، ذهب العم مباشرة إلى الرجل المريض وقبّله، وأثناء توجّهه لله بطلب الشـفاء لقريبه المريض، التفّت العائلة بأكملها في نصف دائرة حول سرير المريض، وبدأت المرأة تعبيراً عن حزنهم وأساهم، بالولولة والنواح بشكل هستيري.

مـن المعروف أن الشـرقي يتمتع بموهبة الاسـتغراق السـريع في موجة مـن الخوف أو الغضب أو الأسى أو أيّة عاطفة أخرى لأقل سبب. وإن بكاء اللطّامات المأجورات عند قبر شـخص لا يعرفنـه، وطوفان الدموع الذي يذرفنه عليه ليـس بمصطنع البتة، بل هو حقيقي. وصحيح أنهن يكسبن رزقهن بالبكاء، لكن الدّموع الحقيقية تستحق مقابلاً سخياً.

وبقدرة قادر تبدّل الأسى والحزن الذي أبداه الأقارب ليحلّ محله التشهي والتلهف لملء البطون عندما بدأ إعداد وجبة العشاء. حيث أحضر الزائرون معهم خروفاً حياً ذبحه الخادم وقسّمه إلى أربعة أقسام، واللحم الآن يطهى في قدر طبخ هائل فوق النار.

جلسنا جميعاً حول طبق نحاسي كبير ممتلئ بالأرز عَلَته قطع اللحم الكبيرة. وبدأ الجميع، بما فيهم مريضي، بانتقاء قطع اللحم لتذوقها، حيث كانت تُؤكل باليد مع حفنة من الأرز. وقد كنتُ ضيفاً متميزاً.

وإذا بالعم يقول لي: «هاك شيئاً سوف تحبّه يا سلامة» مقدّماً لي عين خروف بأصابعه الكدرة[1].

صدّقوني لقد تعرّضت للموت عدة مرات في الحروب، لكنني لا أتذكر لحظة داخلني فيها الرعب أكثر من ابتلاعي لهذه اللقمة المقززة. تمنيت حينها والله لو يتركوني أذهب، لكن العم الذي احتللتُ قطعةً من قلبه، شمّر كُمّيه للأعلى وانحنى فوق الطبق حتى غاصت لحيته فيه معايناً قطع اللحم واحدة تلو الأخرى حتى ينتقي أفضلها للضيف الكريم، ثم يعيدها إلى مكانها. وأخيراً وجد قطعة ارتأى أنها جديرة بالضيافة فناولني إياها قائلاً: «هاك لقمة طيّبة أخرى يا أخي».

كانت عبارة عن قطعة دُهن من إلية الخروف تفوح منها رائحة منفّرة. كما أن منظر يدي جاري الكدرتين ممسكاً بهذه القطعة المدهنة، ومرق اللحم يسيل فوق ذراعه المكسوة بالشعر كان شيئاً فوق احتمالي...

وأخيراً تقيأتُ واستراحت معدتي من ثقل عين الخروف التي سببت لها الاضطراب لعدة دقائق، وخرجت أخيراً.

بعد الغداء بدأ العم وابن الأخ يتحدثان عن العمل. والموضوع بالطبع هو الحشيش.

---

(1) تذكرنا هذه القصة بالرواية الطريفة التي جرت مع الرّحالة وليَمسون وضيفه الكابتن سميث في الرّيّان بقطر. انظر كتاب «رحلات المغامر العربي» في هذه السلسلة، الفصل 30.

وأراد العمّ أن يشتري البضاعة بأكملها وقدّم عرض سعر لها.

ثم حدثت مُعجزة. فالرجل المريض، الذي كان معظم الوقت مستلقياً يئن تحت وطأة المرض، عادت إليه الرّوح فجأة، واستعاد صوته شيئاً من قوّته ونبرته المرتفعة. وسرعان ما استوى جالساً في فراشه، متكئاً على مرفقه ومتكلماً بلغة الإشارة. ورفع العم صوته لكن صوت ابن أخيه الهادر غطّى على صوته.

وأقسم العم قائلاً: «بالله ونبيه أعرض عليك 11,300 جنيه لهذه الكمية من البضاعة، دون أن يزيد المبلغ عن ذلك بقرش. بالله عليك ألم أكن نِعم العمّ لك يا بنيّ؟ ألا أُعاملك دائماً كابن لي؟ ألم آتِ إليك لا ألوي على شيء عندما علمتُ بمرضك؟».

نعم، لقد جاء مسرعاً بالفعل، ولكن لحاجة في نفس يعقوب.

وتابع استعطافاته المؤثرة قائلاً: «إنني أشكو الفاقة وقلّة ذات اليد. وأطفالي لا يجدون ما يسدّ رمقهم أو يستر عوراتهم. لكن منزلي موئل للمؤمنين. وايم الله لا أملك سوى 11,300 من الجنيهات».

كان الرجل المريض مصاباً ببحّة في الصوت. وعندما لم يستطع أن يقاطع سيل الكلمات المتدفق من فم عمّه، كان عليه أن ينتظر فاصلاً حتى يدلي بدلوه قائلاً: «تعرف يا عمي كم أُجلّك وأحبك، فأنت صنو أبي - ولوّح بيده في الهواء ليصرف الذباب الواقف على فمه وعينيه. لكني أقسم لك بالنبي وحياة أطفالي وكل ما هو مُقدس عندي، بأنني لا أستطيع في حال من الأحوال أن أبيع البضاعة بأقل من 16,000 جنيه، وحتى في تلك الحالة فإني أعتبر خاسراً».

ابتسم الرجل العجوز وربّت على ذراع ابن أخيه بعطف. لقد كان يدرك أن مرض قائد القافلة أتاح له فرصة رائعة لجني بضعة آلاف من الجنيهات. لكن حمولة الحشيش المكدّسة أمام الخيام، كانت مسؤولية كبيرة. فقد كانت عُرضة لأن تُصادر أو أن تُورّط صاحبها بدفع رشاوى ضخمة للشرطة، الأمر الذي سيحدو بابن الأخ للتضحية ببعض الأرباح لمصلحة عمه. انتهت الصفقة أخيراً، وسط صيحات وآهات الاحتجاج، عندما

وافق العم على رفع عرضه الأول بمقدار 500 جنيه. لقد كان الشيخ أحمد سيكسب 3,000 جنيه إضافية لو لم يُصب بالكوليرا، لكنه مع ذلك لم يسئ التصرف. وبدأ بالأنين لا تعبيراً عن سخطه ولكن تحت وطأة المرض. في هذه الأثناء حمَّل عمّه البضائع فوق الجمال وانتقل تحت حماية ثلاثة بدو مُسلحين.

لا يزال مريضي في مرحلة الخطر. والبقية المتبقية من قوّة فيه بذلها في التفاوض على الصفقة. حتى أنني بدأت أشكّ عند المساء إذا كنت قادراً على إنقاذه، وصباح اليوم التالي كنت قد فقدتُ الأمل أو أكاد.

في ذلك الوقت بدأ البدو يتذمّرون ويتهامسون بين أنفسهم بأسلوب لا يبشّر بخير. فهمتُ قليلاً مما قالوه، لكنه كان كافياً لي لأدرك أنهم لن يعودوا يثقون بي بعد الآن. بالنسبة لهم الحشيش يعني كل شيء ولا يستطيعون أن يقتنعوا أن من غير الواجب على الآخرين أن يشاركوهم الاهتمام به. وبدأوا يعتقدون أنني قد قبضت رشوة من قبل أعداءٍ لهم لأعطي قائدهم السّم بدل الدواء. لقد كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي أن أخضع لمنطقهم الأعوج ولم تكن لديّ أي فكرة لحساب مَن كانوا يظنون أنني أعمل. بدأوا يتغامزون عن الشرطة وحتى عن العمالة السرّية البريطانية، وشطحوا في خيالهم بعيداً جداً ليفترضوا بأنني كنت عميلاً لمنظمة الهاغاناه اليهودية. والفكرة الأخيرة التي خطرت على بالهم وكانت الأكثر واقعية هي اعتقادهم بأن الشيخ خضر قد كلّفني بالتخلص من منافسه.

ولأنه لم يكن للبدو أدنى فكرة عن الممارسات والإجراءات الطبية، فلربما ورّطتني هذه الشكوك بالخطر، ولم يطل الوقت قبل أن يُفصحوا لي عن شكوكهم وريبتهم. إنهم يُعاملوني الآن كسجين نظامي ويضعونني تحت المراقبة في كل الأوقات. حيث عُيّن بدوي ليُراقب كلّ عمل أقوم به. وعندما استيقظتُ من فراشي لأخرج وأستنشق الهواء النقي، قطع طريقي حارسٌ ببندقية محشوة. أردت أن أبدي اعتراضاً، لكن الرّجل دفعني قائلاً: «إذا مات شيخنا، ستلحق به أنت أيضاً».

لم يكن هناك سبب لآخذ كلامه على محمل الهزل، فرجال من ذلك الطراز يعنون

مـا يقولـون عندما يهدّدون أحداً ما بتلك الطريقة. في تلـك الأثناء دعتني حالة مريضي للاعتقـاد بأن كل جهودي باءت وستبوء بالفشـل. ومع ذلك، لم آلُ جهـداً، بدافع من الأمـل والخـوف، وكأنـني أناضـل لأنقذ حيـاة ابني الوحيـد. لقد أصبحت أيـام عمره معـدودة وكذلـك أنا. أصبحت متوتـراً وبدا كأنني أفقد صوابي، مهمـا كنت مُتأكداً من العلاج الذي عليّ اتباعه.

لم يكن أجر 2 جنيه كثيراً بالنسبة لرجل حياته مرهونة بنجاحه، وكانت الأمور تسير باتجـاه خسـارتي للعبة. هذا مـا بدا لي ذات ليلة بعد الذهاب إلـى مريضي. ففي صباح اليـوم التالـي لم يبـدُ هنالك من بارقة أمـل في إنقاذه. فمـن الواضح أن البقيّـة المتبقية من قوته ستنفد قبل حلول الظلام. كنـتُ بمنتهى الهدوء، حيث لم يعد هنالك من أمل بالنجـاة لمريضـي الذي يمـوت أمام عينـيّ، وحتى لي. فضـلاً عن ذلك يبـدو أنني قد أصبـتُ بالعـدوى، ومن المسـتحيل أن أكون قد نجوت من الإصابـة. أنا الطبيب الذي كنـت أعالج المرضـى، من ذا الذي سيعالجني إذا مرضت؟ ألم يكـن من الأفضـل أن يضعـوا نهايـةً لحياتي علـى طريقتهم الوحشـية، أم أنني قد كُتب علـي أن أموت حتف أنفـي كما يموت البعيـر، كما الرّجل أمامي، بنفس المـرض وبنفس الظروف المحيطة المروّعة؟

ووضعت حداً لهذه الأفكار الهدامة التي كانت تراودني.

هل أكيد أنني أصبت بالمرض؟

لا! لا! أريـُد أن أعيـش وأذهـب لوطنـي – أن أنهـي طوافـي في بلدي وبين ناسـي وعالمي، أن أتنفس هواءً آخر، أن أكون حراً أفعل ما أريد ولست مقيداً بإرادة الآخرين، حيـث لا أُختطف بالقـوة لأعالج مريضاً وحيث تكون أجرتي شيئاً آخـر غير رصاصة مسدس.

إذا خرجتُ حياً من هذه الخيمة وعُدت إلى قريتي بين قوم عتيبة، فقد قرّرت أنها لن تكون قريتي بعد الآن. لقد مرّت أيام كثيرة، وكانت السنة تقترب من نهايتها، وربما لن

يجد السجين الفارّ الآن صعوبة كبرى ليصل إلى القاهرة. حيث سيجد طرقاً ووسائل لمغادرة مصر نحو عالم أفضل.

يا ليتني كنت قادراً على بثّ الرّوح مجدّداً في هذا الرجل الذي يموت!

كان لا يزال حياً صباح اليوم التالي، لكنه لم يكن أفضل حالاً. لم أنم طوال الليل بل جلست إلى جانب سرير مريضي لأكون قادراً أن أرى أيّ تغير في حالته.

مع انطلاقة فجر جديد انطلق أحد البدو بعيداً. لم أعلم سبب ذهابه، ولكني لم أشعر ببوادر خير، ثم عاد العربي متأخراً بعد الظهر، مُحضراً معه رجلاً عجوزاً تجاهلني وتشاغل عني بمريضي. فتح عينيّ الشيخ أحمد الذابلتين وتحدّث معه بلطف ولكن بدا بأن الأمر ملحّ.

لقد أصبحت الآن متفرجاً، وكان بمقدوري أن أراقب المعالجة العربية التقليدية للناس المرضى. أخرج الرجل قطعة حديد من خُرج سرجه ووضعها في النار وتركها حتى أصبح طرفها أحمر كالجمر، ثم سحبها من النار. أمسك ثلاثةٌ من العرب الرّجل المريض، وإذا به يصرخ بصوتٍ عالٍ، لتفوح رائحة لحمه المحترق في أرجاء المكان. ضغط الرجل العجوز الحديد الساخن على أسفل قدمي الرجل المريض ليسحب المرض منهما.

وبدأ الشيخ أحمد يتلوّى أكثر من أفعى أصابها القيظ ويئنُّ بشكل مُبكٍ لمدة نصف ساعة. ثم سقط في النوم لشدة التعب والإنهاك. لكنه كان في الحقيقة نوماً بالفعل لا إغماءً ولا غيبوبة.

توقف القيء، ومع أنه كان يئن من وقت لآخر، فإنّ الرجل المريض أمضى ليلة هادئة نسبياً. تحسّنت حالته في اليوم التالي بشكل واضح حتى أنني شعرت أن حبل الإعدام بدأ ينفك عن رقبتي. وعند المساء كان الرجل قد تجاوز مرحلة الخطر. وسألت نفسي فيما إذا كان تدخّل الحكيم العربي هو الذي سبب هذا التحسن الرائع، أم أنها بُنية الرجل القوية، بالإضافة إلى آثار معالجتي التي ظهرت الآن؟ أفضل ألا أعبّر عن رأيي

بشـكل نهائي. إذا كان الحكيم العربي هو مَن أنقذ حياة الشـيخ أحمد، فإني أيضاً مدينٌ له بحياتي. وبعد ما حدث لن أدعوه مرة أخرى بالدَّجّال.

بعد يوم أو يومين كان ممكناً نقل المريض الذي يتماثل للشـفاء على نقّالة إلى بيت مزرعة عمه.

دعانـي ابـن الأخ والعم كلاهما علـى مضض كعرفان للجميل لأنـزل ضيفاً عليهما لبضعة أسـابيع. لكن ذكرياتي عن فنجان القهوة والأيدي الكدرة التي كانت تتحسّـس تفتـش عـن لقمة في الطبـق، وفوق ذلك كلـه، الأيام الفظيعـة التي قضيتُهـا عندما كان مريضـي وأنا بين الحيـاة والموت، حملتني على رفض دعوتهمـا. وقبل أن يذهب كلٌّ فـي طريقـه، وضع مريضـي ورقـة نقدية أخرى بقيمة 1 جنيه في يـدي، ليبلغ مجموع ما حصلـت عليه لقاء ملازمتي المريض الشـرفية 3 جنيهات. لكن هـذا الكرم قابله توفير فـي منـاحٍ أخرى، فقد كان مُلاحظـاً مثلاً، أنه لم يرسـل دليلاً ليرافقني فـي طريقي إلى ديـاري ولم يكن هنـاك من جَمَل خُصِّص لنقلي، ولا حتى حمـار هرم! بدلاً من ذلك، كان الخوف رفيقي - الخوف أن تكون العدوى قد انتقلت إلي، رغم أنني قد تلقحت، بسبب الاحتكاك مع المريض.

ولم تنقض مخاوفي إلا بعد مرور أسبوع دون ظهور أعراض للمرض. لكن انطباعات الظلام والكآبة التي رافقتني خلال تجربتي الأخيرة لا تزال تسـتحوذ علي، ولم أرغب في أن تدوم أكثر من ذلك، وهي التي كانت ناجمة من الكسـل والرّتابة الراجعة نوعاً ما إلى القيود التي يفرضـها الوقوع في الأسر، والتي تنتهي غالباً بالموت.

لم أعد خائفاً مما يخبّئه المسـتقبل لي بعد الآن، وصمّمت بكل عزم على بدء رحلة عودتي إلى ألمانيا بعد أن أؤدّي فروض الوداع لأصدقائي من عنيبة. سأسافر هذه المرة عن طريق القاهرة سالكاً أقصر وأسهل طريق مُتاح.

* * *

12 - رجل يُدعى إبراهيم بيه

لقد كنت على علم بأنني سأجد العديد من الحلول والمخارج في القاهرة، فقد كان معي عنوان رجل متنفّذ يُدعى إبراهيم بيه.

لقد كان اسم القاهرة يوحي لي بالكثير من السّحر والشاعرية كلما تجرأت على أن أحلم، خلال إقامتي المؤقتة الطويلة في السّجن الصحراوي. حيث كنا نحن السّجناء المشتاقون للوطن، كلما تحدّثنا عمّا وراء الأسلاك الشائكة والمتاريس، حيث العالم المتمدّن الذي لا تزال فيه بيوت حديثة بدلاً عن الأكواخ العسكرية، والنساء وأحواض الاستحمام ودور السينما وأجهزة المذياع وفرص العبث والضحك والملاهي والبيرة، كان اسم القاهرة يُذكر دائماً. وكان مما يُذكر مع القاهرة قصص الكثير من الشجعان الذين تجاوزوا التحصينات والأسيجة قاصدين القاهرة، ومات غالبيّتهم من العطش في الصّحراء.

لقد توافرت في القاهرة كل الأسباب التي على المرء أن يتخذها لكي يحصل على جوازات سفر مزوّرة ومال وبطاقات سفر في السفينة، ومن القاهرة تبدأ الطرق السّريّة التي يسلكها الرّجال للوصول إلى الحرّية. لقد كانت القاهرة المحطة الأخيرة في الطريق إلى ألمانيا، وكان هناك كلام كثير عن روعة هذه المحطة.

إلى جانب ذلك، كما قلت، يعيش رجل متنفّذ يُدعى إبراهيم بيه، الذي حملتُ إليه كما يمكن القول أوراق اعتمادي.

أنا لا أعرفه جيداً، أو بالأحرى لا أعرفه على الإطلاق، رغم أنني رأيتُه مراراً. وكلما كان يحضر إلى قريتنا لم أكن أخفي إعجابي بأثوابه الحريرية الفضفاضة، وأكثر من

ذلك عقاله الموشّى بالخيط الذهبي الذي يزين كوفيته البيضاء الحريرية. وتدلّ مشيته الوقورة على عزّه ومكانته الرّفيعة، والاحترام الذي يقابله به كافة سكان القرية يُظهر بأنه كان رجلاً ذا تأثير عظيم، فيما كانت بدانته توحي بالظّرف الذي يوحي به عادةً الأشخاص البدينون.

في البداية كوّنت فكرة عن إبراهيم بيه، الذي كان اسمه مجهولاً بالنسبة لي، كسياسي بارز، وبما أن ظهوره في القرية قد تصادف مع نشوب الاضطرابات في فلسطين، فقد خمّنت أنه أراد أن يحثّ رَبع عنيبة على أن يكون لهم دورٌ في المقاومة. ولكن فيما بعد علمت أنه كان واحداً من المشترين الأساسيين للحشيش. وكلما حاولت الاقتراب من هذا الرجل، كنت أُمنع دائماً من ذلك. إذ أن الشيخ خضر وباقي الشيوخ لا يتركونه أبداً حتى لحظة مغادرته، وكان واضحاً أن هذه الملاصقة له لم تكن عرضيّة. وأخيراً علمتُ اسمه، وفيما بعد بفترة طويلة، حصلتُ على عنوانه من والد سويلم.

لقد قرّرتُ بأنّ على هذا الرجل المتنفّذ أن يُساعدني على الفرار من القاهرة. فرجل كهذا سيكون مفيداً لي أكثر من شخص لم يسبق له الاصطياد في المياه العكرة. غالباً ما تكون الطرق الفرعية في الشرق سالكة أكثر من الطرق الأساسية. وعندما أعلنت نيّتي في أن أغادر، بدأ سكان القرية بإظهار حزنهم وأسفهم على ذلك محتجّين على قراري بالرّحيل. فقد كانوا يُبدون لي قدراً من الاحترام والتقدير. لذلك فقد بادلتُهم تعاطفاً وتفهّماً لمشاعرهم، لقد تحدّثتُ لغتهم وكنت ضرورياً لهم، ليس فقط كطبيب ولكن لمختلف الشؤون التي تتطلب قوّة وجَلداً. بالطبع لم أعزُ رغبتي بالعودة إلى الوطن لأيّ كره في نمط معيشتهم، بل قد شرحت أنني أردت فقط الذهاب إلى الوطن لا لأي سبب، وبدأ رفاقي بالتدريج يتفهّمون وجهة نظري، مع أنهم استخدموا كل فصاحتهم لأكفّ عن قراري حتى لحظة مغادرتي.

وعندما وجدوا أني لن أغيّر رأيي دعوا لي بالتوفيق وتمنّوا لي رحلة سعيدة. أتى سويلم معي حتى «بساتين بركات» Basatin Barakat، حيث قلت له وداعاً وأنا بغاية الحزن.

ترقرقت الدّمعة في عيني الشاب أثناء انتظارنا لسيارة عمومية، وودّعني قائلاً: «إذا كنت في أيّ مشكلة وتحتاج مساعدة، تذكر أنني أخاك. أنت أنقذت حياتي، ولن تغلو عليك».

وجّهتُ له شكري وثنائي العميق. وفي هذه الأثناء أتى الباص وكنا جاهزين للانتقال إلى مكان آخر. قبّلتُ سويلم على خديه على طريقة البدو، وانصرف وهو يكفكف دموعه. ثم دخلت بسرعة، خشية أن أضعف أمام عواطفي. نظرت للخلف بتردّد من الباص وهو يمشي ورأيت سويلم ينطلق وهو يجرّ خطواته بتثاقل، يتبعه جمله الذي يسحبه بحبل. الحق أقول لكم بأن سويلم زادني ألماً على ألم الفراق، وإذا بقريتنا الصحراوية تبدو لي من بعيد كوطن فقدتُه وسأتوق إليه دائماً أينما قادتني الأقدار.

لم يكن الباص ممتلئاً وكان هنالك بجانبي مقعد شاغر. كل المسافرين الآخرين كانوا فلاحين ولا أحد منهم يرغب بأن يجلس بجانب بدوي طالما وجدوا مقعداً لجلوسهم. لبستُ أقدم وأردأ جلاّبية لديّ حتى أبدو كما أردتُ أن أتظاهر. ووضعتُ ما معي من مال في حقيبة علّقتُها بعنقي وأخفيتُها تحت ثوبي. ولكني حملتُ شيئاً آخر بيدي، بطاقة تعبّر عني تمثلت في رزمة مسطّحة من الحشيش من أجود نوع حصلت عليها بمشقة من مخزوننا الوفير.

لحظة انطلق الباص قفز بدوي للداخل، وبالطبع، أتى وجلس جانبي.

قال: «الحمد لله على نعمة الجلوس بجانب عربي. لا يستطيع المرء التحدّث إلى هؤلاء الفلاحين القميئين. أما الآن فقد وجدتُ رفقةً إلى أن نصل القاهرة».

تأففتُ وغطيت وجهي بكوفيتي. لم تكن لدي رغبة في أن أظهر كأجنبي، ومع أنني أعلم لغتهم جيداً، لم أكن متأكداً فيما إذا كانت لهجتي جيدة لدرجة كافية لأتواصل مع بدوي. في حقيقة الأمر لم يكن هنالك من داعٍ لأقلق كثيراً، لأن هنالك تفاوتاً بين لهجات العرب لدرجة أنّ بعضهم لا يفهم الآخر. وحتى ولو كانت لهجتي على درجة كبيرة من الغرابة فيمكن أن يعتقدوا أنني كردي أو أرمني.

سألني: «من أين أنت؟، وما اسم قبيلتك؟». وعندما تحدّث ظهرت أسنانه البنية المصبوغة بالشاي.

لم أرغب أن نفتح حديثاً طويلاً لذلك سحبت غطاء رأسي بإحكام أكثر فوق فمي وقلت: «أشكو من ألم في أسناني، وأنا ذاهب إلى طبيب الأسنان».

«أهو ألم حادّ؟» سأل مُتعاطفاً.

«دعني أنظر!» وأمسك برأسي محاولاً فتح فمي ليرى السّن المؤلم.

«أوه»، صحتُ وانتفضتُ من بين يديه لأفلت منه. فقال لي متعاطفاً: «يبدو أنه مؤلم جداً. ولعلمك فلدي ابنة عمّي لديها ألم أسنان فظيع، مثلك تماماً. يمكن القول إنها لم تكن ابنة عمّي المباشرة لأن زوجة عمي الثانية، التي سأحدثك عنها»... وبقي يثرثر لساعات. وعندما وصلنا إلى القاهرة لم يكن انتهى بعد من تعداد شجرة النسب، وتفريعات قبيلته. وكان منسجماً جداً بما يقوله، حتى لم تتوفر لي مناسبة لأقاطعه أو أعلّق على كلامه.

عندما وصلت السيارة إلى نهاية الخط، أصرّ هذا الشخص الطيّب على أخذي لأرى طبيب أسنان - أفضل طبيب أسنان في القاهرة، حسب زعمه. لكنني نجحتُ بالتخلص منه عندما شققنا طريقنا عبر الحشود.

وهكذا كانت هذه مدينة الأحلام بالنسبة لسجين!

وحتى لا ألفت الأنظار لنفسي إذا تلكأت في المسير، ركبتُ الترام بعد عدة أبنية وتركته يأخذني معه حيثما ذهب. كانت عربات الترام هذه تخضع للتفتيش، إنها مفتوحة من الجانبين وقد زُوّدت بسبعة مقاعد طويلة خشبية عرضية، تكون في فترات الازدحام ممتلئة دائماً. كما أن فيها عدداً وافراً من مساحات الوقوف، لكن المرء يجد الناس غالباً يقفون على مسند الأقدام، وقد لاحظتُ بأن الحمّالين يضعون حمولتهم على السّقف في مكان خطر بجانب خط التوتر العالي.

سألتُ نفسي إلى أين أردت الذهاب. لدي عنوان إبراهيم بيه في جيبي، لكنني لا

أريد أن أسأل عن الشارع. كنا هنا في ساحة المحطة مع تمثال مصر، الذي عرفته من الصور. ومن هنا انطلقنا إلى «العَتَبة الخضراء» Ataba-el-Khadra، الملتقى الرئيسي لكل خطوط الترام تقريباً. فيما بعد عندما توقفت المركبة عند تقاطع، شققتُ طريقي عبر حشد الفتيان الواقفين على المسند ونزلت من بينهم إلى الرصيف.

كان عليّ أن أبدو كنموذج لبدوي بسيط من أبناء الصّحراء قد حزم ما يملك من حطام الدنيا وعلقه على عصا طويلة فوق كتفه، ووقف مشدوهاً أمام ما يشاهده من مظاهر النشاط والصّخب في هذه المدينة العظيمة.

وقفتُ بجانب جدار منزل وحدّقتُ. على اليسار كانت هناك واجهات عرض ملابس مضاءة، وعلى اليمين كان المصريون حنطيّو البشرة يعصرون البرتقال والعنب والجزر بمعصرة هادرة ويبيعونه على منضدة رخامية للزبائن. شاهدت القناطر الفولاذية لجسر يجتاز نهر النيل، لكن كان الجدار أكثر ما أثار انتباهي، فقد كان مصنوعاً من الحجر. لقد بدوت كالأحمق، فقد مضى وقت طويل لم أرَ فيه إلا الجدران الطينية أو بيوت الشعر حيث كنت أعيش! لذلك فمن المؤكد أنني بدوت كالأحمق عندما أشرت بإصبعي إلى هذه المعجزة الحجرية. عندما تابعتُ طريقي مررتُ بشرطي يقف عند تقاطع طرق ويراقب ما يحدث في الشارع. رفع يده وكأنما أراد أن يومئ لي، ثم خفضها ثانية. لقد ارتديتُ أقذر ملابسي عن قصد وأعتقد بأن الشرطي، عندما فكّر ملياً، وجدني بدوياً حقيقياً. كنت أتساءل إن كان في مظهري خطأ ما.

لدى تجوّلي قُدُماً، مررتُ بلوحة عند زاوية شارع مكتوب عليها: «شارع سليمان باشا». لقد كان ذلك هو الشارع الذي أبحث عنه.

كانت التعليمات التي تلقيّتها من والد سويلم تنصّ على أن أبحث عن دكان أحذية على زاوية شارع بتقاطع مع شارع سليمان باشا. عدة خطوات أيضاً للأمام وسأصل إلى مقهى يمكنني من خلاله الوصول إلى مقرّ تاجر صنف بالعقال الذهبي. اتبعت الاتجاهات ووجدت ما كنتُ أبحث عنه.

دخلتُ إلى غرفة صغيرة مظلمة يتدلّى من سقفها عددٌ قليل من مصابيح ضوئية خافتة. حيث جلس إلى الطاولات المتداعية رجالٌ سُمر البشرة نوبيّون وسودانيّون، يرشفون القهوة والشاي بصوت عالٍ، بالإضافة إلى آخرين يدخّنون النرجيلة أو السجائر، يطوف عليهم ماسح أحذية متجول وبائع بطاقات يانصيب، فضلاً عن المتسولين أو أولاد الشوارع الذين جاؤوا لالتقاط أعقاب السجائر من تحت الطاولات. وفي كل مكان كانت تُسمع صيحات لاعبي النّرد وهم يطالبون شركاءهم في اللعب برمي الحجر.

طلبتُ قهوة، وبعد أن شربتُها وسدّدتُ ثمنها أخبرت النادل السوداني بأنني أريد التحدّث إلى إبراهيم بيه.

فقال لي: «ماذا تريد منه؟»، وإذا بهذا الزنجي ذي النطاق الأحمر ينظر إليّ مشدوهاً ومستهزئاً.

فأجبت: «أخبره بأنني أحمل أخباراً من عتيبة». فاختفى الزنجي وعاد بعد برهة قصيرة يقول: «عليك أن تنتظر».

وهكذا انتظرتُ، كنت زائراً غير مهمّ، ومن عادة العرب أنهم يبقون دائماً الزوار غير المهمّين في الانتظار حتى يُدركوا عدم أهميّتهم، وأهمّية الشخص الذين جاؤوا ليروه - وهكذا بقيت في الانتظار.

بدأ شفق المغيب بالخفوت، وأضاءت مصابيح الشوارع ليل المدينة. وجدتُ هذه التجربة المعهودة مخيفة بالتأكيد، فمنذ أغسطس 1939 لم تر عيناي الأضواء الطبيعية لمدينة، ونادراً ما كنتُ أرى أناساً يرتدون ثياباً أنيقة في الشوارع. منظر النساء بالأحذية ذوات الكعب العالي والجوارب الشفافة، والسيارات الفارهة التي كانت تأتي بالضيوف، وأضواء وإعلانات النيون، والوجوه الحسنة لبشر طبيعيين - لقد استحوذت عليّ هذه المشاهد تماماً، وانتظرتُ حتى تتمّ دعوتي، وعيناي على الشارع وأنا في حالة ذهول تام.

ظهر النّادل الأسود مرة أخرى وأومأ إليّ بأن أتبعه. سرتُ ماراً ببار المقهى الصغير

في آخر الغرفة، حيث كانت القهوة تُخمّر بأباريق قهوة تركية ذات مقبض طويل فوق الجمر الأحمر. ثم أخذني النادل عبر باب واطئ ينتهي بمستودع مليء بزجاجات الليمونادة وأكياس القهوة ومؤن أخرى، حتى وصلنا إلى درج سلّم حادّ الارتفاع يقود إلى مكتب.

وصلنا وجهتنا، لأرى شخصاً خلف مكتب، ولكن لا يمكن بالتأكيد أن يكون هو نفسه الرّجل النبيل المحترم ذا المكانة الذي رأيتُه مؤخراً بعقاله الذّهبي.

فخلف طاولة مليئة بالكتب والأوراق والجرائد جلس شرقيٌّ سمين مكسوّ بالحرير تظهر عليه آثار النعم ويرتدي طربوشاً. كان يدوّن شيئاً في دفتر ملاحظات ويُدخن نرجيلة عند الكتابة. بدأ الرجل بالهمهمة عندما دخلنا لكنه لم يرفع بصره. وعاد الزنجي إلى العالم السّفلي مرة أخرى. وبلمحة واحدة كوّنتُ الصورة التي أردت: سروال متسخ قُطع عدد من أزراره، قميص بنهايات أكمام قذرة، قبّة مهترئة، أكمام رثّة ولحية لم تُحلق منذ يوم على تضاعيف ذقنه السّمينة. لقد كان البيه مشغولاً بتنظيف أنفه.

«ماذا تريد؟» قال الرجل البدين دون أن يرفع رأسه.

فأجبتُه قائلاً: «لقد جلبتُ شيئاً لك». وألقيتُ برزمتي على الطاولة أمامه.

هذا الرجل النبيل الذي أتذكره جيداً، وبشكله المألوف لكن دون مساحيق تجميله، وثب على قدميه كالملسوع صارخاً: «وما علاقتي بذلك؟» ألا تعلم أن حيازة الحشيش محظورة قانوناً؟ سأستدعي الشرطة وتأخذك لترمي بك حيث يجب أن تكون. أنت واحد من أولئك الذين ينشرون الفساد ويعرّضون المصريين للتهلكة».

بالرغم من إتقانه لذلك الدور الذي لعبه، فإنني لم أشعر بالسعادة. فقد كان يلعب دور الرجل الفاضل حتى يدفع الشكوك والشبهات عن نشاطاته المشبوهة التي كان تتمّ على أعلى المستويات، لذلك تظاهر بأنه بعيد كل البعد عن هذا الجو.

فقلت له: «لقد جئتك من قبيلة عتيبة»، مُصمّماً أن أفتتح كلامي بشيء من الإثارة

والتشـويق. وتابعتُ قائلاً: «لا بدّ أننا قد تقابلنا سابقاً في المضارب. كنتَ ترتدي دائماً ثوباً حريرياً أخضر وعقالاً ذهبياً».

وبدأ بكيل الشـتائم لي قائلاً: «أيها اللعيـن المخادع، أيها المبتزّ، أيها الوغد!» وكان وجهـه أحمـر كعُـرف الديك الرّومـي، ولكن عندمـا نظر إلـى الرُّزمة خفّـف قليلاً من غلوائه.

«ما اسم الشيخ؟» سألني ناظراً إلي بذكاء.

فقلت له: «سليم خضر»، وأضفت وصفاً مُفصلاً للرجل.

«وما اسـم عمّه العجوز، الذي لديه عين واحدة فقط؟».

وخفـف ابراهيـم مـن حدّتـه العصبيّـة نظـراً لعدد النـاس الذيـن أعرف أسـماءهم والتفاصـيل التي وصفتُ بها الأشـياء، وصـف المطلع المعايـش للأمور.

فقال لي أخيراً: «أوه، طيّب». ثم تابع كلامه، بعد فحص الرّزمة من جميع الجوانب، قائـلاً: «أقـول لك مرة أخرى بأني لا أعرف شـيئاً عـن هذه المـادّة، وإذا أخذتُها منك، سيكون ذلك مني كرم أخلاق، وتعويضاً عن عناء السّفر الذي تكبّدتَه لتوصلها إلي».

أخـرج سـكيناً من جيبه واقتطع قطعـة مثلثة عبر الغلاف وقسـمها إلى قطعتين، لف إحداهما على شـكل كرة، شـمها، ووضـعها في غليونه، واختبر طعم الدّخان. وبعدها، وضع المتبقي من الحشـيش على لسـانه وتذوقه، متلمظاً بشفتيه قليلاً، ثم أضاف القطعة التي تذوّقها إلى غليونه وسحب منه عدّة سحبات عميقة.

ويبـدو بأن الطعم قد حاز على رضاه، إذ أنـه وضـع غليـونه والرُّزمة في دُرج وأخرج مـن جيبه عدداً من الأوراق النقدية. فقلت لنفسـي: هذه نقـودي، وهي تكفي كما أظن لنفقات العودة إلى الوطن.

لكنـه رمـى بضـع أوراق نقدية منها علـى الطاولة قائـلاً: «هاك نقـودك، الآن خذها وانصـرف!».

فاعترضتُ عليه قائلاً: «لكن هذا لا يساوي نصف سعر هذه الرّزمة». وإذا لم يعطني سعر السوق مقابلها، لن أستفيد شيئاً، لأنني لن أكون عندها قادراً على الوصول إلى الوطن.

فأجابني بسخط: هذا كل ما لدي، ولقد أخذتُ منك البضاعة كصَدَقة، وبذلك فقد حصلت على بعض نقود الجيب، لذلك لا تحاول استغلالي وتملي علي المبلغ الذي عليّ دفعه ثمناً لها. علاوة على ذلك فإن هذه النفايات من أدنى صنف. وأشك بأنك إذا أعطيتها لسائق عربة النفاية أن يستطيع تدخينها».

لقد انهارت كل أحلامي الكبيرة مع كلماته. فقد كنت أريد مبلغاً معيناً أنا بحاجته، إذ أن المدّخرات التي أحملُها في محفظتي لن تكفي لحاجاتي. فهذا الوغد، هذه الشخصية المرموقة التي عوّلتُ عليها وعلى دماثة أخلاقها للحصول على تكاليف تزوير مستنداتي ونقود السّفر، هذا الوحش قد خذلني.

فما كان مني إلا أن قلت: «أنت تكذب وتعلم ذلك جيداً جداً، أنت لم تأخذ البضاعة مني كصدقة، وهي في الحقيقة من الصنف الأول».

ثار بركان الغضب داخله فزمجر بي: «كيف تتجرأ وتشكّ بكلامي، أيها الغجري، أيها المتشرّد!». وفتح الدُّرج بعصبية، والتقط رزمة الحشيش ورماها إلى سلة أوراق ممتلئة، صارخاً: «هناك مكان هذه النفايات، وهنالك يجب أن يكون مكانك».

وإذا بي أصرخ في وجهه: «أيها الوغد!».

جنّ جنون الرجل وصرخ بأعلى صوته: «ماذا دعوتني؟» وبدأ بالصّياح: «محمّد! محمّد!»، وقبل أن يتفوّه بالمزيد أمسكتُ عصاي الثقيلة وضربته. حاول المراوغة، لكنه تلقى ضربة عنيفة على جانب رأسه جرحت أذنه وأخذ الدّم يتدفق على خده. وسقط خلف الطاولة مغشياً عليه.

لقد تحطمت كل آمالي، ووقفتُ أمام الطاولة بارتباك أنتظر قدوم الشرطة في أيّة لحظة. كان باب السّلم مفتوحاً، ولم يكن لدي شك بأن محمّداً قد سمع صراخ سيده

ودعوته له. ولكن لم يكن لدي وقت للتفكير.

غادرتُ الغرفة في الحال، وإذا بالزنجي الضخم يصعد السّلم. وأول ما خطر ببالي هو أن أضرب ذلك الوحش إذا أردتُ الخروج من المنزل. كنت واقفاً فوقه، لذلك فإن قوّته العظيمة لن تنقذه من ضربة أوجّهها له نحو الأسفل. لكنه على الأغلب سيكون لديه الوقت ليصرخ قبل أن يسقط، وحتى إذا لم يفعل فإن وقوعه سيحدث ضجة كبيرة ستُسمع الناس في المقهى أسفل منا وسأقع في أيدي الجماهير الغاضبة.

وهكذا، انزلقتُ بصعوبة متجاوزاً إياه في طريق الدَّرج الضيق، وقفزتُ الدّرجات الأخيرة القليلة، ثم ركضتُ عبر المستودع وبثوانٍ قليلة وجدتُ نفسي في الشارع، غير مُدرك بأي اتجاه سأهرب. وقبل أن أمضي بعيداً أطلّ عبدٌ أسود برأسه من إحدى النوافذ المرتفعة وصاح بأعلى صوته: «حراميّة! مجرمين!».

لم يرُق لي هذا الصوت، وازداد كُرهي له عندما رأيت يد محمّد السوداء ممدودة وتشير باتجاهي وهو يقول: «إنه هناك - ذلك العربي هناك!».

فبدأتُ باتخاذ ردّة فعل، حيث عبرت الشارع خلال ثانية، لكن الناس تنبهوا الوجودي وبدأوا بمطاردتي. فما كان مني إلا أن رفعت حواف جلابيتي، وقذفتُ بالرُّزمة بعيداً، ونزعتُ خُفّي وركضتُ بأقصى سرعة بأقدامي الحافية، فاراً من الحشود التي تجري خلفي وتصرخ: «يا مسلمين! امسكوا الحرامي!».

وأثناء عبوري الشارع ركضتُ مباشرة أمام سيّارة مارّة كادت أن تصدمني، فتوقفت السيارة بفرملة لها صوتٌ مدوٍّ. وسمعتُ صوت صفارة شرطي تدوّي في مكان ما ورائي. لم تكن لدي فكرة أين كنت أو في أي اتجاه أذهب لكني تابعتُ الجري. وتنبّه الناس أمامي لأصوات الراكضين خلفي، فأتى رجلٌ راكضاً من شارع جانبي وحاول أن يوقع بي. فضربتُه تلقائياً بعصاي، وتجاوزتُه قبل أن يكون لديه وقت ليصيح. احتشد الشارع أمامي بالناس وكان من الجنون أن أبقى فيه. كان المطاردون يلاحقونني وأستطيع سماعهم يركضون ورائي. فدخلتُ عبر شارع إلى اليمين، متفادياً الازدحام

أمامي، حيث فضّلتُ أن أُدهس على أن أُمسك من قبل الجموع التي تطاردني وتصرخ بغضب، ثمّ أُعتقل بسبب القتل. وبطريقة أو بأخرى هربتُ عبر دراجات بخارية كانت تسير خلفي معترضة الطريق، إذ أن سائقيها لا يعلمون شيئاً عن المطاردة التي كانت تجري. وبينما كنت أعبر الطريق رأيتُ عربة ترام تمرّ من أمامي. رميتُ عصاي أرضاً واندفعت إليها، ونجحت بإمساك أحد أعمدتها، الأمر الذي كاد أن يخلع كتفي، وحالما حاولت أن أصعد إلى العربة ضربتُ ركبتي بدرجة الصّعود. لكن المسافرين مدّوا أيديهم وانتشلوني إلى داخل العربة.

بدا من الواضح أنه لا يزال هناك بعض الناس الطيّبين في مدينة إبراهيم بيه.

سألني رجل عجوزٌ مُلتحٍ: «بالله! أنت مجنون!» في الوقت الذي ارتميتُ فيه لاهثاً ومرتجفاً على مقعد بجانبه.

وكنت ما زلت أسمع بعض صيحات «أوقفوا السارق»، لكنها تلاشت حيث غطى عليها ضجيج التّرام.

«إلى أين تركض بكل هذه السرعة يا بني؟» سألني الرجل العجوز.

فقلت له مبدياً عذراً يبدو مقبولاً: «أنا في طريقي لأرى صديقاً مريضاً».

هزّ العجوز برأسه وارتسمت على وجهه علامات التعاطف.

«وما هو مرضه؟».

«لديه حمّى».

«هل يعيش بعيداً من هنا؟».

«على الضفة الأخرى من النيل». هذا ما خطر على بالي فجأة عندما كنا قادمين على جسر. لم يكن نفس الجسر الذي كنت قد رأيته في ذلك المساء، لكنه من الواضح بأنه جسر يعبر النيل. وقد كان نوعاً من العزاء لي أن أعرف بأن النهر يحول بيني وبين مسرح جريمتي.

«هناك الكثير من المناطق على الضفة الغربية»، قال الرّجل العجوز.

«هل يعيش صديقك في الزمالك أم في الجيزة؟».

«أنا غريب ولا أعرف أسماء المناطق، ولكن أعرف كيف أصل هناك».

«من الواضح بأنك غريب. ولكن لا أريدك، بعد أن خاطرت بحياتك لتقفز إلى الترام، أن تُضيع وقتك بالنزول في الموقف الخطأ».

كان مودّة الرجل العجوز مثيرة للريبة، لكنه كان واضحاً أنه هو الوحيد الذي أراد مساعدتي.

«أظن أنه يسكن في الزمالك»، قلت.

إذن لا بدّ أنه غني جداً. إذ أنه الحيّ الأرقى في المدينة».

فقلت له: «إنه بوّاب *boab*».

فحتى بدوي أشعث يمكن أن يكون له صديق يعمل بواباً.

«هذا ما توقعتُه»، ردّ العجوز مومئاً برأسه. وأضاف قائلاً: «أن تكون بواباً في واحد من هذه البيوت الكبيرة عملٌ جميل».

«نعم»، قلت له. «فعلاً، عمله جيد». وبعد أن عبرنا الجسر، قال لي بعد برهة: «ها نحن أولاء في الزمالك. أنظر ملياً في الشوارع. حتى تتعرّف إلى المحطة الصحيحة».

كان أقرب موقف بالنسبة لي المحطة الصحيحة. إذ أنه من الممكن أن تتبع الشرطة عربة الترام، لذلك قرّرت أن أذهب، قبل أن تدركه.

قلت له: «هناك شارعي، هناك بجانب محطة الوقود».

وقفزت بسرعة عند الموقف التالي ومشيتُ باتجاه مضخات البنزين. وحالما ذهبت، سمعتُ صوت الرجل اللطيف المسنّ يقول: «آمل أن يتحسّن صديقك قريباً».

آلمتني ركبتي وجعلتني أعرج، فسحبتُ حواف جلاّبيتي لأرى آثار دم جاف كان قد

سال من ركبتي إلى كاحلي. حككتُ آثار الدّم بطرف ثوبي ومشيت ببطء.

بعد المرور بمحطة البنزين انعطفت إلى شارع جانبي، حيث وجدت حديقةً عامة محاذية تقريباً للقناة الغربية الضيقة للنيل.

حول تلك الحديقة قامت بيوت الأغنياء والموسرين الذين لا يعرفون شيئاً عن مصاعب الحياة التي يعيشها الفقراء.

لقد كانت مصابيح الطرقات المرتفعة على جانب النهر والتي تنعكس أنوارها على صحفة النيل تشعّ كاللآلئ في عتمة الليل. على جانبي القناة المائية كان هناك صفّ من المنازل العائمة مربوطة إلى الضفة. كان بوسعي سماع موسيقى عذبة تصدر من أجهزة المذياع والحاكي، تحمل موجات الماء صداها إلى البعيد، بينما جلس فوق مصاطب الذّهبيات *dahabiyehs*، نساء ورجال لا يحملون همّاً، ويتحدّثون بكل سعادة. وأظن أن أصوات البوم في هدأة ذلك الليل هي التي أثارت أحاسيسي وجعلتني أتنبه لبهجة ذلك المنظر بعد قسوة العيش في الصّحراء.

استلقيتّ تحت السُّعف المتدلية لنخلة قصيرة وحدّقتُ في النجوم، فشعرت بأنها قد خُلقت لغيري وليس لي. فرجل مثلي ليس له قيمة بين البشر، رمت به الأقدار كما يلقي البحر بخَبَثه على الشاطئ، ولم يعد له ثمّة أمل في الحياة، ولا حتى بصيص أمل، يمكن أن يعود به إلى حياة البشر المنظّمة، لا يمكن للنجوم أن تمنحه الراحة.

سلكتُ طريقاً ملتوياً لأضمن عودتي إلى وطني وحياتي السابقة. لكن محاولتي قد باءت بالفشل وها أنا ذا هنا، حقيرٌ منبوذ وكل من حولي عدوّ لي. صحيح أنّ لديّ مالاً كافياً لأستأجر غرفة في فندق، لكن كل الفنادق تشرف عليها الشرطة. لم أغتسل منذ الصباح الباكر، وقد كنت أشعث أغبَر من وعثاء السّفر، مرهقاً وجائعاً بعد هروبي عبر الشوارع. أصبحت جلاّبيتي نَتِنة من العَرَق وروث الجمال. ولم يكن هنالك من بوّاب أدنو منه، إلا وسيسلمني إلى الشرطة. وما معي من مال يمكن أن يكفي حقاً للعبور إلى وطني، ولكن دون أوراق، فليس لدي أمل بعد الآن أن أحصل على تذكرة

سـفر بالسـفينة ولا جواز سـفر.. فلقد راهنتُ بكل أوراقي على الرّجل صاحب العقال الذهبي، لكنه خذلني، ولم يعد لديّ من أمل.

وإذا بسيارة تسير ببطء على ضفة النهر. فانبطحتُ أرضاً عندما توجّه النور نحوي حتى لا يراني أحد، فقد كنت هارباً، ومطلوباً من قبل الشرطة.

* * *

13 - دارة الباشا

لقد كانت الرّغبة في أن أكون بين إخواني في الإنسانية أقوى من مخاوفي. لذا تركت مخبئي وسرت بخطى متعثرة نحو الضوء، مع أن المستقبل لا يحمل أي إمكانية لحياة لي. فمصابيح المدينة العظيمة وأصواتها البعيدة اجتذبتني إلى حيث يجتمع الناس.

لقد كانت غاردن سيتي في الزمالك، حيث ارتفعت بجانب الطريق المعبّد ڤيلاّت بطابقين أو بثلاث في وسط حدائق الأزهار الجميلة، حيث شفّت النوافذ المضاءة عما تحتويه تلك البيوت من رفاهية وترف. وقد اتضح لي وجود امرأة تغني أغنية فرنسية، لكن الستائر المضلعة منعتني من رؤيتها. ولا بد أن خلف النوافذ أسرّة ناعمة واسعة ينام فيها ناسٌ مُنعمون تحت لحف محشوة بريش البَط عندما ينتهي الضحك والغناء.

ثم رأيتُ بيتاً لا أضواء لنوافذه. ولكن يبدو بأنه لم يكن الوحيد غير المسكون. وقد تصوّرت بأن مالكيها سوف يعودون فيما بعد، إذ أن بوابة المدخل مفتوحة شيئاً ما. لقد استهواني هذا المنزل، حيث كان يقوم وسط حديقة كبيرة، وفيها توقعت وجود مظلّة أو مأوى مناسب لرجل مثلي أن ينام فيه. طقطق الحصى تحت قدمي عندما مررتُ للداخل خلسةً مختبئاً تحت بعض أغصان الدّفلى. ولم يخرج أيٌّ بصيص نور من المنزل، أو أية إشارة تدل على وجود ناس فيه، ولا حتى كلب ينبح منبهاً إلى دخول الغرباء.

زحفت حول المنزل في بحث عن ملجأ في الحديقة الخلفية، وسرعان ما وصلت إلى مرآب بُني في جانب المنزل. كان الباب بالطبع مُقفلاً لم أستطع فتحه، ولكني وجدت نافذة صغيرة في الجدار الخلفي فقرّرت الدخول عبرها. دفعت الزجاج

وفتحت النافذة بسهولة فائقة. ثم ألقيت نظرة على الجوار، وعندما لم أرَ ضوءاً ولم أسمع صوتاً، تسلّقتُ عبر النافذة كسارق.

كان ضوء القمر كافياً لأرى ماذا يوجد في المرآب. فإذا ببرميل بنزين ورافعة وعدد من الرّفوف عليها أدوات وقطع غيار، لكن لا يوجد سيارة. لم يكن المالك موجوداً وعرفت بأنه قد ذهب بعيداً لبعض الوقت حيث لم يترك مكانه أجيراً. كم هم مهملون أولئك الأجراء! فقد تركوا بوابة الحديقة مفتوحة، وهناك نافذة غير مثبتة في المرآب، وباب غير مُقفل يُفضي إلى المنزل من المرآب.

ومن هذا الباب هنالك درج سلم مفروش بسجاد يؤدي إلى الصّالة. ذهبت للأعلى ووقفت أتنصّت وأتلمّس طريقي بيد واحدة على الحائط.

حاولت فتح مقبض الباب الأول الذي صادفته. كان مُقفلاً - تحسباً من الغرباء أمثالي. ثم لامسَتْ يدي الدّرابزين لسلم ذي درجات منحنية تقود صعوداً إلى الطابق العلوي. تلمّستُ طريقي للأعلى ووجدتُ نفسي في دهليز عريض. الباب الأول الذي أتيته كان غير مقفل ووجدت نفسي فجأة في غرفة. دفعتني ركبتي فاصطدمتُ بشيء ناعم - السرير. بالتحرك للأمام ظهر لي بابٌ كان عبارة عن خزانة موضوعة في الحائط. وفيها الكثير من الملابس التي تناسب رجل مثلي حيث من الحكمة ألا يتجول في لباس بدوي في الصباح.

أشعلتُ عود ثقاب فرأيت بنوره حوالي عشرين بزّة متدرّجة القماش والألوان. وقبل أن ينطفئ عود الثقاب، سحبت واحدة من هذه البزات وجرّبت السّروال بسرعة. كانت النتيجة مُخيبة.. إذ أنه يتسع لرجلين من نفس قياسي بسهولة، أعدت البزّة إلى الخزانة فأصدر الباب صوتاً أزعجني. بعد ذلك تلمّستُ طريقي حول الجدران، فتعثّرتُ بكرسيّ ووجدت نفسي أخيراً أواجه باباً آخر.

فتحته، وأشعلت عود ثقاب آخر وبصعوبة كتمتُ صراخي عندما رأيت أنه حمام. لم يكن فيه نافذة - وإنما جهاز تهوية يدخل عبره خيطٌ من الضوء فقط - جعله آمناً

لي لأشعل الضوء. عندما فعلت ذلك، ذهلت من التأثيرات التي تضفيها قطع الديكور البيضاء والسوداء. حيث تم تزيين الغرفة بأكملها بالآجرّ الرّخامي الأسود، لكن الحمّام، وحوض الاستحمام والباقي كان من المرمر الأبيض. وكانت الحنفيات والتجهيزات مطلية، وحتى حواف الباب الزجاجي لحجرة الحمّام، كانت مطلية بالطلاء الذهبي.

وياله من نقاء ملفت يتمتع به الباب! إذ أن السطوح العليا والسفلى كانت من الزجاج النقي، ولكن القسم الذي يشفّ عن جسد المستحمّ من الركبة حتى السّرّة مصنوع من الزجاج المُغشّى، وقد زُيّن بشكل جميل لا يُظهر ما خلفه.

لقد مضى عليّ زمن طويل منذ أن استحممت آخر مرة في مكان مُترف كهذا! سألتُ نفسي فقط هذا السؤال في الوقت الذي رميتُ فيه جلاّبيتي وسروالي على الأرض وكنت أقف في حجرة الاستحمام، حيث كان المرجل الكهربائي يغلي ففتحتُ حنفية الماء الساخن لينصبّ منها ماء مغلي فعدّلت الحرارة بالماء البارد حتى صار بمقدور جسدي تحمله. وكان هناك صابون أيضاً، صابون مُعطر لطيف رغوت به نفسي حتى اكتسى جسدي بالرغوة.

وجدتُ منشفة حمّام جفّفتُ نفسي بها ثم شرعتُ بغسل جلاّبيتي والعقال بصابون الخُزامى - وتصوّروا تلك المفارقة الغريبة بين صابون الخُزامى وروث الجمال، لكن عندما عَصرت الأثواب، وجدتُ أن الغلبة كانت لصابون الخُزامى.

حالما انتهيتُ من معالجة مظهري الخارجي وشعرتُ مرّة أخرى أني مخلوق بشري، وإذا بغريزة طالما قاومتُها تغلبني وتطغى عليّ ألا وهي الجوع، فقد كنت جائعاً لوقت طويل دون أن أعلم ذلك! ولكن قابليتي للطعام الآن في أوجها.

كان البيت مهجوراً تماماً. لذلك لن أحتاج بعد الآن لأكون حذراً إذا أحدثتُ ضجة. مشيتُ حافي القدمين، حاملاً أثوابي المغسولة فوق يدي ومُرتدياً فقط سروالاً صوفياً قصيراً إلى الطابق السفلي في بحث عن المطبخ. عليّ أن أكون حذراً فقط فيما يتعلق بالضوء. إذ أنه سيكون من الغباء أن ألفت انتباه رجال الشرطة وأسلّم نفسي لهم كفريسة سهلة.

تلمّســت ما حولي في الظلمة حتى وجدت باب المطبخ، وفي زاوية المطبخ كانت هناك ثلاجة. عندما فتحتُها أضاء المصباح أوتوماتيكياً، ممّا حدا بي إلى دفع الباب بقوة علـى الفور مـرة ثانية. كنت في ورطة حقيقية: فحتى أحصل على بعض الطعام لأهدئ من جوعي علي أن أفتح الثلاجة وإذا فعلت ذلك فسوف يظهر نور المصباح. وحُـسمت المعركـة لصالح الجوع، لذلك قرّرت أن أحصل على الطعام حتى لو صـدر الضوء من مصباح الثلاجة. بأيّ حال رشح ضوء واهٍ جداً عبر المصاريع المغلقة.

وجدتُ مؤونة غنية من الأشياء التي اعتاد الناس أن يخزّنوها في عُلب قصدير. قمت باختيار عشـوائي، فحصلت على علبة فخـذ خنزير، بعض الزيتون المخلوط، صندوق من كبد الإوز، قطعة نقانق، قطعة جبن، معلّبات مربى وزجاجة شامپانيا. لا يوجد خبز فـي أي مـكان. نظرت هنا وهنـاك بحثاً عن فتّاحة علب، وسـكاكين وشـوك وملاعق. ولأول مرة منذ زمن طويل استخدمت سكيناً وشوكة لآكل بها، لكن لا يوجد هنا شيء يذكرني بالأوبَرتسالْمايستَر بيرِنز وسـكين الحقل التي أكلتُ بها وجباتي المتقشفة في خيمتـي. عليّ أن أسـتخدم أدوات الطعـام المتحضّـرة لأتعامل مع هذا الطعام الشـهي الذي واتتني به الأقدار. لأنني لا أتصوّر نفسـي وأنا أسـتخدم أصابعي لأستخرج شرائح الخنزير أو المشـمش من حاوياتها.

مددتُ منديلاً على الطاولة وأعددت لنفســي مكاناً قبل أن أفتح العلب وأشـرع في وجبتي. ولكن كان عليّ شـرب الشـامپانيا في قدح نُحاسـي لعدم توفر كأس مناسـب. وبـدأ الاضطراب يظهر على تصرفاتي، وبعد عدّة جرعات كافية من الشـامپانيا، ثملتُ حتى اكتشفت أنني أتحدث بصوت عالٍ مع نفسي.

«ألا تريد مزيداً من هذا الخنزير الشـهي؟» قلت، مُقدماً لنفسـي العلبة.

«شكراً جزيلاً، يوجد بحوزتي أربع شرائح».

«خمس» صحّحتُ لنفسي، «ولكن مَن بعدّ علي اللقم؟» ولأنه لا يوجد أحد يُحصي علي سمحتُ لنفسي بشريحة سادسة.

«ماذا عن بعض المربّى؟» سألتُ نفسي، وعرضت الوعاء الزجاجي على الدكتور بريتسكِه لينظر إليه.

ثم سمعتُ صوت صَرير الباب بشكل ضعيف. فامتلأ قلبي رعباً واستدرتُ في مقعدي.

كان ضوء الثلاجة كافياً ليظهر أن الرجل الذي فاجأني كان طويلاً عريضاً ويحمل بيده هراوة. صُعقت من الخوف، إلى درجة أنني لم أستطع حتى أن انهض. حدّقتُ به فحسب.

«كيف دخلت؟». سألني بالعربية.

«عبر نافذة المرآب».

«أنت تتحدّث عربية جيدة».

«أنا من عتيبة».

«أنت ألماني».

ثم أشعل الضوء ليرى شكلي. حتى ذلك الوقت لم يبدُ من ذلك الشخص سوى أنه ضخم الجثة. والآن يبدو لي بأنه كان سودانياً مفتول العضلات كهلاً. لن أجازف على الإطلاق بالعراك معه.

نظر الرّجل إليّ جدياً من تحت عمامته البيضاء وبدا أنه يفكر.

«لماذا لم تُخبرني الحقيقة؟» قال لي بنبرة توبيخ لطيفة. «هل يشرب البدوي الخمر؟ هل يأكل العربي مثل الفرنجي؟ *franghi* وأشار إلى السكين والشوكة. «هل يخلع الكوفية في منزل غريب؟ هل غسل في حياته ملابسه إلا في مضاربه الأصلية؟». يعني هذا أنه قد لاحظ مسبقاً أثوابي المعلقة لتجف. «وهل يتحدّث البدوي إلى نفسه بلغة غريبة ليست لا إنكليزية ولا فرنسية؟».

كان الرّجل الكهل أذكى وأسرع من أن أجيبه. لم أُفكّر في أي شيء لأقوله، وهكذا

كرّرتُ فقط أنني بدوي.

«جيد جداً، ثم، إذا أصررت على أنك بدوي، سأُعاملك مثلهم. في البداية ستُجلد ثم سأسلمك إلى الشرطة». أمسك هراوته بقوة وأتى نحوي.

وبما أن الجدال[1] بدا عقيماً لي، فقد قرّرت لذلك أن أقول الحقيقة.

«نعم»، قلت «لا أستطيع أن أنكر بأني ألماني». ونهضتُ وتحرّكت بعيداً جاعلاً الطاولة بيني وبينه. «بإمكانك الآن استدعاء الشرطة. ما سعر العملة الألمانية في السوق اليوم؟».

خفض الرّجل الكهل هراوته وقال بنبرات فيها طيبة: «اجلس يا بني. أريد فقط أن أسمع منك الحقيقة فالنبي الكريم قد لعن الكاذبين، هل أنت جائع؟».

«ليس بعد الآن» قلت مُشيراً إلى العلبة الفارغة.

«هذا جيد».

نظر بسخرية إلى العلبة التي تحوي الخنزير وقال: «أنت كافر، ولذلك بإمكانك أن تأكل لحم الحيوانات النجسة. إذ أنك لا تعلم الحلال من الحرام. لكن الباشا الذي أخدمه، مع أنه قد نشأ في بيئة من الإيمان الحقيقي، فهو يُدنّس نفسه بمعصية أمر الله. هو أيضاً يشرب الخمر والكحوليات، غير مهتم بقول النبي: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» ».

«أنت رجل تقي» قلت بمذلة وحزن، فتقوى الإنسان تعبيرٌ عن صلاح حقيقي. وتابعتُ قائلاً: «آمل ألا تمانع بالجلوس مع كافر».

«الله كبير، إليه وحده ترجع أسباب الهداية والتفضل بالمعرفة والنور على بعض الناس وترك الآخرين في ظلمات الجهل، لكن مهما فعلت، ومهما كان اسم الإله الذي تعبد، فإن كل الأمور مردّها إلى الله، الربّ الحقيقي لهذا الكون».

---

(1) يكتب المؤلف العبارة باللاتينية: *argumentum ad baculum*.

لـم تكن فصاحة هـذا الرّجل الضخم الطيّـب مُجرد اقتباس لنصـوص، بل كان من ورائهـا قلب سـخيّ، هـذا ما أظهرتـهُ معاملته لي. بالنسـبة لـي، كنت أطالـب بواجب الضيافـة بدخولـي للمنزل، وأرغـب الآن أن أعبّر عن عرفاني بالجميل للسّـخاء الذي تلقيتُه، قبل أن أغادر.

لكن الرجل الكهل أصرّ على قضائي الليلة في المنزل. بالطبع يمكن أن تكون دعوته مصيدة، لكنني كنت واثقاً أنه مُخلص وهكذا، دون أدنى شـك، بدأت أخبره كل شـيء عـن هروبي من الأسـر، وحياتـي عند عتيبة، والحـوادث التي أدّت إلـى تضرّر ركبتي. أردته فقط أن يعرف أنني لم أكن لصاً، وأني قد دخلت منزل سـيده عندما يئسـت، دون معرفة إلى أين أذهب طلباً للمسـاعدة عندما أغادره.

«غداً سوف نناقش الأشياء» قال بهدوء. «أظن أنك ستجد طريقاً في الخارج بعيداً. عندما يضع الله العقبات في طريقنا، يعطينا أيضاً وسـائل للتغلب عليها». ووقف على قدميه قائلاً: «لا بد أنك مُرهق جداً، بُنيّ. تعال، سآخذك إلى سريرك».

تبعتُه إلى الصّالة، التي كانت قد أضيئت الآن بأربعة مصابيح في الزوايا، وقد تدلّت مـن السـقف ثُريّا ضخمة. كانت الأرض مفروشـة بأكملها بسـجاد ذي وبـر كثيف من تبريز، ووقفت وسـط الغرفة طاولة طويلة منخفضة بسـطح من الرُّخام. واصطفّ على طول الجدران طقم مقاعد مُنجّد ذو ظهر عالٍ مع أرجل منقوشة ومطلية.

كل شـيء كان مطليـاً بالذهـب بسـخاء، حتى المسـند الـذي يحمل بلاطـة الطاولة الرُّخامية، وعلى رفّ كانت نماذج وفيرة لأشياء تافهة لا قيمة لها جُمعت من تذكارات الحـرب العالميـة. بالمقابـل رأيـتُ لوحة لرُنـوار مُعلقة فـوق الجدار. وعنـد الصّعود للطابـق العلـوي لاحظتُ نمـاذج إضافية لتُحف تظهر قـدرات كبيرة في تسـخير مواد مبتذلة لإظهار جمالها.

«هـا هـي ذي غرفـة نومك» قـال الرجل الكهـل، عندما فتـح باب غرفة فـي الطابق العلوي. «طابت ليلتك، يا صديقي».

إذا أخفت هذه الضيافة الودّية شـركاً، فأنا كنت بالتأكيد في أترف شـرك وأكثره أناقة وجـد نفسـه فيه جرذٌ ضـالّ لا هدف له. كانت غرفتـي الجميلة السّـاحرة بالتأكيد غرفة امـرأة. كان هـذا جلياً من زجاجـات العطـر وأدوات الزينة الأخرى التـي كانت تغطي طاولـة التجميـل، بينما أوحت الجرنـالات الدّورية الفرنسـية المبعثرة هنـا وهناك بأن سـيّدةً أوروپية كانت آخر مُقيم. لم أمتلك من الشـجاعة ما يمكّنني من النوم في سـرير لويـس الرابع عشـر العظيـم، إنه يحتاج إلـى جرأة أكثر مـن التي أملكها لأسـتلقي بين أعمدة السـرير المنقوشـة تحت غطاء مظلة حمراء مزيّنة. الأفضل أن أنام على الأرض كما تعوّدت أن أفعل بين البدو، كما كنت أمضيت الليلة السابقة على الأرض.

سـمعتُ نقراً لطيفاً. دخل السّـوداني مرة ثانية ووجدني واقفاً مشـدوهاً. قال: «لقد اتصلت بالإخوان. سيكونون قادرين بالتأكيد على مساعدتك بطرقهم. عليك أن تكون في منزل الإخوان غداً صباحاً في التاسعة. أردت أن أحمل لك هذه الأخبار الجيّدة في الحـال، حتـى لا تبقى قلقاً طوال الليـل. فقد وجد الله لك من قبل المصاعب وسـائل التغلب عليها».

تسـاءلت من هم الإخـوان الذين تحدّث عنهـم وماذا يمكن أن يخبـئ لي الصباح. فبعد تبدّل حالي من اليأس إلى الأمل، لا زلتُ خائفاً مما يخبئه لي المستقبل وخشيتي سوف تمنعني من النوم.

«لا يمكـن أن أبقـى هنـا»، قلت. «ليس عليّ ذلـك إذا علمتْ سـيّدة المنزل أنني قد نمتُ في سريرها، فسوف تعاقبك أشد العقاب».

«سيّدة المنزل» وضحك الخادم المخلص باستهزاء. «سيدتي لديها غرفتها الخاصة في الجانب الآخر. هذه الغرفة لخليلات سيدي».

بدا وكأنه كان هناك قصد من وراء تصرفه هذا. فقد أرادني الرجل الكهل أن أنام في هذا السّرير كاحتجاج على عادات سيّده السيئة.

«ومع ذلك» قلت، أفضّل أن أنام على فرشة على الأرض - في أيّ مكان».

«اسمع يا صديقي» قال بحزن. «إذا ظننت أنك ستكون أول ألماني ينام في هذا السرير، فأنت مخطئ تماماً. يبدّل الباشا نسائه كما يبدّل غالباً قمصانه. معظمهن فتيات من ملهى الكيت كات Kit-Kat أو نساء قد عاد بهنّ من رحلاته. وعندما يسأم من النساء - حسناً، أنت رجل ذو شعر أسود وناضج لكني أذكر شابتين، ألمانيتين شقراوين، بائستين ومفلستين، رمت بهما الحرب بين يديه... وعندما ضجر منهما تخلى عنهما لبعض أصدقائه».

صُدمت ببرود بهذا البوح، وقلت له: «أين دور القانون والنظام في كل هذا؟».

«قانون!»، صاح الرجل العجوز باستهجان «في هذه الأرض الملحدة المال هو القانون. المُشرّعون القضاة هم المنتهكون للإيمان الحقيقي، المرتدّون عن طريق الله. وهنا يأتي دورنا نحن الإخوان. سوف نضع نهاية لقوة الأغنياء والباشوات ونقيم مرة أخرى مملكة الله. وسوف نفعل ذلك بالنار والسيف، إذا اقتضت الحاجة. نعم، بالنار والسّيف» ردّد الكلمات وكأنه يردّدها لنفسه. ثم قال: «ليلة سعيدة، أيها الألماني، نَمْ جيداً، سيكون غداً يوماً حاسماً بالنسبة لك».

في الضوء اللطيف للمصباح بجانب السرير، خلعتُ الثوب الوحيد الذي كنت أرتديه. احتفظ الرّجل الكهل بجلاّبيتي وكوفيتي في المطبخ، إذ أنه سوف يكويهما عندما يجفّان. لم أجد شيئاً آخر لأنام به سوى ثوب فضفاض أزرق حريري، وحالما أغلقتُ عيني في ذلك السرير المقدس، أحسستُ بعطر ناعم للنساء وسعادة طويلة لا طعم لها. لكن جسدي، المتمرّس على الاستلقاء على أرضية قاسية، رفض أن ينام في كل هذه النعومة والرفاهية. غداً سيكون لدي سرير خشن مرة أخرى لاستلقي عليه - أخشن، ربما، من الدرجة التي أحبها.

تحدّث الرجل العجوز عن الإخوان: مملكة الله: الإيمان الحقيقي: النار والسيف، ومرة أخرى عن الإخوان...

* * *

14 - الإخوان المسلمون

كان عليّ أن أذهب للنوم فيما بعد، حيث صحوت في الصباح التالي منتعشاً وصافي الذهن. أدركت أن مستقبلي قد رُتِّب لي بمعزل عن إرادتي، وبدأت أفهم تدريجياً ما كان يتحدّث عنه الرجل العجوز عندما أشار إلى الإخوان.

أتى إلى جانب سريري جالباً لي غطاء رأسي والجلابية وقادني للطابق السفلي إلى فطور حميم.

«الآن»، قال، «سوف تأتي معي إلى منزل الإخوان».

«هكذا كما أنا؟» سألتُ بارتياب.

«نعم»، قال «سوف آخذك إلى هناك».

ذهبنا معاً بالسيارة إلى المنزل، وتركني مضيفي اللطيف في غرفة انتظار عُلّقت فيها آيات من القرآن الكريم، وودّعني.

جاء رجل طاعن في السّن بلحية قصيرة بيضاء، مرتدياً ثوباً بنياً، ليخبرني أن علي أن أنتظر لبعض الوقت.

مضى عليّ زمن طويل منذ أن شعرت بالخجل الشديد والارتباك. كنت في تلك اللحظة كشاب ينتظر دخوله الامتحان، أو فتى قروي حافي القدمين أخذوه من الحراثة ليعمل في تجارة لا يعلم فيها شيئاً عن أسياده الجدد في عالم مجهول. حاولتُ عبثاً، بالرغم من معرفتي الجيدة بالكتابة العربية، أن أقرأ النصوص من القرآن المكتوبة بمخطوطات مزخرفة. كان الرجال يدخلون ويخرجون كإخوة في دير، وأحضر لي

بربري صامت القهوة. إنّ طيبة نفس الرّجل السوداني الكهل وتقواه ومظهر الشيخ العجوز ذي اللحية البيضاء في غرفة الانتظار زادت كلها في خوفي من أنّني سوف أعمل حصرياً مع رجال دين عجائز اضمحلّ نشاطهم وحيويتهم. قطع الرجل المسنّ سلسلة أفكاري، وقادني خارج غرفة الانتظار إلى مكتب.

استُقبلتُ بحرارة ومصافحة فوق الطاولة، وكان ذلك ينمّ عن أي شيء إلا الخوف. كانت قبضة رجل يعرف ما يريد، والنظرة الثاقبة التي يتمتع بها كانت هادئة وواثقة. بدا الرجل في سن الأربعين، حليق الذقن، ولكن بشارب صغير، ويرتدي ملابس أوروبية وشعرت أنها نظرات مسلم تقليدية.

كان هذا الهُضيبي أفندي[1]، العضو في السلطة التنفيذية للإخوان المسلمين، والذي صار في عام 1949 مرشداً للتنظيم. بدأ يسألني باختصار، جملاً محدّدة عن اسمي، الأصل، المهنة، التعليم العسكري، والخدمة العسكرية. أراد أن يعرف من أي مخيّم قد هربت وجعلني أصف له باختصار تجربتي منذ ذلك الوقت، ويدوّن ملاحظات فيما كنت أتحدث.

أُديرت المقابلة، التي كانت أشبه بالاستجواب، بتركيز جدّي، عندما قُوطعنا فجأة بدخول رجل قصير وبدين. وقف الهُضيبي بتهذيب، وهكذا نهضتُ أنا أيضاً. حدّق بي القادم الجديد، الذي ارتدى نظارة ذات إطار من النيكل فوق أنفه الكبير، من فوق نظارته بعينين كبيرتين. وتبادل بضع كلمات مع الهضيبي ثم غادر الغرفة.

علمتُ فيما بعد أن هذا الرّجل كان حسن البنّا، مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين الغامضة. كان مُدرّساً في مدرسة ابتدائية في مصر العليا، وهو مكان ما على حدود

---

(1) هو القاضي المستشار حسن إسماعيل الهضيبي (1891-1973)، المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين، تولّى هذا المنصب بعد اغتيال الشيخ حسن البنّا في 12 نوفمبر من عام 1949، وشهدت ولايته فترة الخلاف مع ضباط الثورة المصرية وخاصة جمال عبد النّاصر، وهي الفترة التي قُتل فيها مئات من شباب الإخوان في معتقلات الواحات والسّجن الحربي، بهدف تصفية التنظيم.

السودان، وهناك جمع حوله مجموعة من الشخصيات من نفس التكوين، ممّن يُعبّرون عن إحساسهم العميق بالدّين بالمقاومة الدّؤوبة للحكم بغير أوامر الله، والإيمان والعزم على بناء دولة يلتزم فيها الناس بطاعة كلمة الله ونبيّه.

شقّت حركة الإخوان المسلمين طريقها في التاريخ. واتّحد الأعضاء العاملون والمناصرون كتلة واحدة قوية، وبدأت تكبر سائرة في طريقها مثل كرة الثلج، وانتشرت بسرعة في كافة أرجاء مصر وأسّست فروعاً لها حتى في المناطق الإسلامية المجاورة.

كان من المحتمل أن تؤدّي الحركة في ظروف أخرى إلى نشوء مذهب جديد من الإسلام التقليدي مشابه للتقسيمات السنّية، والشيعية، والوهابية، التي تأسّست قبل عصور مضت. على أيّة حال، أدرك أشخاص محدّدون مبكراً أن هذه الحركة المتكتلة يمكن أن توفّر أداة قوية لتحقيق طموحاتهم السياسية. هذه المجموعة، التي ينتمي إليها المحامي القاهري الهُضيبي أفندي أنشأت لجنة تنفيذية لتنظيم الجمعيّة وأمدّتها بالقيادة، وبوعي كافٍ، عيّنوا أنفسهم كأعضاء لها. لم يكن الحالم، حسن البنّا، أكثر من رئيس صوري والقيادة الحقيقية قد اضطلع بها رجال شباب أعطاهم الملك فاروق الفرصة للقيادة عندما أمر بإطلاق النار على حسن البنّا على أيدي قتلة مأجورين[1]. وعند ذلك جاء دور الهُضيبي كزعيم للإخوان.

والهُضيبي لم يكن أبداً إنساناً حالماً.

«هل أنت خبير باستخدام الدّيناميت؟» سألني، بعدما خرج حسن البنّا من المكتب بإيماءة وديّة.

---

(1) كان اغتيال حسن البنّا على أيدي رجال الملك فاروق في 12 فبراير من عام 1949، بعد سنتين من الفترة التي يروي فيها مؤلفنا بريتسكِه أحداثه هذه (1947). وطالما أنّه يروي خبر دخول حسن البنّا إلى المكتب فمعنى ذلك أن هذا كان إبّان قيامه بمنصب المرشد العام للإخوان. وكان يؤثر عنه أنّه رشّح الهضيبي ليكون خليفته من بعده، وهذا ما كان. وأمّا ذكره لاغتيال البنّا فيرويه من باب العلم به لاحقاً إبّان تأليفه لكتابه هذا في الخمسينيات من القرن العشرين.

«لا»، قلت.

«هل أنت رامٍ بارع؟».

«لا».

تابع سؤالي بتفصيل أكبر فيما يتعلق بأيّة تجربة في الشرطة السرّية أو أيّة نشاطات سرّية يمكن أن أتمتع بها.

كان عليّ أن أخبره بأنني ليست لدي أيّة خبرة.

بدا الهُضيبي أنه قد أخذ بعين الاعتبار فيما إذا كان رجل بهذه الخبرة المحدودة للحياة السياسية الحديثة يمكن توظيفه بشكل مفيد بأي شكل من الأشكال.

«لكن»، قال، «كطبيب لا بُدّ أن لديك معرفة جيّدة بالكيمياء. إذا وضعناك للإشراف على معمل كيميائي مُجهّز جيداً في مكان ما في المنطقة، هل بإمكانك إنتاج مُتفجرات أو سموم؟».

شاركتُ حتى الآن في تهريب الحشيش أو شراء أسلحة لعتيبة، فهل عليّ الآن بحكم الظروف أن أتحوّل من رجل قد ارتكب جنايات بسيطة إلى صناعة القنابل ومزج السموم؟ أهذا هو الحظ الجيّد الذي تكهّنه لي الرّجل السوداني؟

«أنا عالم»، قلت، «بتأثيرات مواد كيميائية محدّدة اختُبرت كيميائياً على أحياء بشرية، لكني لست كيميائياً بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولا أعلم أي شيء عن المواد المتفجّرة».

كنت مُدركاً أن آرائي السلبية كانت تُقابَل بالامتعاض، لكن الهُضيبي تجاهل مزاجي، عالماً بأن عليّ أن أوافق على شيء ما حالاً. قال بأنه لا تزال هناك إمكانية لتوظيفي كضابط طبّي MO للوحدات العربية المقاتلة في فلسطين.

«هناك شيء أفضّل كثيراً أن أقوم به، سيّد هُضيبي»، قلت. «وهو أن أرجع إلى وطني الأصلي. مضت أربع سنوات منذ أن غادرتُ ألمانيا، وأريد أن أعود بأسرع ما أستطيع».

«لسوء الحظ لا نستطيع مساعدتك بعمل ذلك»، قال الهُضيبي بأسف، حتى أنني فكّرت أنه تقريباً يعني هذا. «لكن الخدمة مع الجماعات المنظمة العربية سوف تعطيك فرصة جيدة لتحقيق أمانيك في نهاية الأمر. إنها تعني بالنسبة لك جواز سفر، ونقود، وطريق لمستقبل جديد. بأية حال الحرب في فلسطين تتجه إلى النهاية قريباً».

لهذا الرجل موهبة جدليّة في جعل المستحيل يبدو ممكناً إلى حدٍّ كبير، بحيث لا يستطيع المرء حقاً مُقاومته. تابع ليقول إنني يمكن ألا أتوظف حتى في الخدمة الفعلية، وإذا أردت، سأُعاد إلى القاهرة في عدة أشهر وأنني حرٌّ في أن أذهب حيث أشاء. أضاف بأن خدماتي سوف تُكافأ بسخاء، وعندما رأى تعبيراً للشكّ في وجهي قال: «أنت لا تعلم بعد عظمة الشعوب العربية وحفظها للجميل».

يبدو أنني أتذكّر سماعي لعبارة: "*der Dank des Vaterlandes*" «امتنان الوطن[1]» - فها هي ذي مرة أخرى.

العرفان بالجميل وحده لا يعني الكثير لي. لقد كنت هنا حافي القدمين، مُرتباً بالنسبة لمتسوّل، غنياً بالنسبة للفقراء، تفوح مني رائحة صابون الخُزامى بدلاً من روث الجمل، دون ثقة بأن يمكّنني حظي من الهروب من قبضة الشرطة، مُستنزفاً عاطفياً من معاركي المخيفة التي خضتُها، وواجهت في الشارع العامّ عدوي اللدود. إذا قرّر الهُضيبي، بعد حالات رفضي المتعاقبة، أن يضعني في الشارع، فسأكون بلا شك في يد الشرطة خلال عدة ساعات.

عندما وافقتُ أخيراً، بلا تهذيب، على عرضه الأخير، كنت قادراً على نسيان ما مرّ بي من تسكّع في الشوارع ومن قفز إلى عربات الترام. أُرسلت بسيارة أجرة - مع مرافق - إلى الحلميّة، إلى المركز الرئيسي للحاج أمين[2]، المفتي الكبير السابق للقدس.

---

(1) عبارة شائعة سادت في ألمانيا وارتبطت بوسام الصليب الحديدي *Eisernes Kreuz* بين الحربين العالميتين 1914-1945.

(2) الحاج محمّد أمين الحُسيني (1895-1974) مفتي فلسطين (1921-1948) ينتمي إلى إحدى أشهر العائلات المقدسيّة، شارك في العمل الوطني الفلسطيني منذ نهاية الحرب العالمية الأولى

لقد تمّ توجيه لوم شديد إليه بشكل مباشر من قبل البريطانيين لتعاطفه مع هتلر، وبعد قتال مثير عبر سوريا تدبّر طريقه إلى برلين حيث بقي حتى نهاية الحرب[1]. نُفّذت جميع الإجراءات في المركز الرئيسي للمفتي بحسب الرّوتين المتبع. وطالما أن ملفي الشخصي قد أُكمل ووُقّع، فقد حُرّرتُ من مرافقي. وأمّا الدّليل، الذي حصل على توجيهات الإخوان ليعتني بي، فقد ودّعني، وعندما أُعدت إلى القاهرة، كان السائق يعلم تماماً إلى أين سيأخذني.

فتحت لجنة التجنيد لمتطوعي الحرب مكتباً في فندق ڤيكتوريا، ولا بدّ أن ضيوفاً كثراً قبلي قد دخلوا إلى حجرة المدخل الأنيقة ونُقلوا إلى لأعلى بالمصعد إلى الطابق الثالث.

«تفضل!» "*Tafaddal*!" صاح أحدهم عندما نقرتُ على باب مُحدّد.

«ادخل!».

دخلت غرفة نوم فندق عادية المظهر، نُقل منها السرير واستُبدل بطاولة كتابة وخزانة

في عام 1918 وهذا ما جعله يصطدم بالسلطات البريطانيّة، ويتعاون مع مجاهدي عصره كالشيخ عزّ الدّين القسّام وعبد القادر الحسيني. وعند قيام ثورة فلسطين عام 1936 تولى اللجنة العربيّة العليا لفلسطين، ثم بقيام الحرب العالميّة الثانية التقى بقادة دول المحور في ألمانيا وإيطاليا، على اعتبار أن الألمان لم يحتلوا أبداً العالم العربي، بل صاروا أعداءً للإنكليز والفرنسيين الذين ذاق منهم العرب الويلات. وبعد أسره في فرنسا توجّه إلى القاهرة عام 1947 وهنا كان لقاء بريتسكِه به في الحلميّة، ومن القاهرة يبدأ الحاج أمين بتنظيم صفوف المجاهدين، وتدخل القضيّة الفلسطينية طورها الحرج بعد قرار التقسيم ثم إعلان دولة إسرائيل، فيرأس المفتي الهيئة العربيّة العليا لفلسطين، وتنطلق حرب الإنقاذ، التي فشلت في الدّفاع عن فلسطين، ضمن الظروف والملابسات البائسة التي كان فيها بريتسكِه شاهد عيان.

(1) وكان له إبّان ذلك لقاءان شهيران بزعيم ألمانيا النازي آنذاك أدولف هتلر، في عام 1941، حاول فيهما حمله على الاعتراف باستقلال دول المشرق العربي وتأسيس جيش عربي إسلامي في شمال أفريقيا وشرقي المتوسط لمقاومة الحلفاء. والجدير بالذكر أنّ المتطوعين البوسنيين الذين يذكرهم بريتسكِه باسم اليوغسلاف كانوا بالأصل متطوعين ضمن قوات المحور لمحاربة الحلفاء. ولقد عقد كثير من العرب آنذاك آمالاً على الرّايخ لكسر شوكة المحتلّين الإنكليز والفرنسيين، حتى أنهم كانوا يلقبون الفوهرر أحياناً باسم: «أبو علي هِتلر»!

حفظ أوراق.

رأيت عند الطاولة رجلاً جالساً في الأربعين من عمره بشعر بني فاتح، ذا بنية متينة، ويلبس بزّة كالمحققين. واتكأ بجانبه على عتبة النافذة رجل أشقر، نحيل.

فكّرت في نفسي بأنهم مصريون غريبو المظهر.

«غود مورنينغ» "*Good morning*"، قلتُ، متحدثاً بالإنكليزية.

«غوتن مورغن» "*Guten Morgen*" أجاب الرّجل عند الطاولة بلهجة ألمانية جيدة. «أنا الحاج خالد. اجلس، رجاءً» وأشار إلى كرسي مواجه له عند الطاولة. «أنت سلامة سليمان، أليس كذلك؟ أبلغنا بوصولك من مكتب المفتي الكبير. هذا ابن بلدك، هِرْ سعيد». أعطاني الرجل الأشقر يده مع ابتسامة، قائلاً: «سعيد جداً». «يجب أن تشتري لنفسك مداساً»، قال الحاج خالد، مُشيراً إلى قدمَي الحافيتين. «يبدو أنك كنت في عجلة مؤخراً».

أومأتُ برأسي موافقاً، إذ أنه لم يكن مُخطئاً.

«البدوي الحقيقي يحمل دائماً عصا».

«كانت لدي واحدة، ولكن كما خمّنت، كنت في عجلة، وتعيّن علي استعمالها. ورأيت فيما بعد أنه من الأفضل أن أتخلص منها».

لدى الحاج خالد طريقة ساحرة في افتتاح الأحاديث. «من المحتمل أنك مستغرب»، قال، «من ألمانيتي الجيدة. يجب أن أخبرك أنه قبل سنوات من الحرب كنت طالباً في ألمانيا، وبينما كنت هناك تعلمت أن أقدّر بلدك وأبناء بلدك. وعندما عدت إلى فلسطين، التي أتيت منها، اندلعت الحرب. أخذني البريطانيون كجاسوس ألماني واعتقلوني، فبقيتُ في السجن حتى قبيل نهاية الحرب مباشرة عندما هربت. ومنذ ذلك الحين أعيش في القاهرة».

«أستغرب كيف أن الاستخبارات لم تمسك بك - فتحت إدارة القوات المسلحة

البريطانية، لا بدّ أن للقاهرة شبكة استخبارات مُحكمة».

«ليس من السهل أن تكتشف ساكناً محلياً، ليس هناك تعهّد عام ليُرسل إلى الشرطة والتوجيهات ليست مشددة. حتى أنت، بما أنك لا تبدو ألمانياً نموذجياً، سيكون لديك فرصة جيّدة أن تمرّ دون أن تُلاحظ. لكن جلابيّتك نظيفة جداً ومن غير المفترض أبداً أن تفوح برائحة صابون الخُزامى. الواقع أن المرء يستطيع شمّها من الجانب الآخر للشارع».

«حتى البارحة»، قلت، «كانت وسخة لدرجة كافية، لكن الليلة الماضية واتتني الفرصة، وقد غسلتُها لأتخلّص من النتن».

ضحك الحاج خالد. «هنالك عيب فيكم أنتم الألمان، أنكم نظيفون جداً. هناك طريقتان لذرّ الرماد في عيون الشرطة: إما أن تكون بشكل مألوف قذراً مع وجه غير محلوق وجلاّبية ممزقة، في هذه الحالة سيعتقدون أنك بدوي، أو غير ذلك أن تلبس بزّة من الدّرجة الأولى خيطت وفق مقاسك وتسير هنا وهناك وكأنك اشتريتَ الشارع، عندها ستتخيّل الشرطة أنك تنتمي لواحد من وفود الحلفاء المتعدّدة ويخشون أن يتحدّثوا معك. ولكن ماذا يفعل معظم الألمان؟ يصرفون معظم مُدخراتهم الضئيلة على أحذية رخيصة، وقمصان، وسراويل وسترات جاهزة - كلها بسيطة وأنيقة وألمانية بشكل نموذجي. لا عجب أن كل شرطي يستطيع أن يكتشفهم من نظرة».

أحضروا لنا القهوة وتابع الحاج خالد محاضرته في علم النفس. يبدو فعلاً أنه يعرفنا نحن الألمان أفضل، بشكل عام، مما نعرف أنفسنا.

هناك خطأ نموذجي آخر تقومون به أنتم الألمان. عندما تفرّون فإنكم تفرّون في مجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثة، والأسوأ من ذلك أنكم تتابعون طريقكم معاً. وهذا منطقي تماماً من وجهة النظر الإنسانية، لأن الشركة تزيل شعور عدم الأمان والحرمان في مدينة غريبة وبين أناس لا يفهم الشخص لغتهم ويفترضهم سلفاً أن يكونوا أعداء. يا الله كم هي الأخطاء التي تقومون بها أنتم الألمان، يمكن للمرء أن يعرف الألماني عن

بُعد من خلال أسلوبه غير الواثق ورُعبه من القذارة، وخاصة البروسي. يسير أبناء بلدك بسرعة كبيرة ويُحافظون جداً على استقامة ظهورهم في المسير. يجر البدوي قدميه للأمام دون استعجال، فيما إذا سار ألمان كُثر معاً، فإنهم في الواقع يمشون بخطوات عسكرية. تخيّل البدو وهم يمشون بتلك الخطوات». وضحك بصوت مرتفع.

«لم أفعل أياً من هذه الأخطاء» قلت، متمنياً أن يراجع تعميماته، «لكنني لم أكن مختلفاً عنهم كثيراً كل هذا الوقت».

«يفعل المرء الأخطاء دائماً»، قال مع ابتسامة راضية إلى حدٍّ ما. ربما أرادني أن أفهم أنني كنت الآن بصدد قيامي بأكبر خطأ وأكثره فداحةً».

ثم بدأنا الحديث عن العمل، حيث كان علي أن أروي مرة أخرى قصة حياتي. كانت إضبارتي مكتملة ووقّعتُ تصريحاً على حقيقية أنني قد تطوّعت للخدمة كضابط طبّي مع الجيش العربي في الحملة الفلسطينية. تمنّى الحاج خالد لي حظاً جيداً ووضع في يدي مبلغ 25 جنيهاً قائلاً: «اذهب الآن واشترِ لنفسك طقماً لائقاً من الملابس، سعيد سوف يذهب معك ويأخذك إلى بيتك الجديد».

«أسرع إذن، أيها الولد الجديد» قال الرجل ذو الشعر الفاتح. أخذني إلى المصعد، أنزلني وقادني مباشرة إلى محل ألبسة رجّالية عند الزاوية مباشرة.

شعرت بالإحراج كمولود على وشك التعميد. كان الشعور جديداً تماماً بالنسبة لي، غير أنه مضى زمن طويل منذ أن ارتديت طقماً من الملابس حتى أن رأيي فيما يتعلق باللون، والقماش، والتفصيلة كان لا يؤخذ به البتة. تركت في حيرتي كل شيء لسعيد وعندما قال لي، بعد فحص الثياب: «هذا جيد، خذه»، أخذته.

بينما ارتديتُ بزّة بنّية فاتحة ذات صف واحد من الأزرار، ووجدت صعوبة في معرفة وضعيّة الأزرار، كان سعيد ينتقي لي ثلاثة أطقم من الملابس الداخلية، وعدّة قمصان وربطة عنق.

كانت الملابس الخاصة بالرجل المولود من جديد ناقصة من ناحية واحدة. وهي

أن أقدامه لا تزال حافية.

ابتسم الباعة بوقاحة لكن سعيداً أسكتهم. وسأل ملتفتاً إليّ: «ما مقاس الأحذية التي ترتديها؟».

«اثنان وأربعون تقريباً».

«أخبر أحد فتيانك أن يُحضر لنا أحذية بنية، قياس من 8 إلى 8 ونصف. قال سعيد للمدير».

انطلق البائع وعاد مع أربع علب كرتونية.

حسناً، لا حاجة الآن لمزيد من الخوف أو القلق. بالنظر إلى المظهر العام، فقد أكملتُ التغيير الكامل من بدوي إلى أوروبي. لا يحقّ لرجل شرطة الآن أن يضع يده على كتفي، لأنني بقدرة قادر تحوّلت إلى مقاتل من أجل الحرية، نذر حياته للقضية العربية في فلسطين.

مازلت أفقد حريتي الشخصية شيئاً فشيئاً، ولم يكن هناك شيء باستطاعتي عمله حول ذلك. لقد بعتُها بسعر غالٍ، فمبلغ 25 جنيه ثمن مرتفع تماماً بالنسبة لظروفي.

عندما ارتديتُ كامل زيّي الجديد، نظر سعيد لي بشيء من عدم الإعجاب قائلاً: «لا زلتَ تبدو شخصيّة خطيرة، سأصطحبك في الحال إلى الحلاق».

أخذني إلى صالون حلاقة وأعطى التعليمات بخصوص قصّة الشعر التي علي أن أكون بها، في الوقت الذي بدأ فيه بتحريك رأسي يُمنة ويُسرة ويمشّط شعري بيده الخبيرة. وأخيراً قرّر أن يُقصّ شعري بشكل قصير.

ثم قال لي: «سأتركك الآن، فأنا جائع»، اتبعني إلى مطعم «الأميركيّة» "l'Americaine" على الجانب الآخر، عندما تنتهي.

بعد عشرين دقيقة وجدتُ سعيداً في المكان الموعود، وكان قد أنهى غداءه ويأكل قطعة من البطيخ الأحمر. في بزّتي الجاهزة الجديدة وشارب صغير أنيق، هو كل ما

تبقى من الشعر الكثيف الذي كان يكسو وجهي، تجاوزتُ الحدّ الفاصل ما بين الشرق والغرب ودخلتُ معه أحد المطاعم.

سألتُه أثناء شربنا القهوة عن عمله في مجموعتنا.

«أنا متطوّع، مثلك. لكنني كنت الأول في كل المتطوعين الأجانب، وأتحدّث الإنكليزية، والفرنسية، والعربية بطلاقة، أعمل كمساعد شخصي للحاج لحين ذهابي إلى جبهة القتال».

«لا أتصوّر أنك متحمّس جداً للعودة إلى الخدمة الميدانية، أم أنك كذلك؟».

«يمكن القول إن الحياة هنا ممتعة كثيراً، عندما يعتاد عليها المرء. لكن الخدمة الحربية وحياتي في ليبيا والدّلتا عوّدتني على الإثارة، حيث أن أسلوب الحياة الطبيعية يُضجرني بشدّة. ومع ذلك، أظن أننا مُقدمون على مرحلة جديدة قريباً».

بدا ذلك أكيداً، وهكذا سألته: «ما اسمك؟»[1].

كان يمكن لي أن أضرب صفحاً عن هذا السؤال. نظر سعيد إليّ بتعبير جدّي وقال لي: «ألم يذكر الحاج اسمي؟». أنا أُدعى سعيد، وأنت اسمك سلامة. ليس لدينا أسماء أخرى. والناس الآخرون الذين ستقابلهم لديهم أسماء عربية فقط. لقد نسوا أسماءهم السابقة. عليك أن تتعلّم من ذلك أنه من الأفضل للمرء أن ينسى اسمه الألماني، حيث لا يستخدمه أبداً».

أن يبيع الإنسان حرّيته الشخصية! أن ينسى الإنسان اسمه! أن يتخلى عن التفكير في الوطن والعودة إلى الوطن! تضحية، ربما، ولكن من الأفضل التخلّي عن كافة الفلسفات الزائدة.

«هنا وطنك» قال صاحبي ذو الشعر الفاتح، عندما تركني في شقة واسعة في طابق في المدينة القديمة. وضع المالك الشقة في تصرف الإخوان لتلائم المتطوّعين الذين

(1) نذكّر القارئ الكريم أنّ سعيداً هذا سجين سابق ألماني الجنسيّة وليس مصرياً، ولذا فاسمه (سعيد) مستعار كما هو اسم هربرت (سلامة).

هم بصدد الذهاب إلى جبهة القتال في فلسطين.

كان رفاقي في بيت المشرّدين هذا ستة من الألمان، مثلي، هربوا من مخيّمات أسرى الحرب البريطانية وتمّ التقاطهم من مخابئهم، بالإضافة إلى اثني عشر من المسلمين اليوغسلاف، الذين قاتلوا لصالح الألمان في إيطاليا وانتهى بهم المآل بشكل غير متوقع في مصر.

كان الطعام جيداً ووفيراً، مع مؤونة ثابتة من السجائر والحلويات، وكان يقوم على رعايتنا خادم سوداني.

لكن إذا حاول أيّ امرئ أن يُغادر منزلنا الفسيح راكضاً نحو حارس شرطة خارج باب الشارع، يمنعه الحارس المناوب من الخروج ببندقيته، صائحاً: «ارجع» "*Erga*".

وهكذا، في واقع الأمر، كنا سجناء.

* * *

15 - القيادة العامة في يافا

«يا شباب! لقد قُضي الأمر» صاح سعيد في يوم ما مُسرعاً بانفعال إلى المنزل، غير متمالك نفسه من الابتهاج. جاء ليخبرنا بأنه أقنع الحاج ليدعه يذهب مع المتطوّعين الآخرين.

«استعدّوا الآن» قال. «ستكون سيارتنا هنا خلال ساعة».

بما أننا عملياً ليس لدينا شيء لنحزمه إلا الصّابون ومعجون الأسنان، كان هناك متسع في جيوبنا للسجائر لتخفف عنا كآبة الحرب.

حتى بجيوبنا المحشوة والمنتفخة لم نبدُ شجعاناً بشكل فعلي، ولكن لا أقلّ شجاعة من شاحنة الجيش المصري التي قادتنا إلى الحدود الفلسطينية.

وبعد عبورنا الحدود بقليل نُقلنا إلى سيارة عمومية كبيرة وقديمة وضعتنا أخيراً بعد رحلة طويلة متعبة عند الرّملة، وهي مدينة صغيرة تبعد 6 كيلومترات من يافا.

كان الشهر ديسمبر من عام 1947.

نشبت الحرب في هذه الأجزاء وألقت بظلالها على المدينة.

في السّوق الصغير، حيث توقفنا، بدت آثار حديثة لتدمير كبير، لا يمكن أن يكون سببه الوحيد إلا تفجيرات ضخمة. وعلى أحد جانبي الساحة نُسفت واجهات المنازل. لقد بدا فرش الغرف رديئاً مثل الغرف في منزل دُمى، حيث فقدت جدرانها الأمامية وأصبحت بادية للعيان من الشارع. وفي الساحة تناثرت الأطعمة من الأكشاك والاستراحات: فواكه، خضار، سمك، وكعك ومربّى وفواكه شرقية. كان الناس هنا

وهنـاك يجمعـون حاجاتهم المبعثرة مشـدوهين مما حصـل ويحملونها إلـى المنزل، وأخرى كانت تُـسحب متضرّرة خارج البيوت المتهدّمة لكنها لا تزال قطع أثاث صالحة للاسـتعمال. مـن مكان ما صدر نحيب حـادّ لامرأة - بكاء يدل علـى وجود موت. لم يبدو أحد جاهزاً ليتحدث أو ليخبرنا قصة الهجوم، لكن من الواضح أن شـيئاً رهيباً قد حدث.

نجحنـا أخيـراً في أن نعيد بناء ما هدمته الحادثة، شـيئاً فشـيئاً. لقد اندفعت شـاحنة بسـرعة عبر سـاحة السـوق وأسـقطت برميلاً صغيراً فـي الطريـق. كان البرميل بالطبع سـبب الدّمـار الذي حصل. مـن أي مكان قد أتـى الانفجار المرعب؟ مـن المؤكد أن الشـاحنة كانت تنتمي إلى الهاغاناه، التي دحرجـت البرميل مليئاً بالديناميت. الهاغاناه بالتأكيد - لا مجال للشك.

كانت هذه الحادثة تتمّةً لأخرى سـابقة علمنا التفصيلات عنها تدريجياً، من مصادر مختلفـة. كانت القصتان متشـابهتين جداً، قاد عربي حماراً مُحمّلاً في سـاحة مُزدحمة فـي تل أبيب ومن سـيراوده الشـك بحمار؟ وتم ربطـه بإحكام في مكان مـا، فيما كان سـيده ينكـبّ على عملـه في المدينـة؟ بعد خمس دقائـق انفجر حِمـلُ الحمار، بضعة كيلوغرامات من مادّة تي إن تي. بعد أن أشعل المالك الفتيل كان لديه متسع من الوقت ليهرب بعيداً بصمت، فقُتل الحمار والعديد من الناس.

وما حدث في رام الله كان انتقاماً، والعنف يؤدي إلى العنف، تماماً مثل المكر الذي لا يعود إلا بالخداع.

كانت هذه الأشياء نماذج عن الصّراع في فلسـطين.

بعـد هـذه التجربة الأولى للصراع المحلّـي، قادونا إلى بيت عربي فلسـطيني ثري، قـد دعـا المتطوعين الأوائل من الألمان في جبهة القتال هـذه ليتناولوا الغداء معه. لقد كان هـذا المواطن الثري، الذي اسـمه فاروقي يتحـدث الألمانية بطلاقة. قدّم لنا وجبة مُترفة وكان مُبتهجاً بشكل واضح بوجود الألمان حوله. كان هناك نوع من المفارقة في

كيفيّة مكوثه في بيته الرائع آمناً في ممتلكات ذات ثروة ممتازة، يسألنا، ليس فقط عن تجاربنا الحربية، بل عن أهلنا في الوطن الذين لا نعرف عنهم نُبذ أخبار منذ أكثر من أربع سنوات.

كان كل شيء له مذاق سيء في غرفة الطعام هذه التي تردِّد صدى الكلمات والتي تحدّث فيها مُضيفنا وأصدقائه عن الحرب كما لو كانت شيئاً بعيداً ومستبعداً، في حين أنه على مسافة قريبة من المدينة كانت هنالك ساحة قتال نظامية. تحدثوا عن الاضطراب - والأنكى من ذلك، الصّدامات بين العصابات المسلحة، في منطقة يافا، والتي يتم فيها تفجير قنابل وألغام متفجّرة هنا وهناك. لم يكن لا اليهود ولا العرب قد نظّموا أنفسهم للحرب ولم تكن المناطق العربية المجاورة قد دخلت في الأحداث بعد.

كانت القوّة الأساسية بالنسبة للجيش اليهودي تتمثل في الهاغاناه، وهي حركة المقاومة اليهودية في فلسطين، التي تضمّ عدداً كبيراً من المتطوّعين الذين قرّروا الخدمة مع القوات البريطانية. قُدّروا في ذلك الوقت بحوالي الخمسين ألفاً. كان هناك أيضاً بعض المجموعات الأصغر وأكثر تطرفاً، من بينها عصابة شتيرن غانغ Stern Gang التي تولّت فيما بعد اغتيال الكونت فولك بيرنادوت[1] Folke Bernadotte وسيط الأمم المتحدة.

على الجانب العربي تشكّل ما يُسمّى بجيش الحرية من متطوعين جُنّدوا من كافة المناطق العربية تقريباً معاً مع بعض الضباط الأجانب، وقد تم فرزنا للخدمة في هذا الجيش. أما المتعاطفون الذين كانوا يُفضلون شيئاً أكثر تهرّباً من النظام الصّارم للخدمة النظامية فكانوا قادرين على الانضمام إلى الحرس الوطني. ومعظم هؤلاء

---

(1) فولك برنادوت (1895-1948) كونت سويدي، اختير بعد الحرب العالمية الثانية من قبل مجلس الأمن بالإجماع وسيطاً للتفاوض في النزاع العربي الإسرائيلي 1947-1948 فقام اليهود من عصابة الشتيرن Stern باغتياله في 17 سبتمبر 1948 بسبب مواقفه العادلة تجاه العرب. وكانت العصابة المذكورة بقيادة إسحاق شامير، الذي تولّى منصب رئاسة وزراء الكيان الصهيوني فيما بعد.

كانوا فلسطينيين، حضروا لأداء المهمة في الوقت الذي يناسبهم، يواصلون الحراسة أحياناً، ويُطلقون النار وينهبون قليلاً، ويطرحون أحياناً لغماً ويعودون إلى البيت عندما يجمعون أموالاً كافية. من وجهة نظر فاروقي المقتنع برأيه، فقد كانت حملة بطولية في طور التقدّم، لكن الأصوات الخفيضة لمُحادثته لمحت إلى أنه يعدّ الجيش العربي أكثر توازناً من الناحية المعنويّة، إذا تم تشكيله فقط من الجنود الألمان. بأي حال، لا يمكن للمرء أن يتوقع الكثير مما سيحدث طالما بقي الانتداب ولن ينتهي قبل الخامس عشر من مايو، 1948.

همس لي سعيد بابتسامة: «طالما كان البريطانيون في المنطقة، ستنشب الحرب فقط في الليل».

كان الفاروقي شغوفاً بمعرفة ماذا قال لي رفيقي.

«كنا نتساءل» كذّب سعيد بهدوء، «مَن سيكون رئيسنا المباشر».

«أوه». أتى تعبير عن رضا مغرور على وجه فاروقي حين قال «سيشرّفنا الشيخ ح. بحضوره الليلة وستملكني السعادة بتقديمكم له أيها السادة».

بدا قائدنا مُختلفاً جداً عن الصورة المألوفة لقائد عسكري. فالرجل الذي دخل فيما بعد بوقت قصير، يرافقه اثنان من الحراس الشخصيين يحملون البنادق، والمسدسات، والخناجر، والقنابل اليدوية، كان رجلاً طويلاً ضخماً بشعر أشقر وعينين زرقاوين. كان لونه مميزاً ولباسه أكثر من ذلك، إذ ارتدى بنطالاً رمادياً، وحذاءاً بنياً من جلد غير مدبوغ بنعل مطاطي مجعّد وسترة سفاري. وأكمل زينته حزام جلدي عريض مع مسدسين في قراب مفتوح.

عامل مُضيفنا وكل ضيوفه الشيخ ح. باحترام عظيم. والاحترام الذي أظهروه له كان في جزء منه بلا شك نظراً لمركزه، لكني شعرت أنه كان أيضاً فيه شيء من الاعتبارات الشخصية، وقد تأكد شعوري عندما لاحظت صديقه الحميم يناديه بأبي علي.

كان لـديّ متسـع مـن الوقـت لألاحظ وأدرس الشـيخ ح. عندما سـار ببـطء حول الرفـاق، مرحّبـاً بكـل ضيـف، بمصافحة قويـة. لم يكن من السـهل لـي أن أفهم لهجته القرويّـة التـي قال بها كلام ترحيـب بنا. قال إنـه كان مبتهجاً لكوننـا موجودين هنا في المنطقـة كرفـاق في الحرب للمقاتلين العرب من أجل الحرية. سـينتهي القتال بالنصر لنـا ولهم. كانت جبهته الضخمة المحترقة بالشـمس جبهة فلاح وكقروي أيضاً كان ذا ملامح ماكرة، بدت من خلال وحشيته الفطرية. لكنه قصد إخفاء هذه المساوئ خلف قنـاع مـن الطيبـة. كانت جبهته مائلة بشـكل حاد للـوراء عن باقي وجهه ولـه ذقن ناتئة لرجل قاسٍ، مسـتعد لخوض مجزرة في سـبيل الحصول على السّلطة. عيناه تقريباً بلا أهداب وقد غارتا بين جفنين دهنيين سميكين، لكنهما تلاحظان كل شيء بدقة ثعلب، بينما تظهر على وجهه ابتسـامة تنمّ عن طيبة، وهو الثمن الذي يجب أن يدفعه رجل من أجل شعبيته.

كان ذاك ضابطنا وآمر مجموعتنا.

كانـت الحرب التي عليه أن يشـنّها قوية كشـخصيته. قُوطعـت مُحادثتنا التي دامت حتى وقت متأخر من الليل بشـكل مسـتمرّ بوصول العرب مع بنادق للبيع، وأحضرت مجموعة صندوقاً من القنابل اليدوية الإيطالية. كانت كل أنواع الأسـلحة مقبولة إذ أن أياً من الفريقين المتنافسـين لا يملك أسلحة ثقيلة. كانت المسـدسات والبنادق الرشاشة هي الأسلحة المستخدمة حالياً، وكان لدى كل من الجانبين عناصر بشرية من الألمان والطليـان. وبما أنه لم يُسـلّح أي طرف بمدفع لتُطلق به قذائـف متفجّرة على العدو أو علـى طائـرة لقذف القنابل عليـه، فعلى كل واحـد أن يرمي قنابل ويـزرع ألغاماً محليّة الصنع في مخيّمات العدو أو المنازل خلسة.

«سـتذهبون بالمركبات إلى يافـا غداً في الصباح الباكر وتحضـرون إلى مقرّ القيادة HQ، حيث سـتزوّدون بالزيّ الرّسـمي، والعُدّة، والأسـلحة»، قال ضـابطنا الآمر CO قبل مغادرة المجموعة في سـاعة متأخرة. «سأذهب الآن في زيارة تفتيش رسمي لأعدّ هجومنا على المسـتوطنة اليهودية. سـأغيب عنكم غالباً لمدة أسـبوع. في هذه الأثناء

أتمنى منكم أن تعاينوا جبهة القتال وتكتبوا لي انطباعاتكم بأمانة. وعندما أعود، سأرسل بكم إلى قياداتنا في جبهة القتال».

وجدنا في صباح اليوم التالي ثلاث سيارات أجرة أمام المنزل تنتظر لتأخذنا إلى يافا. وقد سبقهم اليوغسلاف في شاحنة. أظهرت المعاملة الخصوصية للألمان واليوغسلاف تمييزاً واضحاً. فقد أُبديت معاملة خاصة للألمان، بينما كان العرب ينظرون بازدراء إلى اليوغسلاف، الذين تم توزيعهم عشوائياً في الخارج بين صفّ الجنود في جيشهم. على العكس من ذلك فكل متطوّع ألماني كان قد شغل منصب ضابط بغضّ النظر عن رتبته السابقة في الجيش الألماني.

جلسنا ستة في سيّارة الأجرة خاصتنا، سعيد وأنا واثنان آخران ألمانيان، فيما جلس فلسطيني مُسلّح بجانب السائق. أشار هذا الرجل إلى مناظر الرّيف الممتعة ولفت انتباهنا بشكل خاص إلى أيّ شيء ممكن أن يدلّ على أن حرباً قذرة كانت تجري أحداثها.

كانت المناظر الطبيعية ساحرة. فعلى جانبي الطريق الإسفلتي العريض ترتفع ڤيلاّت بين بساتين البرتقال ومجموعات النخيل، والمنحدرات والوديان للتلال المنخفضة كانت مُفعمة بالخضرة. ذكّرتنا السيارات البريطانية المصفّحة بأن الجوّ ليس جميلاً وهادئاً كما المناظر الطبيعية. مررنا بشاحنة على جانب الطريق كانت قد داست على لغم أرضي، ولم يبدُ أحد مهتماً بإزالة الحطام.

فجأةً خفض الفلسطيني في المقعد الأمامي رأسه ونظر على الرّغم من أنه كان يُحاول أن ينزل تحت الكرسي.

وحذّرنا قائلاً: «أبقوا رؤوسكم منخفضة». عند تقاطع طريق قامت ڤيلا بسياج من الأسلاك الشائكة تحجب الحديقة الأمامية من الشارع. سُدّت منافذ إسمنتية بفتحات الطريق الرئيسي، وبدا هذا المنزل ذو الطابقين المثقل بأكياس الرّمل مع بوابات إسمنتية كأنه حصن يحتمي فيه أحدٌ ما.

«هـذه ڤيـلا حَزبـون Villa Hasboun»، قـال مُرافقنـا. «جعـل المُلاّك اليهـود منها معقلاً». قال بسـرعة وبتوتر ونـزل مختبئاً خلف الباب، «اعقـدوا أصابعكم وادعوا ألاّ يطلقوا علينا النار».

«لا تسـتمعوا إلى ذلك الجبان الرّعديد، ضحك سـعيد ووقف ليلقي نظرة. لم يكن هنـاك أحد فـي الحديقة. ولكن على الشـرفة رأينا فتاة خلف رشـاش تعايننا من خلال منظار ميداني.

وبعد أن غادرنا الڤيلا عاد الفلسطيني لطبيعته، واستعاد رباطة جأشه. استدار بكرسيه وقال: «كل مرّة أمرّ بها من هنا أتشـاهد على روحي. هذا المنزل شوكة في حلقنا ويجب إزالتها. من هنا سـيطر اليهود على الطريق الوحيد بين الرّملة ويافا. لا يمكن الاسـتيلاء على المنزل دون مدفعيّة، ولكن لدينا الآن بعض الألمان معنا، سـوف نرى ماذا يمكن ان يفعلوا».

«أعتقد أنك تحبّ أن تناوب الشـرطة على الدّوريات هنا طوال الوقت»، قال سـعيد باستهزاء.

«ليـس خطيـراً جداً خـلال النهـار»، اعتـرف الحارس القومي الشـجاع. «الشـرطة البريطانية في حركة دائبة باسـتمرار بسـياراتها ودراجاتهـا البخارية، وهم يتدخّلون في الحـال عندمـا يبدأ أي إطـلاق نار. لكـن الجميع هنا وهنـاك اليهود والعرب يعيشـون بسـلام معـاً ويذهبون بهـدوء إلى عملهم. بالتأكيد يحـدث أحياناً أن أحـداً منا أو أحداً منهم يُقتل بواسطة قناص. لكن أثناء الليل! أثناء الليل!».

أشـار سعيد إلى بعض أناس يحملون أسـلحة وهم يعملون في الحقول. قال: «لقد سـمعت إنهم يفعلونهـا في كل مكان. إنها الإشـارة الوحيدة لوجود حرب مسـتعرة - حـرب عصابـات تحت عين الشـرطة، حرب دون جبهة قتـال، تعود للحيـاة فقط أثناء الليـل، عندمـا يُقلّص البريطانيـون دورياتهم إلى أدنى حدّ. أنـا لا ألومهم. لماذا عليهم أن يتركـوا جنودهـم عرضـة لإطلاق نار حرب لا ناقة لهم فيهـا ولا جمل؟ الأفضل أن

نراقب هؤلاء الشعبين المنحدرين من النّسل السّامي ذاته يُقاتل واحدهم الآخر. حسناً، سوف نرى. أنا في الواقع أظنّ أني سأجد هذا النّوع من الحرب موافقاً لميولي. هيه! لم يكن هذا ما أردناه تماماً».

لقد رأى لتوّه صورة عن الحصار العسكري البريطاني الذي يفتش كل السيارات عند دخولها يافا. علينا أن نقف، حيث تم تفتيش سيارتنا بشكل كامل، إنها اللامبالاة النموذجية الشرقية التي أوقعتنا بالتأكيد في هذا الخطر. على الرّغم من ذلك كله فنحن ألمان وأسرى حرب هاربين أيضاً. هل كان ضرورياً جداً أن يرسلونا إلى منطقة بريطانية محتلة، في حين كان في الشمال، حيث الانسحاب البريطاني قد بدأ سابقاً، ثمّة مساحات كبيرة دون حاميات؟

على أية حال، بعد تفتيشنا بشكل كامل تركونا نمرّ. ومثال آخر على اللامبالاة هو اختيار موقع مقرّ القيادة العربي، فبدلاً من تأسيسه في وسط المدينة العربية، حيث سيكون محمياً من خلال الأبنية المجاورة، وضعوه في جَباليا، وهي ضاحية جنوبية مكشوفة بسهولة من قبل المراكز اليهودية وخاصة من قبل برج المراقبة المحصّن.

عامَلَنا العربُ كما لو كنا مُتفرّجين وضيوف أكثر من شركاء في حربهم. أعطونا الطعام، والتبغ، والقهوة، والغرف لننام فيها. لكن ليس لدينا شيء لنفعله إلا أن نتسكّع، وفراغنا المفروض بالقوة لم يكن محبّذاً من قبلنا نظراً لأنه من غير المسموح لنا أن نغادر ساحاتنا. كان هناك بعض التبرير لذلك وهو، كما هو معروف، أنّ الحراس العرب يعدّون كل الغرباء الذين لا يرتدون بزّات خاصة يهوداً ويطلقون النار عليهم بلمحة.

ومع ذلك لم نحصل على بزّاتنا الرسمية، رغم أننا فعلنا أقصى ما يمكن لنقنع المحافظ عادل بيه، محافظ المدينة، وهو عراقي في متوسط العمر، أن يعطينا إياها. وما فعلوه أخيراً كان أنهم أعطونا بعض البزّات الرّسمية الأميركية التي لبسناها مع غطاء للرأس وعقال، إلا أنهم لم يعطونا أسلحة. ومن ناحية ثانية، ومنذ الوقت الذي وُزّعت فيه البدلات علينا، كان علينا أن ننتشر في الليل ونحصل على فرصة رؤية الحرب من

ساحات قريبة. كانت هذه الحرب بعكس أيّة حرب قد رأيناها. كانت مواقع جبهات القتال في خنادق سطحية وخلف جدران المنازل وكتل من الحجارة. لقد كان الإعداد للقتال سيئاً واعتباطياً ولا يمثل جبهة قتال حقيقية على الإطلاق. وتألفت الفرقة العربية في ذلك الوقت في يافا من سبع ألمان، 150 يوغسلافياً، 30 مصرياً، 200 لبناني وسوري. كان بينهم عدد قليل من الفلسطينيين، حيث أن هؤلاء كانوا يفضلون حرباً غير نظامية مع الحرس الوطني، وفيها يمكنهم الإقدام والإحجام ساعة يشاؤون.

لم يكن هناك نظام، ولا شرطة عسكرية، ولا سجل للوحدة، ولا قوائم شخصية ولا يعلم أحد أبداً لأيّة وحدة ينتمي، أو أين كانت الوحدات المختلفة.

ولقد استُغلّ هذا الاضطراب الكبير بطريقة قبيحة. حيث كان الرّجل يُجنّد كمتطوّع، ويستلم سلاحاً، فيُغادر لينضم لوحدته ولا يُرى مرة أخرى أبداً. ثم يعمد إلى بيع بندقيته وبزّته الرّسمية لتاجر مستعد أن يدفع من 250 إلى 300 مارك لبندقيّة أو رشاش. وفيما بعد يتطوّع الرجل نفسه في وحدة أخرى ويلعب اللعبة ذاتها مرّة أخرى – طالما يتم تقديم الأسلحة.

لكن مخزون الأسلحة الآن آخذ بالتناقص. في ذلك الوقت كان هناك فقط 8 رشاشات بريطانية الصنع في كل يافا، ولا تزال هناك دائماً إمكانية لشراء كل نوع من الأسلحة الصغيرة من الفلسطينيين العرب الذين يرتدون ملابس أنيقة، والذين يجدهم المرء جالسين في المقاهي في المدينة القديمة، يحملون المسدسات في أحزمتهم بهيئة عسكرية يُمضون النهار بأكمله يلعبون الدّومينو والنَّرد.

كانت هناك أشياء أخرى للشراء – ومن أناس آخرين. في صباح أحد الأيام توقفت سيارة استطلاع مُصفحة بريطانية أمام منزلنا.

«اللعنة، توميز Tommies جنود بريطانيون!» صاح حسين، وهو ألماني من هامبورغ كان جالساً يقرأ عند نافذة.

اندفعنا لننظر ورأينا ملازماً أول شاباً وعريفاً نزلا من السيارة وسارا نحو بيتنا.

«لـن ينالـوا منا بتلك السـهولة» قال سـعيد، سـاحباً قنبلـة يدوية من تحت فراشـه. «اركضـوا للطابق السـفلي، أنتم الثلاثـة، وانظروا ما يريدون». وقد شـملني في كلامه. «الباقي منكم يذهب ويحضر أي شـيء موجود ليرمي، ثم وزّعوا أنفسكم على الدرج. وإذا كان هنالك من مشكلة في الطابق الأرضي، سنرسل لكم دعمنا من الأعلى».

وبينما كان كل شـيء قد نُظّم في الطابق العلوي، نزلنا لنسـتطلع. حيث نسـتطيع أن نسـمع بوضوح صوت الملازم الأول آتياً من مكتب الرائد.

بدا أنه مع ذلك لم يأتِ ليطلب الاستسلام من حفنة من الألمان. بل أراد أن يتخلّص من السـيّارة المصفحة التي كانت تقف أمام الباب. كان يقول: «سـتغادر وحدتي غداً. علـي أن أتخلّـص مـن هـذه السـيارة على اعتبـار أنـه لا فائدة منهـا، لكن سـيكون من المؤسـف تفجيرها. يمكنـك أخذها بـ 500 جنيه». ترجم العريـف طلب الملازم أول بعربية مُكسّـرة. بلّغنا الرسـالة للطابق العلوي بأنه لا شـيء يدعو للخوف، ولكن حتى نُساعد في محادثة ممتعة كهذه مشينا لداخل مكتب الرائد.

كان عادل بيه يرفع صوته بانفعال حاد.

«مـاذا تتوقـع مني أن أفعل بمركبـة ثقيلة مثل تلك؟»، سـأل. «انتهت صلاحيتها منذ وقـت طويل، إلى جانب ذلك، ليس لها مدفع». أشـار عبر النافذة إلى برج قديم برزت منه فوهة رشاش من طراز بْرِن[1] Bren. «تعال مرة أخرى خلال أسبوع، سأحزم أمري في غضون ذلك».

«في أسبوع، يا سُبحان الله، سأكون قد تركت هذه المنطقة لمنطقة أفضل منها» قال الشـاب مبتسـماً مع شيء من الحسـرة كما أحسـست. «إذا كنت لا تريد السيارة سأبيعها في تل أبيب إلى الهاغاناه. وسـوف يأخذونها بالتأكيد». أشـار للعريف، وعاد المحرك للـدّوران وفي دقيقـة كانوا في طريقهم إلى تل أبيب. فكـرت أنها فكرة جيدة أن أحفظ

(1) البرِن رشاش إنكليزي خفيف يسمّى في العادة Bren Gun استخدمه الجيش البريطاني بكثرة منذ عام 1938 وحتى عام 1991. عياره 303. ويشار إليه أيضاً بقياس 7.5 مم. يستخدم مخازن متطاولة تتسع لـ 30 طلقة، أو حزاماً من 100 طلقة. سرعته تبلغ 500-520 طلقة/ دقيقة.

رقم السيارة في حال قابلناهم مرة أخرى، كان الرقم 466.

بقي البيت المؤجّر في مدينة يافا القديمة وكذلك البيوت المجاورة المليئة بالعائلات العربية دون حماية، والسّبب يعود إلى إهمال القيادة العربية. في هذه السّاحة بالذات كانت مخازن البارود، حيث تم تخزينها في بناء تركي قديم ذي سقف مُقبّب. ذهبنا سعيد وأنا لنفتشه، كان هناك حارس واحد على رأس عمله في حراسة المخزن ضد غارات من قبل الهاغاناه. أدخلنا هذا الرجل عبر باب خشبي ثقيل، وعُلّق عدد من المصابيح دون زجاجات في القبة. على الأرض طُرحت في أقصى درجات الفوضى جميع أنواع مواد وأدوات التدمير: متفجرات، بودرة ألمنيوم، فتائل، متفجرات صغيرة، خراطيش، مخزون كبير من القنابل غير القابلة للتفجير، قنابل يدوية وألغام من مصادر مختلفة واسعة، كانت الأجزاء المفصولة منها، خاصة الفتائل والصّواعق، قد استُخلصت وتمّ إعدادها لصنع قنابل حيّة. عندما دخلنا، كان هناك اثنان من الرجال منهمكين بكشط المتفجرات خارج بعض القنابل اليدوية التركية بواسطة سكاكين. حيث تأرجحت فوق رؤوسهم حُبابة مصباح على سلك بالٍ غير معزول.

«هيا نخرج يا صديقي» قال رفيقي الأشقر بنبرات خوف وسحبني بعيداً من مصيدة الموت المخيفة هذه، رغم أنّ سعيداً لا يرتعب بسهولة. وقال لي: «أظن، بعد ما رأيناه يجب أن نكون متأكدين من الوضع، وأن نعود ونبيّن للشيخ حقائق الأمور».

«هل عاد؟» سألتُه.

«إنّ رحلته التفتيشية تستمرّ أسبوعين، وهو الآن يأخذ قسطاً من الراحة. يجب أن نكون حذرين وإلا سيفلت منا. لا يتورّع لصّ متمرس عن الكذب عندما يقع في مأزق».

«هل كان سارقاً أيضاً؟ لقد أخبرني أحدهم أنه كان بائعاً متجولاً يطوف في الأرض المقدّسة جيئة وذهاباً بحمار محمّل بالخردة».

«نعم، بادئ ذي بدء، لكن ذلك لم يكفِه. لقد كان رجلاً قوياً مفتول العضلات،

وهكذا أصبح سارقاً وقاطع طريق، الأمر الذي جعله على طرف نقيض للدّين والوطنية، ثمّ حدث في بداية الحرب العالمية الثانية، أنّه التحق بمفتي القدس، الذي اضطرّ أخيراً وهـو معـه إلى أن يفرّا إلى ألمانيا. وعندما عاد الحـاج أمين، عاد معه ح. وكوفئ لولائه بلقب الشيخ».

«يبدو أنّ ح. اكتسـب المعرفة والخبرة التي تؤهله ليكون آمر جبهة القتال المركزية خـلال مهنتـه كقاطع طريق وهذا كل ما كان ما يعرفـه. بالله ما هو هدف هذه العمليات المنعزلة ضد المستوطنات اليهودية؟».

«الغنيمة»، قال سعيد.

قرّرنـا أنـه بطريقة مـا يجب أن نقع على الشـيخ ح. الـذي خمّنا أنه سـيرغب في أن يختفـي مرة أخرى بعـد ليلته في الخارج. كانت فكرتنا هـي أن نوقفه في الطريق، وهو إجـراء اعتاد قاطع طريق سـابق أن يتبعه، ووصلنا إلـى تفاهم واضح معه حول توظيف خدماتنا. بلا شـك سـوف يرغب ح. في أن يتملّص من مـسـؤولياته، ولكن كل ما كان عليه عمله هو أن يأمر الرائد العراقي أن يُسـلّحنا ويرسـل بنا إلى الوظائف التي علينا أن نخدم بها.

كانـت غرفـة الأسـلحة فـي منزلنـا متواضعـة، إذا قُورنت بمخـزن البـارود. كانت فـي قبو مباشـرة تحت الغرف التـي نعيش فيها. بُعثـرت بفوضى هائلة فـي هذه الغرفة الصغيرة صناديق مليئة بالذخيرة الحربية من جميع الأنواع والعيارات، أشـرطة طلقات لرشاشات ألمانية لم تكن موجودة، صناديق تحوي ديناميت وتي إن تي TNT، لفافات من فتائل الكتان، أسـلاك إشـارة، أسلحة مساعدة، قفص مليء بالمسدّسات من جميع الأنواع و 11 بندقية كندية.

انتقيتُ بعد بحث دقيق من مخزون المسدسـات مسـدّس سـتار إسپانياً عملياً، لكن سعيداً اختار مسدساً أميركياً ثقيلاً من عيار 450. إنشاً[1].

(1) المقصود بذلك مسدس كولت من عيار 11.43 = (45. مم) ويُعرف هذا الموديل باسم Colt

«إنه يفتح ثقوباً أكبر» كان تعليقه الكالح.

أطلق الرائد صيحة احتجاج عندما بدأنا باستعراض البنادق.

«هذه فقط أسلحة احتياطية» قال مقاطعاً. «نستعيرها من فترة لأخرى عندما نحتاج لبنادق ثم نعيدها إلى المخزن».

لم نكن نرغب في أن نستنزف مستودع الأسلحة لدرجة تسيء لقضية الحرب، وهكذا تركنا له البنادق. وجد الشيخ تصرفنا نحن الألمان غير مُحترم ممّا جعله لا يريدنا أن نعمل معاً بعد الآن. وفقاً لذلك، قام بفصل مجموعتنا بتوزيعنا على كامل قطاعه، حيث بإمكاننا أن نحظى بأقل اتصال ممكن مع بعضنا. وهكذا نُقل رفاقي الستة، كان منهم اثنان فقط ضابطين في الجيش الألماني، كملازمين وقائدي جنود، إلى ست وحدات مختلفة.

أمّا أنا فقد عُيّنت كطبيب ومدير للمشفى العام في مشفى الإرساليات الدينية المسيحية، التي تخدم كمشفى عسكري. وفي الوقت عينه كنتُ المسئول الطبي لكامل جبهة القتال في يافا.

لقد كان رأي الثعلب المخضرم صحيحاً تماماً. كانت طبيعة الألمان أن ينكبّوا بحماس واجتهاد في مهامهم الجديدة الخاصة بتنظيم وإنتاجيّة ممّا لم يكن قائماً في السابق. لم يكن خطأنا أن نجاح جهودنا كان محدوداً، فلقد استغرقنا عدّة أشهر لنعلم أن فيالق الضباط العرب لا تريد أن تتعلّم، وتقوم بتخريب عملنا نتيجة الجهل وعدم الثقة والغيرة، أو «لأنهم يعلمون أكثر».

استغرقنا فترة طويلة لنفهم هذا، وسنستغرق أكثر قبل أن نكفّ عن المحاولة. وأخيراً حزمنا أمرنا فيما يتعلق بنا كمرتزقة بسطاء، نقوم بواجبنا قدر استطاعتنا لكن بالنسبة للحرب فكمغامرة شخصية. عندما سارت الأمور جيداً، اعتبرنا ذلك من الأيام المشهودة، لكننا نعلم جيداً بأن النجاحات الصغيرة للحركة سيقابلها مكافأة مادية. لم

Government. Model 1911 وسعته 7 طلقات.

نستطع أن نتوقع ماذا ستكون الفاتورة، ولكننا لم نرضَ بأي حال أن نقدّم رؤوسنا نتيجة لضيق أفق الآخرين وفشلهم.

* * *

16 - حرب العصابات

بما أني لم أكن فقط العضو الأكبر سناً في مجموعتي والأعلى رتبة بينهم، ولكنني أمتلك أيضاً مأوى في المشفى التي أعمل بها، فقد أصبح مقرّي مكان اجتماع للألمان السبعة الذين يقاتلون في يافا. كانت مستلزمات اجتماعنا من زجاجات الخمور قد تم رفدها بمخزون كبير احتفظت به على الرّف العلوي لخزانة ثيابي. ولكن لحالات الضرورة، فقد احتفظت أيضاً على نفس رف الخزانة خلف زيّ العمل الطبي وبزتين لي، برشّاشين ألمانيّين موديل 34[1]، جاهزين للعمل، مع بعض أحزمة الذخائر الحربية وصندوقاً من القنابل اليدوية.

ودّعنا السنة الماضية ناظرين إلى أسلحتنا، حيث علت وجوهنا فرحة مزيّفة، وتغلّبنا على الخوف الذي يسيطر علينا بصرخة انتصار قلنا فيها وداعاً للسنة الماضية.

«دعونا نشرب نخبة سنة العار، 1948» صاح سعيد. وشرب كأسه دفعة واحدة وحطّمه على الجدار. وعندما سقط متحطماً على الأرض سيطر علينا إحساسٌ من خيبة الأمل.

يجب علينا ألا نرحّب بالسنة الجديدة بالقنابل. آخرون سوف يفعلون ذلك كما كانوا يفعلون دائماً، فلقد تحوّلت حرب العصابات بالتدريج إلى حرب نظامية عندما انسحبت القوات البريطانية. ماذا نعلم نحن المرتزقة من اللعبة التي كانت تُلعب بعيداً على رقعة الشطرنج السياسية؟ سمعنا إشاعات تقول بأن الملك فاروق، أراد أن

(1) ذكرنا طراز هذا الرّشاش سابقاً: MG-34 اختصاراً لعبارة *Maschinengewehr* طراز عام 1934، وعياره: 7.92 X 57 مم.

يدمج شبه جزيرة سيناء بمملكته. والحكومة الانتقالية في الأردن لديها طموحات في فلسطين، وسوريا كانت تُطالب بحصة من تلك المنطقة.

قامت الدّول العربية بتحضيرات مستعجلة للتدخّل في الأرض المقدسة، لكن لا يمكن القيام بأي هجوم قبل انتهاء الانتداب، حيث سيعني ذلك حرباً ضدّ بريطانيا العظمى. علم اليهود بكل طموحات جيرانهم وفعلوا ما كان يجب أن يُفعل بشكل أفضل وباجتهاد أكثر من أعدائهم. فاشتروا أسلحة من كل المصادر المتوفرة، وشكلوا فيالقهم من المقاتلين غير النظاميين، وإضافة إلى ذلك، استنفروا جميع رجالهم ونسائهم القادرين على حمل السّلاح ليكونوا جنوداً فعّالين، ليمكنوا أمّة من مليون نسمة أن تقف مقابل القوات المتحدة لكل العرب.

لكن الحرب المحلّية ما زالت تجري حسب القواعد القديمة، ما زالت حرباً غير نظامية، لكنها قد تطوّرت الآن إلى شكل قذر جداً.

في القدس دُمّرت الوكالة اليهودية جزئياً بالمتفجرات.

تم تجنيد عربي كسائق في القنصلية الأميركية، فاستخدم سيارة خدمته ليفرغ حقيبتين كبيرتين عند الوكالة اليهودية. وقام موظفون عرب آخرون في القنصلية بتزوير وصول إشعارات التسليم، وثمّة ألماني تظاهر بأنه أميركي قام باستلام الحقيبتين. وبعد مُضيّهم بعشر دقائق انفجرت الحقيبتان.

في الثالث من مارس كان دور ڤيلا حَزبون Villa Hasboun. جرت محاولات عديدة لإزالة هذه العلامة اليهودية على طريق الرّملة - يافا. وتم صدّ هجوم ليلي بإراقة الدماء، حيث أغارت عليهم مجموعة مكوّنة من ثلاثة رجال يحملون متفجرات نشروا أنفسهم على طول المنزل، فتم اكتشافهم وأُطلق عليهم النار. سمعتُ بهذه الحادثة عندما كنت في الطريق للبدء بإطلاق الخدمات الصحّية الشخصية في جميع الوحدات ولتركيب التجهيزات الصحية التي سأقوم بتفتيشها فيما بعد. وصلتني أخبار النجاح عندما كنت أسير عبر شوارع يافا في طريقي للقيام بعمل.

رأيت فجأة رأس سعيد الألماني الأشقر يرتفع فوق حشد من العرب، حيث سار مرفوع النفس تبدو عليه أمارات الثقة بالنفس عندما كان يسير على رأس فوج من الحرس. مشى وسط الشارع وفتح له العرب الطريق من الجانبين كليهما.

لمحني جندي المرتزقة[1] *Landsknecht* الألماني العجوز وصاح: «تمّ القضاء على حَزبون»، مُبتسماً ملء وجهه. «لقد سحقناها البارحة».

«أخبرني عنها».

«أوه، لم تكن أبداً بتلك الصعوبة»، قال وبرم نهاية شاربه للأعلى. «كنت أفكّر بالأمر مليّاً، وخلصتُ إلى نتيجة مفادها أنّ علينا أن نقوم بالعملية نهاراً، إذ أن هؤلاء الأشخاص يُطلقون النار دائماً بمُجرّد أن يلمحوا أحداً بعد الظلام. كان عليّ أن أفكر بخدعة جديدة، لأنهم باتوا على علم بالحيل القديمة كلها. كانت بسيطة بشكل كافٍ، حيث حمّلتُ عدّة صناديق من الديناميت في شاحنة قديمة ومددتُ الفتيل عبر فتحة في حجرة القيادة. وهكذا قُدت العربة القديمة بحمولتها من الرَّملة باتجاه يافا، مُرتدياً لباسي المدني بشكل طبيعي، وتحرّك عبد الرّحمن بسرعة أمامي في جيب. وعندما وصلنا إلى تقاطع الطرق بدأتُ أصيح عليه كالمجنون وكأني أريد أن أتجاوز بعربتي القديمة هذه، لكن عبد الرّحمن بقي يسير وسط الطريق ولم يدعني أمر. أمام بيته مُباشرة كنت أقود سيارتي في إثره تماماً. وتوقف كلانا، خرجنا وبدأ بعضنا بشتم الآخر. هو دعاني ابن الكلبة، وأنا قلت له إنه أغبى من حمار. فخرج اليهود من المنزل ليروا ماذا كان يجري وبدأوا بالضحك علينا. في تلك اللحظة ركض عدّة أطفال تبدو عليهم علامات الفقر والتشرد وأمسكوا بأيدينا وبدأوا بالصياح «بقشيش! بقشيش!». فأخرجتُ ملاليم قليلة من جيبي ورميتُ بها فوق رؤوسهم ليتدافعوا عليها، لينتج عن ذلك تبادل الكثير من الشتائم والصياح. ثم صعد كلانا إلى سيارته.. أدار عبد الرّحمن

(1) تعبير تهكّمي بالألمانية، فعبارة «لاندزكنيخت» تعني نوعاً من جنود المشاة المرتزقة الأوروبيين (وخاصة من الألمان) شاع منذ أواخر القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن السادس عشر. ومن خلال متابعة شخصية سعيد الطريفة في هذا الكتاب، يتبيّن أن هذا التشبيه يوفّيه حقّه تماماً.

محرّكه بينما أشعلتُ أنا الفتيل. ثم قفزت للخارج مرة أخرى وركضت باتجاه الجيب بقبضات محكمة لاعناً عبد الرّحمن. ظنّ اليهود أن المسرحية قد بدأت مرة أخرى وبدأوا يمتّعون أنفسهم. ولكن، عوضاً عن ذلك، قفزتُ بسرعة في الجيب وداس عبد الرّحمن على البنزين. لم يكن الشك قد خامرهم إلا بعد برهة فهرعوا إلى رشاشاتهم. في هذه الأثناء كنا خارج مدى الرؤية خلف سياج الصبار، وبعد دقيقتين انفجرت الشاحنة.

«هل نسف المنزل بأكمله؟».

«لا، ليس بعد، إذ أننا لما نظرنا إلى الضرر من ساحة قريبة كانت الواجهة الأمامية كلها قد دُمّرت بما في ذلك الشرفة مع ذلك الرّشاش اللعين».

«من كان مناوباً؟» سألت بعد برهة. لأنني لم أستطع أن أمنع نفسي في التفكير بتلك الفتاة التي رأيتُها هناك عندما أتينا إلى الرَّملة لأول مرة.

«نعم، كانت هي»، قال سعيد. وكأنه قرأ أفكاري.

«خسارة!».

«نعم»، قال سعيد وبدا فجأة أقلّ فخراً بإنجازه مما كان عليه قبل دقيقة مضت. لكن ذلك الجندي ذا القلب لم يكن ليلقي بالاً للعواطف الرّقيقة لوقت طويل، ففي الحال كان عقله المبدع والمرن يفكر بأفكار جديدة وحيلٍ جديدة ليسدّد ضربة مؤذية قدر الإمكان لأعداء العرب.

ذات ليلة بعد عدّة أيام اتصل بي وسألني أن ألاقيه عند المقرّ العام، فقد أراد أن يُخبرني عن شيء فكّر به.

سرنا معاً بالسيارة إلى واحد من الشوارع الضيقة التي تؤدّي إلى الجنوب الغربي للرَّملة، حيث اعتاد العدو من تل أبيب أن يبقيها تحت الحراسة. وهناك أخذني سعيد إلى إصطبل قديم كانوا يحتفظون فيه بالحمير، والآن يجلس عشرات العرب على أرضه يلعبون الدّومينو تحت ضوء الشموع المتراقص. أما حسين، القادم من هامبورغ، فكان

يُدخّن عند الباب.

«هل ذهب الحارس إلى وظيفته؟» سأل سعيد.

«نعم». قال حسين، «وضعتُه مباشرة عند منحنى الطريق حيث يتمتع بمجال رؤية لمدى 2 كيلو متر دون إعاقة».

كنا قد دخنّا نصف دزينة سجائر عندما عاد الحارس جرياً للداخل.

«ثلاث سيارات»، قال.

وثب سعيد بسرعة لدرجة أنه أسقط رُشيشه الذي كان يسنده على شجرة أرضاً.

«أطفئوا الشموع»، تمتم في الإصطبل.

وتم إطفاء الشموع، واتخذ الرجال مواقعهم على الجانب الآخر للطريق في مخبأ مناسب. ربط سعيد وحسين قنابل يدوية في أحزمتهما وسحبا مسدسيهما، وركض حسين إلى منعطف الشارع ليتعرّف إلى السيارات المقتربة.

كانت ليلة بلا قمر مع نجوم تظهر فوق الأشجار. جثم سعيد بجوار جدار الإصطبل عابثاً بصندوق صغير ذي سدادتين فولاذيتين خرجت منه أسلاك كهربائية للخارج. والآن نستطيع سماع الصوت الضعيف للسيارات المقتربة.

«ها قد أتوا»، قال سعيد. «اعقدوا أصابعكم وصلّوا صلاة مودّع. وأنتم، أبقوا رؤوسكم اللعينة للأسفل، أيها الفضوليون»، صاح للعرب عبر الطريق، الذين ظهرت وجوههم الشاحبة من خلال الضوء الخافت فوق الجدار المنخفض الذي امتدّ عبر الطريق.

عاد حسين مُسرعاً من استطلاعه وأخبرنا بأن القافلة، المؤلفة من ثلاث سيارات، ستكون هنا في دقيقة أو اثنتين.

تزايدت جلبة السيارات.

عليّ الاعتراف بأن ركبتَي كانتا ترتجفان والعرق يتدفق من راحتي يديّ.

سار كل شيء كشريط سينمائي بطيء الحركة. أخذ حسين قنبلتين يدويتين من حزامه وأمسكهما بيديه. ثم بدا أنه فكر في شيء آخر، لأنه أخذ رُشيشه من كتفه، ذخّره وعلقه على حزام مجدول عقده فوق كتفه مرة أخرى والفوهة تُشير للأمام. وفيما بعد سحب القنبلتين اليدويتين.

سمعنا من الجانب الآخر للشارع همسات العرب المضطربين. ومنع سعيد نفسه بصعوبة من التلفظ باللعن والسبّ لما سمع. وسوى ذلك، لم تظهر أدنى إشارة تدل على اضطراب أو اهتياج. راقبتُه ينحني خلف جذع شجرة سميك برُشيشه وقنابل يدوية في متناول إحدى يديه، ويده اليمنى تمسك مقبضاً ناتئاً على شكل T من أعلى الصندوق الأسود.

«تمهّل بالقنابل اليدوية، حسين» همس لرفيقه. «حصلنا فقط على أربعة منها وهناك ثلاث سيارات، واحدة لكل منها وواحدة احتياط. أنت تأخذ السيارة الأخيرة، وأنا سآخذ السيارة الأولى. عندما نعدّ رقم واحد ورقم ثلاثة، سنهاجم التي في المنتصف».

«حسناً» قال حسين بهدوء.

«فقط لو أن هؤلاء الحمقى يبقون رؤوسهم للأسفل، مع أنه حقاً لا يهم كثيراً إذا قُطّعوا أشلاءً عندما يبدأ الهرج».

كانت مصابيح السيارات الأمامية، كزوج أصابع متألقة، تتحسّس طريقها في موازاة الأشجار عندما استدارت السيارات حول المنعطف. وخلف اللمبات المتوهجة للسيارة الأمامية توقعتُ، أكثر مما رأيت، الحدود الخارجية للسيارة مشى خلفها ظلان كبيران، مظهراً فقط أضواء توقفهم.

خفضنا رؤوسنا وهمس سعيد: «سيارة مُصفحة» حيث تحرّك ضوء مصابيحها الأمامية بتثاقل، ومن خلفه وحش سداسي العجلات مع برج هجوم صغير دَوّار برز منه مدفع رشاش. وعلى الجدار الفولاذي المظلم كُتبت أرقام بيضاء جداً بحيث أستطيع أن أقرأها في الظلام الرقم 466... «يجب أن نقبض على ذلك الفتى» همس سعيد،

وأمسك على مقبضه بإحكام شديد.

كانت السيارة الثانية قد تجاوزتنا بعدة ياردات عندما ضغط سعيد المقبض إلى الأسفل. استلقينا مُنبسطين على الأرض وترافق ذلك مع صوت زئير مُصمّ للآذان، ورشقتين من الرّصاص تنهمران خارج الطريق. كانت هناك ثانية صمت ثم انهارت أنقاضٌ من الحجارة.

«عليهم!» جَأر سعيد، حيث وثب وسحب مسمار الأمان من القنبلة بأسنانه. ثم رمى بها باتجاه السيارة المصفحة التي بدأت في تلك اللحظة تلفظ النار من بُرجها الهجومي. في هذه الأثناء خرجت صلية رصاص خطاطة حمراء وخضراء من الشقوق الطويلة على الجوانب الفولاذية للشاحنتين. وإذا بواحد من العرب يصرخ من مكان بعيد في الطريق صرخة ترافقت مع أنين وتأوّه.

ثم اندفع حسين باتجاه السيارة الثالثة التي كانت تحترق عندما كانت تتراجع.

كان سعيد الآن قد وصل إلى نقطة خارج مدى إطلاق النار ورمى بقنبلته اليدوية في الفتحة. فانفجرت القنبلة مصدرة دوياً خافتاً داخل الجسم الفولاذي الضخم. ترنّحت السيارة كرجل سكران وتوقف المحرك، وسرعان ما انقطع الإطلاق وانهارت الآلة كثور مريض.

ثار العرب على الجانب المقابل نحو السّيارة بصرخات ابتهاج وأطلقوا عدة طلقات عبر الثقب في البرج في التابوت الفولاذي، قبل أن يُغامروا ويتسلقوا للداخل ويسحبوا الحمولة: مؤن من كل الأنواع، سجائر، ذخائر حربية وأسلحة.

في هذه المرحلة، انشغل سعيد بالسيارة التي في المنتصف والتي حاولت الخروج من بين حطام السيارة المصفحة، لكنها علقت بين الحطام والأشجار. كانت هناك قنبلة لم تنفجر، فصدر صوت انفجار مكتوم آخر وانقطع إطلاق النار.

بدأ العرب الذين نهبوا السيارة المصفحة لتوّهم بالانتباه إلى هذه الشاحنة عندما برزت ماسورة بندقية عبر شق طولي، ببطء، وتثاقل، وكأنها تطيع الأمر الأخير لرغبة جندي ميت.

أطلق الرجل حامل البندقية بشكل مستقيم إلى وسط المهاجمين العرب. فما كان من سعيد إلا أن سحب مسدسه من كتفه وأطلق عدة طلقات نحو العربة المُدرّعة. فجلجلت طلقاته من عيار 9 ملم كحب البازلاء على الفولاذ، ولكن كان هناك أمل بأن تجد إحداها طريقاً عبر فتحة وتُسكت الرّامي أو على الأقل تحرفه عن هدفه.

في غضون ذلك كانت السيارة الثالثة، التي ما زالت تحترق، تشق طريقها باتجاه المنطقة التي دمّر فيها اللغم الطريق، وكان حسين يبحث عن فرصة ليرمي بقنبلته اليدوية. قاد السائق سيارته نحو حفرة اللغم، لتقع فيها بلا حول ولا قوة، فبدأت العجلات الأمامية تدور في الهواء والشاحنة، المثقلة بوزن درعها، ترنّحت كالسّكرى وتوقفت للحظة وكأنها ستنقلب، ولكن أخيراً بدأت العجلات تمسك الأرض بإحكام، وحملت الإطارات المدعّمة الشاحنة لأعلى الجانب الآخر وتابعت سيرها متواريةً عن الأنظار، وبقيت تحترق، في الليل.

هبَّ حسين وركّز اهتمامه على السيارة الثانية، التي ما زالت تطلق. وركض منتصب القامة للأمام، قابضاً على قنبلة يدوية بيده اليمنى. وقد راقبتُه وهو يسحب يده للخلف ويطلق بخفة الرّمانة اليدوية بشكل مُنحنٍ باتجاه الشاحنة، دون التمكن من رؤيتها وهي تتحرّك ببطء عبر الهواء. في تلك اللحظة غيّرت ماسورة بندقية الرّمي الاتجاه، لتخترق صلية رصاص خطاط جسد حسين.

لم يسمع حسين أبداً انفجار قنبلته ولا رأى بندقية عدوه وهي تغير اتجاهها فجأة للأمام. وفجأة تحوّل الليل نهاراً بكتلة نارية هائلة وألسنة لهب ارتفعت في السماء عندما اشتعلت حمولة شاحنة الذخائر.

في اليوم التالي، دُفن الهامبورغي الذي يدعى حسين بمراسم عسكريّة في المقبرة الإسلامية في يافا. وكما كان كلّ من زوجته وولده قد لقيا حتفهما تحت أنقاض هامبورغ، فها هو ذا الآن يسقط مجهول الاسم، وبمقتله مُحي الأثر المتبقي من عائلته.

* * *

17 - قنابل وبيّارات برتقال

بالنسبة للباقي منا نحن الألمان، أو كما ندعو أنفسنا: علي، حسن، سعيد، سلامة، فقد كنا معرّضين للهلاك في أيّة لحظة كحسين الهامبورغي، وكلما مرّ الوقت، أصبحنا مقتنعين أكثر فأكثر بأن هلاكنا كان مسألة وقت فحسب.

ومع ذلك لم أعرف ربيعاً أجمل من ذاك عام 1948 ولا طبيعة أحلى من التي شاهدتها فيه.

عشنا محاطين بأميال من بيّارات البرتقال التي عطّرت بزهرها المنطقة بأكملها.

أعادتني ذاكرتي إلى الثاني عشر من أبريل. كنت قد أُرسلت لأُعالج ضابطاً مريضاً في المركز الرئيسي لجبهة القتال المركزية للصَّرَفند حيث كانت أشجار البرتقال في أوج إزهارها. كانت الصَّرَفند مكاناً صغيراً بين يافا والرّملة، إلى جانب واحد للشارع الرئيسي. كان للبريطانيين هنا مدرسة للضباط، وهي بناء طويل ذو طابقين، يحتوي الآن على مكاتب الهيئة وتجهيزات للضباط، وفي الطابق الأرضي غرفتان كبيرتان بنوافذ مسدودة استخدمت كسجن للمحتجزين السياسيين، وكانت العادة أنه عندما يمرض ضابط ذو أقدميّة أو ذو أهمية سياسية، فإن طبيب الهيئة كان يُرسل لمعالجته في مسكنه الخاص.

هذه المرة كانت مهمتي سهلة. كان الضابط مريضي الوحيد، ولمرة واحدة فقط لم أجده مُحاطاً بحشد من الأقارب أو الأباعد، وبحاجة أيضاً لنصيحة طبية – ولا أُؤجر عليها.

عندما قمت بعمل ما هو ضروري، كانت الساعة في ذلك الحين قد تجاوزت العاشرة، حيث لم أرغب بالعودة إلى يافا في الظلام، لذلك قرّرتُ أن أمضي الليل في مركز القيادة.

أحضروا لي فراشاً وبطانيّات فوق إلى السطح، حيث استلقيت لأنام تحت السّماء المرصّعة بالنجوم، كانت ليلة ربيعية جميلة ومن المؤسف أن أضيّعها في النوم.

كانت تحتي مزرعة برتقال واسعة، في فسحة مستطيلة صغيرة انتصب فيها بناء مركز القيادة مع أشجار البرتقال التي أصبحت تقريباً أعلى من الجدران. وكان عطر زهور البرتقال يفوح من جميع الجهات.

سمعتُ في المنطقة المحيطة وقع طلقات بندقية مفردة، ولكن كان من النادر سماع فرقعة الأسلحة الأوتوماتيكية أو تفجيرات بعيدة لقنبلة يدوية. أستطيع رؤية أنوار الكشافة في المستوطنات اليهودية تضيء الواجهة، ماسحة بشكل نصف دائرة قبل أن تنطفئ. كانت بمثابة الفرقة الموسيقية (الأوركسترا) المعتادة للحرب، وكنتُ أجدها مهدّئة أكثر منها مثيرة.

سمعتُ صوتاً يسألني: «هل أنت نائم الآن؟». كان هذا رامي الرّشاش، الذي استدار في مقعده وكان ينظر إليّ بحدّة.

«لا»، قلت «ما مازلت مستيقظاً».

«ما أجملها من ليلة!» قال حالماً. «جميل جداً فعلاً أن تكون في مهمّة الحراسة. على المرء...» توقف، باحثاً بشكل واضح عن الكلمة الصحيحة ليعبّر عن فكرته.

«نعم»، قلت، «هذا ما علينا عمله». أياً كان ما يُفكر به، كان أي شيء أفضل من قضاء ليلة مُبهجة كهذه في حديث لا معنى له عن الحرب الكريهة.

«هل أنت من مدينة كبيرة في ألمانيا أم من قرية؟».

«من أكبر مدينة، برلين».

«هل برلين كبيرة كالقاهرة».

«أكبر، أكبر بكثير».

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لا يوجد أكبر من القاهرة في أي مكان آخر».

«هل تعرف القاهرة؟»، سألت.

أحببتُ أن أكون قادراً على رؤية تعبير التعجب المحترم على وجهه والذي لا بد انعكس في نبرة صوته. لكن لا يمكن أن أرى أكثر من خيال - واحداً من الأخيلة المجهولة الكثيرة التي تحيط بي.

«لا» قال جواباً لسؤالي. «لكني رأيتُ صوراً لها وسمعت الناس يتحدثون عنها، لا يوجد مدينة أعظم من القاهرة».

قلت لنفسي إنه شيء طبيعي بالنسبة لأي شخص أن يُفكّر بأن ما يحبّه هو أجمل وأعظم من أي شيء آخر. إنّ الأشجار الضخمة في حدائق ألمانيا لهي شيء مختلف تماماً عن بساتين البرتقال ذات الحفيف في فلسطين، وسقسقة عصافيرنا الجريئة تؤدّي لحناً ممتعاً أكثر من أغاني حشرات الزيز ذات الأنغام الرقيقة. وهناك عندما تنظر إلى السماء تحجب عينيك سحابة من دخان المصانع اللعين الذي يغطي مدننا الصناعية الضخمة، إن سحابة الدخان تلك تختلف كثيراً عن صفاء سماوات فلسطين. استلقيتُ وأنا أحلم ولكني غفوتُ في الحال وبقيت أحلم ببرلين.

انقطعت أحلامي بصوت إنذار. لكنها لم تكن الساعة المنبهة على طاولة سريري في برلين. كانت فرقعة لبندقية قريبة تماماً إلي. كان الرامي يطلق النار في الظلام من خلال فتحات السقف - رجل جديد، غالباً، استُبدل مكان رفيقه الذي كان في الخدمة عندما كنتُ نائماً. كل ما استطعت أن أراه في الظلام، كان خيال شخص مجهول خلف بندقيته.

جاءت صيحات تحذير صاخبة من الأسفل. ثم سمعتُ صيحاتٍ مختلطة وخطى تجري بسرعة لأعلى الدرج. كان ثمّة ألمانيان، حسن وعلي، مع نصف دزينة من

العرب، كلهم يلبسون نصف لباسهم، جاؤوا مندفعين للأعلى إلى السطح يحملون أسلحتهم راكضين. ارتموا أرضاً خلف الشرفات البارزة وبدأوا مباشرة بإطلاق النار في الظلام تحتهم.

صاح أحد ما: «أشعل أنوار الكشافة». كان الوقت يضيع قبل أن يسطع المصباح ويكشف بضوئه الأرضية.

«ها هم» صاح صوت.

انجلى ضوء الكشاف عن ثلاث أشباح بشرية، كانوا يتسللون عبر الظلام مع أسلحة مرفوعة عالياً وملتصقة ومثبتة بإحكام بهم. كان كل واحد من الرجال يحجب الضوء عن عينيه بذراعه حيث اندفع إلى مخبأ في أشجار البرتقال. صُبّ وابل من الطلقات عليهم من كل سلاح على السطح، وبدأ الرجال الثلاثة يفرّون متداعين. سحب واحد منهم نفسه للأعلى وتدحرج في الأرض القاحلة وسقط في تجويف. فجأة بدأ رُشيش يرمي من حافة الأرض المقطوعة الشجر. كان هناك صوت شظايا زجاج مُكتسر فوق رؤوسنا. انطفأ الضوء وتلاه سُكون مَقيت.

سمعتُ صوتاً ألمانياً يلعن في الظلام: «نحن الآن في فوضى دموية»، قال. «لقد كانت مُعجزة أنهم تأخروا كثيراً بإرسال فرقة اقتحام لتهاجم المنزل، الذي كان من الممكن أن يأخذوه منذ زمن طويل. كنا قد أخبرنا الشيخ ليقوم بقطع أشجار البرتقال على مساحة خمسمئة ياردة مربعة حول المنزل، ولتأمين المداخل بأسلاك شائكة، وخنادق وألغام. لكنه دائماً لا ينفّذ إلا ما في عقله».

لقد سمعت نوع الشكاوى نفسه من سعيد. لكن قائدنا قال إنه بإبقاء حارس على كل من الزوايا الأربع للأرض المقطوعة الشجر ورشاش على السطح، يُعدّ ذلك حماية كافية، مع أنه كلما نام في الصَّرَفند فهنالك حارسٌ شخصي يناوب أمام باب غرفته ليتأكد من قضائه ليلة جيدة وليتكفل بالأمان لشخصه الذي لا يُعوّض.

صاح حسن: «تعالوا، علينا أن ننزل للأسفل وإلا سيهاجم هؤلاء الأشخاص المنزل

مـرة أخرى». ركضـنا جميعاً للأسـفل باسـتثناء رجليـن، بقيا فوق السـطح ليقوما على سدانة الرّشاش.

صـاح علي بانفعـال قائلاً: «من الأحمق الذي ترك نفاياتـه في منتصف الممر؟» في الوقـت الـذي وقف جامـداً. وتابع قائلاً: «هناك شـاحنة ملعونـة ذات كابين ضخم في الطريق. ربما تخصّ واحداً من السّادة في الهيئة. احذر وخذ طريقاً غير مباشر».

خرجنا بحذر إلى الفناء أمام المنزل. لم تُطلق أيّة طلقة ولم يُرَ أحد في الجوار. لا بد أن الأعـداء قـد أخذوا جرحاهم بعيداً، فقط بقيت جثتـا اثنين من الرجال الموتى حيث سقطا. لكننا وجدنا فيما بعد اثنين من حرّاسنا على حافة الأرض المقطوعة الشجر وقد ذُبحا.

«لا بُدّ أنهم قد فرّوا بعيداً الآن» تمتم حسن. «ولا تفيد إضاعة الوقت بالبحث عنهم في الأرجاء». ثم عاد معي إلى السـطح.

«دعنا نـستنشـق بعض الهواء المنعش» قال. «لا فائدة من محاولة النوم الآن، وعلى كلّ حال ستشرق الشمس عما قليل».

جلسنا على الفراش وأشعلنا سجائر.

«دعنـا نأمل أن الرّجل البدين قد تعلّم أخيراً شـيئاً مـن التجربة. لو لم يكن للحارس عينـان حادّتـان كهاتيـن، لأصبحنا ربما أثراً بعـد عين». لم يكد يُنهي حســن بعد كلامه عندمـا بدأ الفراش يتحـرّك ويتمايل واهتـز المنزل تحتنا وكأن الأرض قـد زُلزلت. ثم ضغط صوت انفجار على طبلتي أذني وشعرت، وكأن يداً حديدية تعصر رئتي وانقلبتُ كدُمية في حفرة عميقة مظلمة، أعمق وأعمق...

بعد ذلك شعرت بماء فاتر يُصبّ فوق وجهي ويدٍ تهزّ كتفي بقسوة.

«ماذا تفعل بإبريق الماء، يا حسـن؟» سألتُ. فتحت عيني ورأيت حسـن وإبريق مائه، وعلى كتفه أشعة الشمس المشرقة تدخل عبر فرجات السـقف.

«أخيراً»، صاح علي. «فكرت أنك تنوي النوم حتى المساء».

كان رأسي يؤلمني لحدّ الانفجار. وعندما وضعتُ يدي لأتحسسه، شعرت بضمادة.

«لقد ربطناه بكم قميصك» قال حسن مشيراً إلى كتفي العاري. «كنا مستعجلين جداً لإيجاد أي شيء آخر. لقد ضربتَ رأسك بالمتراس، تركنا فيه ثقباً صغيراً ليحصل دماغك على بعض الهواء النقي».

«لا تكن غبياً جداً»، قلت - لكن ألم رأسي الحادّ لم يُساعدني على أن أستمتع بالدُّعابة.

يَحسن بك أن تكون مسروراً للغاية بأن المتراس كان هناك. فلولاه كنت في عداد الوفيات الآن عندما انفجرت القنبلة».

«أيّة قنبلة؟»، وحاولت أن أعتصر دماغي لأتذكر الزلزال. إلا أنه لم يكن زلزالاً.

«ماذا يا رجل، لقد كان الصّندوق في الدّهليز».

«ربما كان كذلك» أومأ حسن. لكننا لا نستطيع أن نثبت ذلك الآن. على كلّ حال ليس مهماً».

استويتُ جالساً ونظرت حولي. عشر ياردات خلف الفراش الذي أجلس عليه، وقد وصل السقف مع متراسه المنسوف إلى انقطاع مفاجئ. أستطيع أن أرى في الأسفل بعض الجدران العارية ترتفع فوق جبل من الأنقاض. أصبحت الفسحة بالكامل مملوءة بالحجارة وقطع الكسوة الحجرية. وفي الأسفل كان الرجال يعملون ويُصيحون وهم يعملون.

«إنهم يحفرون لأصدقائهم الذين دفنوهم» قال حسن.

«والسّجناء؟»

«نعم، ولهم أيضاً».

«هل تظن أن أحداً منهم لا يزال على قيد الحياة؟».

هزّ حسن كتفيه بلا مبالاة.

علينا برغم كل ذلك أن نهتم بأنفسنا وعليّ أن أعود إلى يافا. نجحا أخيراً بتشغيل سيارة جيب معطوبة، حيث سرنا بها ببطء إلى يافا وحسن يجلس إلى جانبي.

كان الرّيف هادئاً بشكل تام كالعادة والعمل يجري بسلام على الرّغم من وجود بعض الدّلالات التي لا يُخطئها المرء، بأن الأشياء ليست تماماً كما تبدو. كانت المحاريث تعمل بجدّ في بيّارات البرتقال اليهودية على يسار الطريق، جُزّت الأعشاب الضارّة وصُنعت سدود الريّ الحاجزة للمياه. كان قليل من العمال يحملون البنادق على أكتافهم وبجانب كل مجموعة من المحاريث وقف حارس مع بندقيّة ملقمة. رحت أتخيّل أوضاع العمل المشابهة التي انتشرت قبل 150 سنة في المناطق الغربية لأميركا، حيث كان المزارعون على الحدود يعملون تحت التهديد المستمر لهجمات الهنود الحُمر.

مررنا بفيلا حَزبون التي كانت مدمّرة. كنت أنظر للخلف إليها، عندما بدأ المحرّك يتعطل، وبعد فقدان الوقود عدّة مرات أتينا إلى موقف مباشرة بجانب يهود كانوا يعملون بين أشجار البرتقال.

أعطى الحارس إشارة تحذير، رمى العمّال برفوشهم ومجارفهم في الحال وقبضوا على أسلحتهم. خلال عدة ثوانٍ كانوا جميعاً مختبئين.

«انزل»، صاح حسن حينما قفز خارج الجيب. فتبعتُه.

ثم أتت عدّة طلقات باتجاهنا. أزّت معظم الطلقات فوق رؤوسنا لكن إحداها ضربت العجلة الأمامية وارتدّت القذيفة بعيداً عنها. كان حسن مستلقياً خلف العجلة الأمامية مع السائق العربي مرتعداً بجانبه. أمّا أنا فاستلقيتُ، تقيني إلى حدّ ما العجلات الخلفية.

كان حسن يدفع مسدسه فوق حافة العجلة ويبحث عن هدف. صحتُ عليه ألا

يُطلق. «إذا فعلت سوف يمحوننا عن وجه الأرض»، قلت. فكان حسن واعياً بما يكفي لينزل سلاحه.

أوقف القوم الرّمي أيضاً في بيّارة البرتقال بعد الطلقات القلية الأولى التي أطلقوها كردّة فعل أوليّة. كانوا ينتظرون الآن ليروا إذا كنا سنُظهر أيدينا وبدا أنهم يتناقشون فيما سيفعلونه. كانوا مستلقين مختبئين الواحد بعيداً عن الآخر، ولذا كان عليهم أن يرفعوا أصواتهم لكي يُسمعوا.

«لا، أبداً مهما تكن الظروف»، سمعت أحداً يقول بوضوح بالألمانية. «أراهن أنها واحدة أخرى من حيلهم القذرة مثل حادثة حَزبون، لديهم ديناميت في سيارتهم وهم في الخارج لينسفونا».

«هراء.. الأشخاص يستلقون خلف العجلات. من غير المحتمل أنهم ينوون تفجير أنفسهم، هل يستطيعون؟».

«إنهم متعصّبون. سوف يفجّرون أنفسهم بكل سرور، إذا استطاعوا أن يأخذونا معهم».

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام. بالرغم من وضعنا الذي لا نُحسد عليه. بدا أن لديهم أفكاراً غير واقعية عن تعصبنا.

«ابقَ في الأسفل بحق الله» قال صوت الرجل المحذّر. «يمكن أن تنفجر السيارة في أي لحظة».

كانت اللهجة مميّزة جلية وتحمل نبرة أهل هامبورغ. إذا كان الرجل هامبورغياً فعلاً وأنا برلينياً، وإذا كان الناس هناك يحرثون بستانهم بسلام، وإذا كان علينا أن نكفّ عن المقاومة - وكل منها كان صحيحاً - فقد بدا لي بأن أياً من الجماعتين لا مصلحة لها بتفجير الأخرى. مددتُ يدي بحذر لبندقية السائق التي كانت مرمية في المقعد الخلفي للجيب، تحسستُ سيخ تنظيف البندقية بأصبعي وفككتُ اللولب ببطء وسحبتُه للخارج. ثم ربطتُ منديلي الأبيض - كنا مقاتلين متحضّرين -بالسيخ

ولوّحتُ برايتي، لنظهر أننا نريد أن نُفاوض. كان الجواب طلقة أتت عبر الجانب المطلي بالقصدير للسيارة ومرّت بالقرب من يدي تماماً. فأنزلتُ راية الهدنة بأقصى سرعة ممكنة.

«ما الذي تطلق عليه؟، أيها الأحمق» قال أحدٌ ما. «ألا ترى أنهم يريدون أن يفاوضوا؟».

«هذه خدعة لعينة، أخبرتُك».

عليّ أن أنتهز الفرصة وهكذا صحت: «انظر هنا، نحن كلانا ألمان»، حيث أبرزت الراية البيضاء مرة أخرى.

سمعت أصواتاً عدة تقول بنبرات الدّهشة: «ألماني!».

تشاوروا معاً مرة أخرى، وأخيراً صاح واحد منهم: «ماذا تريد منا؟».

«لا شيء - وتوقفنا عن القتال - الصّدق والله».

كان هناك استراحة أخرى، ثم طالبنا صوتٌ آخر أن نرمي أسلحتنا ونتقدّم للأمام وأيدينا فوق رؤوسنا. أظهر وجهُ حسن عدم ثقته بذلك، والسائق، الذي قمت بترجمة الرسالة له، أومأ مستنكراً، وقال: «لا، ليس هذا ليس صواباً».

صحتُ: «أقترح أن يرسل كل من الطرفين للأمام رجلاً أعزلَ للتفاوض».

«موافق»، قال متحدّثهم بعد مشاورة قصيرة. «سنتقابل عند السياج».

وضعتُ مسدسي خلف العجلة وذهبتُ على قدمي بحذر ورايتي في يدي. لم تُطلق ولا طلقة. درتُ ببطء خلف السيارة وذهبت للأمام بأيدٍ نصف مرفوعة إلى السّياج المشبّك بالأسلاك الذي يطوّق البستان. قابلتُ هناك رجلاً ذا شعر أشقر في حوالي الأربعين أتى إليّ من بين الشجرتين.

«طاب يومك» قلتُ بأدب.

ردَّ الآخر السلام بمجاملة مساوية.

«لقد قمنا بإيقاف القتال»، قلت لأشرح وضعنا.

«نعم»، انسحب، ليتني أصدق ذلك، لكن أنت تعلم...».

«نعم، أنا أعلم».

فكّر للحظة ثم قال: «اسمع الآن. سوف ندع سائقك يصلح السيارة، بينما نبقى أنت وأنا كلانا نقف وظهر كل منا إلى مجموعتنا ويواجه واحدنا الآخر، وهكذا لا أنت ولا أنا يمكن أن يُطلَق عليه النار من الجانب المعاكس دون أن يُضرب الآخر، وأنا واثق جداً بأن جماعتي لا تريد أي إطلاق. إذا كنت واثقاً بنفس القدر من جماعتك، فبإمكانك قبول عرضي».

«سأعطيك كلمة شرف مني»، قلتُ وتصافحت معه عبر شبك السياج. عندما تسلّم الجانبان كلاهما تعليماتهما، انشغل سائقنا بمحرّكه، بينما وقف كلّ من حسن واليهود داخل السياج مرتابين ومتوترين خلف أسلحتهم. كنا نحن الاثنان رهن النوايا السلمية، ابتسم كل منا للآخر بارتباك واضح.

«ماذا حصل لك هذا»، سألني الشخص المقابل لي، مُشيراً إلى ضمادي.

«أثناء هجوم في الصَّرَفند الليلة الماضية». ابتسم متعاطفاً وبالأحرى عاجزاً وقال: «أنا آسف».

«الحرب هي الحرب»، قلتُ، مستخدماً أكثر العبارات ابتذالاً.

«من أين أنت؟» سألني.

«برلين، من نيدَرشونْهاوزن Niederschönhausen».

«مدينة عظيمة، برلين - كانت كذلك على الأقل قبل الحرب».

«ليس لدي شيء ضد هامبورغ» أجبتُ رادّاً على المجاملة. «إذ أن آلستر بافيليون[1]

(1) يلفظ الألمان حرف V فاءً، بينما حرف W يلفظ ف.

Alster Pavilion وريپَربان Rieperbahn هي أشياء يمكن فقط أن نحلم بها اليوم».

«هل تُمانع إذا وضعتُ يدي في جيبي»؟ قال. «أريد أن أخرج سيجارة».

نظرتُ بارتياب إلى الجيب. كان مُسطحاً جداً لأن يحمل مسدساً.

«سأستخدم يدي اليسرى» قال، لدى ملاحظته لمحتي.

أومأتُ بالموافقة.

وصل بجهد بيده اليسرى إلى جيب بنطاله الأيمن وسحب ببطء علبة سجائر مجعّدة، مررّ واحدة لي عبر السياج. كان الحصول على ولاعة من جيب ساعته إجراءاً أقل عسراً.

«هل أنت متطوّع؟» قال حين أشعل سيجارته.

«نعم، إذا جاز التعبير».

«م م - هارب من سجن، لا جواز سفر، لا نقود - مشتاق للوطن».

«لدي بعض النقود، ولكن من نواحٍ أخرى أنت مُحق تماماً».

دخنّا لفترة بصمت. ثم قال: «ألا تظن أنك على الجانب الخطأ؟».

«أنا طبيب، كل ما يهمني هو من أخدم».

«كلهم مثل بعضهم، أنت على الجانب الخطأ». أصرّ بعناد.

«ربما، هذا هو مكاني الآن».

«بإمكانك أن تخدم مع جماعتنا كطبيب. يوجد في منظمتنا بالتأكيد ألمان كُثر كما في القوات العربية. ومسيحيون أيضاً، جنود سابقون»، أضاف لكي يمنع سوء فهمي له[1].

---

(1) المقصود أن هذا الألماني الهامبورغي يعمل مع اليهود، أعداء الألمان بالأمس القريب، ولذا فقد حسب أن ينفر پريتسكِه عندما يدعوه للخدمة مع اليهود، وبين الشعبين من الكراهية والدّماء ما لا يخفى.

خلال هذا الوقت، أنهى سائقنا إصلاح المحرّك وصاح حسن: «حسناً، بإمكاننا أن نقود سيارتنا الآن».

«إلى اللقاء، رفيقي ابن بلدي»، قلتُ مادّاً للخارج يدي عبر السياج، وشكراً جزيلاً».

أمسك بيدي وقال: «ألا تريد أن تقوم بزيارة خاطفة لنا؟ الطريق دائماً مفتوح».

«شكراً على الدّعوة، لكن أنت تعلم، لا أعتقد أن لديّ موهبة على تغير جلدي من يوم ليوم».

«أستطيع أن أفهم ذلك تماماً»، قال بتأمل. «ولكنه شيء يدعو للأسف. حسناً، حظاً طيباً لك».

* * *

18 - الشيخ برتاب

عندما وصلتُ المشفى وجدتُ ستة مرضى جداً بانتظاري. كان بينهم سعيد، الذي وضعتُ له ضمادات في حوادث متنوعة لإصابات غير خطرة، كإصابات طفيفة بطلقة، وجروح سطحية من شظايا قنبلة، أصبح الآن جاهزاً لعملية ثانوية. إذ أن ثمّة قطعة صغيرة من قنبلة يدوية توجد في الجزء العلوي لفخذه وينبغي نزعها. كان مُستهتراً بها كالعادة.

عليّ بادئ الأمر أن أُعنى بالسجناء الخمسة الذين ما زالوا أحياء من الصَّرَفند. كنت سعيداً أن لا أحدَ منهم قد أصيب بشكل خطير. وعندما أتيت لأنظر في وجوه هؤلاء اللصوص ومُستحقي الشنق، كما وُصفوا لي، لم أجد شيئاً إلا الذكاء والأمانة والثقة.

عندما أصبحوا يثقون بي، تحدّث الناس بصراحة بحضوري عن الأسباب التي بسببها قد سُجنوا. عندما كنت أضمّد جراحهم، قالوا لي الكثير من الأشياء ولم يبدُ من الخطورة أن أنقلها إلى الشيخ.

وجدتُ أنه من الصعب أن أصدّق الأسباب التي بيّنوها لي لاعتقالهم. وأحدهم، عبد الرّحمن أبو جراد، شاب في الثامنة والعشرين من عمره ينتمي إلى عائلة معروفة جداً، قد زُجّ في السّجن من قبل الشيخ لأن عائلته كانت داعمة فاعلة للملك عبد الله.

سألتُ نفسي، هل كان هذا سبباً لاعتقال رفيق يقاتل إلى جانبك ضد عدو مشترك؟

أظهر هذا الشاب العربي في محادثته معي عقلانية كبيرة إلى حدّ ما للطموحات المحليّة لمقاتلين عرب مختلفين. سمعت سابقاً عن مقدار جيد من مطالب مصر،

وسوريا، ودولة الأردن الانتقالية. كانت مصر تريد أكبر حصّة يمكن الحصول عليها، بينما رغبت سوريا في أن توسّع منطقتها بدمج الجزء الشمالي من فلسطين إليها، فيما كانت دولة الأردن الانتقالية التي هي أصلاً جزء متمّم لفلسطين، تسعى لاستيعاب المناطق التي توقعوا أن يُطرد اليهود منها عمّا قريب، وهكذا يتم تأسيس الأردن الكبير.

تُعارض طموحات هذه الدول الثلاث مطالب المفتي، الذي كان ينوي أن يؤسّس مملكة خاصة به في فلسطين حالما ينتهي الانتداب. وفي التحليل النهائي، لا يمكن للمرء أن يتغاضى عن الإخوان المسلمين، الذين أسّسوا الآن موطئ قدم ثابت لهم في جميع الدول العربية، وباتوا يهدفون إلى إقامة إمبراطورية عربية موحّدة، تحت راية الإسلام.

كان الشيخ ح.، الذي قاد جبهة القتال الرئيسية، نصيراً قريباً للمفتي، وكان يعتمد كثيراً على شهرته حيث يقوم، كلما أمكن، بطرد أي شخص من العمل من المحتمل أن يقدّم تقريراً عن عجزه للحاج أمين. وهكذا أصبح عدواً لكل أعداء المفتي، وفي وقت واحد وبنفس القدر عدواً لأصدقائه الحميمين والموالين.

كان فوزي القاوقجي[1]، الذي كان قائداً في الشمال، موالياً للسلالة الهاشمية الحاكمة، وقد مُنح لقب باشا من قبل الملك عبد الله. وفي مقابل هذا الامتياز بذل دعمه لسياسة ملك فلسطين.

أمّا في القطاع المقدسي، فقد كان عبد القادر الحُسيني[2] يتولّى قيادة المتطوّعين

(1) فوزي القاوقجي (1890-1977) ضابط سوري ولد في طرابلس بلبنان وخدم في الجيش العثماني بصفة ضابط خيّال وشارك في المعارك ضدّ الإنكليز خلال الحرب العالميّة الأولى في العراق 1914 وفلسطين 1916، لكن أبرز نقطة في حياته العسكريّة والجهاديّة كانت عند توليه قيادة جيش الإنقذ في فلسطين عام 1947. تميّز بشجاعته النّادرة وعروبته، وجنّد الكثير من المتطوعين الفلسطينيين بين عامي 1947 و1948 لقتال المحتلين الصهاينة ومن أهم المعارك التي قادها معركة المالكيّة مع القوات السّوريّة واللبنانيّة في يونيو 1948.

(2) عبد القادر موسى كاظم الحسيني (1910-1948) أحد أشهر المجاهدين دفاعاً عن عروبة

العرب غير النظاميين لمصلحة المفتي، الذي تربطه به صلة القرابة.

كان الموالون لملك الأردن في القطاع المركزي مرتابين مسبقاً، لكن مَن لم يخضع منهم للشيخ كان مصيره السجن. وعلاوةً على ذلك، اعتاد الشيخ ح.، الذي لم يكن سوى مُستبدّ، أن يعتقل أفراداً من عائلات معروفة كرهائن، أو لأهداف ابتزاز.

فعلى سبيل المثال، نمر طوقان[1]، أحد مرضاي الجرحى، كان ابن أخ رئيس بلدية نابلس. وهو ينتمي إلى عائلة محترمة وقويّة وكان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين. عندما سيق إلى اللّدّ كان قد سُحب خارج حافلة من قبل متطوّعين مسلحين وأُحضر إلى المركز الرئيسي للشيخ في الصَّرَفند، حيث أُصيب بانفجار قنبلة الصّندوق.

كانت لحادثة هذه القنبلة نتائج بعيدة الأثر، وأدخلتني فيما بعد بخطر مباشر.

حالما تعافى الرّجال الستة المرضى جزئياً من إصاباتهم، أراد الشيخ أن يُعيدهم تحت مراقبته وأعطى أوامره دون طلب موافقتي، حيث يجب أن يحضروا إلى مقرّه الرئيسي.

في المرّة الأخيرة التي جُدّد فيها الضماد لنمر طوقان، دفع بمظروف تحت الملاءات إلى يدي.

«هلاّ اعتنيت بهذه الرسالة من أجلي؟» همس. «أريدها أن تُسلم إلى الإخوان في يافا»، أضاف بسرعة عندما رأى تردّدي. بدا وكأن هذه التلميحة الأخيرة توحي لي بوجود خطر أعظم من مجرد طلب لتسليم رسالة. إذا كانت الرسالة نتاج أي عمل

فلسطين في وجه الهجمة الصّهيونيّة، وخاصة بعد قرار التقسيم في 29 نوفمبر 1947، فقام بعمليات هجومية على المستوطنين المتواجدين في محيط القدس الشريف، ومن أنصع وقائعه معركة صوريف ومعركة بيت سوريك ورام الله. استشهد في قرية القسطل القريبة من القدس، بعد أن قاد معركة ضد العصابات الصهيونيّة لمدة ثمانية أيام.

(1) نمر طوقان الشقيق الأصغر للشاعرين إبراهيم طوقان وفدوى طوقان، وآل طوقان من أشهر عائلات نابلس. توفي في لبنان عام 1963 في حادثة سقوط طائرة صديقه رجل الأعمال اللبناني إميل البستاني.

من قبل الإخوان، فسوف يبحث الشيخ المرتاب غالباً ليتحقق عبر أيّ مصدر قد تسلّم الإخوان المعلومات. ومع ذلك، كنت مُستعداً تماماً لمساعدة مريضي، حيث تعلّمت أن أمقت الشيخ لصفاته السيئة، لأنه عديم الضمير، ولخداعه المتواصل.

ربما حدا بي تحاملي على هذا الرجل إلى أن أفقد حسّ الحذر. على أيّ حال، دسستُ الرّسالة في طرف كمّي، وعندما واتتني الفرصة، ذهبت لأبحث عن العنوان في المدينة القديمة. قادني طريقي إلى زقاق منعطف، عبر مدخل يُفضي إلى نفق، ومن ثم إلى فناء مُعتم، ومررتُ بحارس أشعث حتى وجدت نفسي أخيراً في حجرة مجلس إدارة اللجنة المحلية.

وكما نصح نمر طوقان، سألت الخادم عن الرئيس، الشيخ توفيق فاخوري.

أتى لمقابلتي رجل طويل ونحيل يرتدي قفطاناً سابغاً، وكانت عيناه تفيضان شدّةً. عندما قرأ الرسالة قال: «والله! لقد جلبتَ لنا أنباءً سعيدة. كنا نبحث عن الأخ نمر منذ ثلاثة أسابيع، واعتقدنا نحن وعائلته أنه قد خُطف من قبل الهاغاناه. لم نتوقع أن الشيخ قد أمسك به كسجين».

ثم شرح لي بعدها بأنه لا يستطيع أن يتّخذ أي قرار بمبادرة شخصية منه. يجب أن تُناقش المسألة بجلسة سرية للجنة التنفيذية، لكنه سيبعث حالاً برسول ليجتمع الأعضاء الستة. دعاني لأحضر الجلسة، لكني رفضت، واعداً على أيّ حال بأن آتي في المساء لأعرف ما حدث.

عندما أتيتُ مرة أخرى استقبلني الشيخ توفيق مباشرة. تحدّث بنبرات ملؤها الوقار: «تحدّثنا عن كامل القضية، وسنكون ممتنين إذا أخبرت الأخ نمر بأنه سيكون حرّاً قريباً».

سيُعتق نمر طوقان، ورقبتي الآن باتت في الطوق.

بعد أربعة أيام، وبعد الظهر بفترة قصيرة تماماً عندما كنت في المقرّ الرئيسي للسجناء الجرحى، كانت هنالك ثلاث سيارات مسلحة تنتمي إلى قوّة حرس الحدود الأردنية

قد تهيأت حول البناء ومدافعها مُصوّبة إلى النوافذ.

خطى ملازم أول وثلاثة جنود بالزيّ البريطاني يلبسون الشماغ الأحمر المجدول بالأبيض خارج باب البرج وساروا للداخل عبر المدخل.

«أريد أن أتحدّث مع الشيخ ح.»، صاح الضابط بأحد المتفرجين، الذي أشار مباشرة إلى غرفة الشيخ. حاول الحارس أمام باب الشيخ، الذي انعزل سيّده ليأخذ قيلولته، أن يسدّ الطريق على المتطفلين، لكن الجنود أوضحوا له بشكل كامل أنه من الأفضل له ألاّ يقوم بذلك.

سار الضابط إلى الغرفة دون أن يقرع الأبواب. بعد عدّة دقائق ظهر الشيخ ح. مُرتدياً نصف ملابسه وحافي القدمين في الدهليز، ودون أن يخفي انزعاجه، أعطى أمراً بتسليم السجناء إلى الملازم أول. إن لغة المدفع، حتى وهو صامت، يفهما الأشخاص عديمو الإحساس مثل ح.

بعد أن أصبح مرضاي أحراراً بذلك الشكل. لم يعد لي عمل في المركز الرئيسي، لكن في أحد الأيام تلقيتُ أوامر واضحة ومؤكدة بأن أحضر بنفسي إلى الشيخ في الصَّرَفند.

كانت مقدّمة مسرحية العنف الصغيرة التي وقعت فيما بعد، قد تسبّب بها رفيقي ذو الشعر الأشقر سعيد، أظرف مرضاي، الذي كان يتسبّب دوماً بحدوث مشاكل بشكل أو بآخر.

كلما كنت في فراغ، كنت معتاداً على الجلوس مع سعيد. لم يكن رجل المناقشات الجادّة، لكن كان لديه مخزون لا ينضب من الأجوبة البارعة والنوادر التي كان يسلّينا بها طوال الوقت. كان الألمان الآخرون، واليوغسلاف، وكذلك الشراكسة، والمتطوعون العرب، يستمتعون بصحبته تماماً كما أستمتع أنا. وكلما حاولت، وغالباً ما فعلت، أن أجعله يُخبرني عن أصله وماضيه، يتجاهل أسئلتي ببساطة. كان سعيد على الدوام يسعى للاستفادة مني ومن أي شخص آخر. البارحة والغد لا يعنيان له

شيئاً، لكنه يعيش لليوم واليوم فقط. لكنه اليوم تجاوز الحدّ في الاستمتاع، حتى أنّ ذلك كلّفني مخزوني الكامل من البراندي.

في اليوم الذي استلمتُ فيه رسالتي لأذهب إلى الشيخ ح.، كنت في شجار مع سعيد، الذي وجدته يجلس على طاولة الكتابة خاصتي مع زجاجة براندي فارغة إلى ثلاثة أرباعها أمامه. كنت ناوياً أن أحتفظ بهذه الزجاجة، زجاجتي الأخيرة، للحالات الطارئة، والآن انتهت تقريباً.

«ماذا تعني بأخذك للزجاجة الأخيرة من خزانتي؟» قلت. كنت منزعجاً جداً من تصرّفه الاستبدادي، الذي تجاوز حدود المزاح.

«لا تمتعض يا صديقي» قال بهدوء وأخذ جرعة كبيرة. إنه سيء من أجل ضغط دمك. خلال نصف ساعة سيكون لدينا ست زجاجات هنا، لقد اتصلت لتوّي بحسن وعلي وكمال، وأخبرتهم أن يأتوا إلى هنا مع زجاجتين مع كل واحد منهم. ومن ذلك العدد لا بد أنك ستكون قادراً على الاحتفاظ بزجاجة واحدة على الأقل للحالات الطارئة. اشرب الآن ما تبقى من هذه الزجاجة، وإلا لن ترى مزيداً منها».

كان هناك نقرٌ على الباب.

«ادخل». قلت، ودخل جندي من المقرّ العام داخل الغرفة.

«أمر من الشيخ ح.» قال. «عليك أن تأتي في الحال إلى المقرّ العام».

«ما الأمر؟ هل هو مريض؟» سألتُ بنبرة عادية.

«لا».

هنا أصغى سعيد بانتباه شديد وقال: «إذن لمَ أرسلك إلى هنا بدل الاتصال؟».

«أُمرت أن أُحضر الطبيب في الحال. قال الشيخ إن الأمر طارئٌ جداً».

«هناك شيء مريب حول هذا» قال سعيد بالألمانية. لا تذهب. انتظر هنا للحظة».

قلت للجندي: «أخبر الشيخ أنني مشغول الآن. سآتي فيما بعد».

«لكن الشيخ قال...».

«ألا تستطيع أن تسمع؟» وبّخ سعيد الرجل. «عُد وانقل لشيخك رسالة الطبيب».

«أكثر من مشكوك فيه» أكمل عندما ذهب الجندي. ثم نظر إليّ بحدّة وقال: «الآن اعترف كولد صالح، ما الأذى الذي اقترفته ولا يعرف عنه أبوك؟».

إلى ذلك الوقت لم أكن قد قلت شيئاً لرفيقي عن الجزء الذي لعبتُه بإطلاق سراح السجناء. لكن الآن عليّ أن أعترف بكل شيء اعترافاً كاملاً. استمع سعيد بانتباه وصفّر عدة مرات عبر أسنانه.

«آها!» قال عندما انتهيت. «يبدو وكأن شخصاً ما قد وشى بك، والثعلب العجوز قادر الآن على عمل شيء فعلاً. أنت ترى أنها ليست مُجرّد مسألة انتزاع عدد من أعدائه الشخصيين من تحت أنفه، الشيء الذي أدى بفقدانه عدة جنيهات كأموال فدية، لكن الشباب الذين حُرّروا سيكونون الآن في الخارج من أجل دمه، بالتأكيد!».

«تعجّبت مَن الذي وشى بي؟»، قلت. ليس للإخوان المسلمين أي مصلحة أكثر من إطلاق سراح السجناء أنفسهم، ليكافئوا تعاوني معهم بأن يشوا بي حول ذلك.

بعد برهة قال سعيد: «هناك ثلاثة احتمالات: إما أنّ هناك جاسوساً في واحد من الأحزاب الأخرى في جماعة الإخوان المسلمين، أو أنّ واحداً من المناوئين السرّيين للشيخ قد أخبره القصة نتيجة حقد لكي يوحي له بأن هناك خونة في فيلق ضباطه. أو، ثالثاً، روى السجناء المطلق سراحهم الحادثة بالتفصيل إلى أقاربهم الكثر، ومنهم انتشر إلى الأصدقاء والجيران، وفي غضون يومين مئات عديدة من الناس سيعرفون عنه كل شيء. ستكون معجزة إذا لم يكن بينهم يهوذا الخائن».

«إن كان الأمر خيراً أو شراً فعليّ أن أذهب إليه»، قلت، وأنا بغاية القلق. «إذا كان يعرف الحقيقة فإنه قادر على إرسال اللواء بأكمله هنا ليعتقلني».

«نعم، وبعدها؟» قال رفيقي بابتسامة المستهزئ. «لن يقف المئة وخمسون بوغسلافياً مكتوفي الأيدي بالتأكيد، سوف ينضمون إلينا بسرعة. سيفكّر المصريون

والعراقيـون مرتين قبل أن يفعلوا أي شـيء. والباقي، هـه!». طردهم بمنتهى الاحتقار. «على أيّة حال سأخبر أحمد بأن يأتي أيضاً». أمـسك بالسـماعة، قائلاً، أثناء قيامه بذلك: «سيصـل الآخرون في أيّة لحظة مع الزجاجات، ثم سنكون نحن السـتة جميعاً هنا».

أنهى سـعيد لتوّه حديثه مع أحمد، عندما دخلت سـيارة جيپ داخـل الفناء. خرج ملازم أول فلسـطيـني مـع ثلاثة جنود، يحملـون كلهم بنادق. دخلـوا المنزل وصعدوا الدرج، قبض سعيد على عصاه، وهرع إلى الباب.

وإذا بالباب يقرع: فقلت: «ادخل»، ودخل الرجال الأربعة وظهروا أنهم غير واثقين مـن أنفسـهم وتوقفوا بتـردّد. فرّغ الملازم أول مـا في جعبته قائلاً: «لـدي تعليمات أن أُحضـرك إلى المقر الرئيسـي سـلامة». قال كلامه هذا بكل ارتبـاك، وكان واضحاً عدم ارتياحه لمهمته. «حسنٌ، ولمَ هذه الجلبة؟» سألت مُشيراً إلى الجنود الثلاثة المسلحين. «أرسلتُ رسـالةً له من قبل لأقول أنني ما زلت مشغولاً وسآتي فيما بعد».

«لكن الشيخ ح. يُصر على قدومك في الحال...». «الآن استمع إلي، أيها الشاب»، قال سـعيد، عندما مشى مباشـرة إلـى الضابط، مائلاً علـى عصاه وناظراً للأسـفل من ارتفاعه الكبير إلى الرجال الأربعة ذوي الأحجام الصغيرة. «إذا قال الطبيب إنه سيأتي فيما بعد، فانه سيأتي فيما بعد. فهمتم؟».

قـدّم الضـابـط التحية واسـتدار. فتبعه واحـد من الرجـال الثلاثة فـي الدّهليز. لكن الاثنين الآخرين بقيا بعناد حيث وقفا وحملقا بنا بغضـب.

«ألا تسـتطيعان أن تسمعا، أيها السـفيهان؟ اخرجا، أقول لكما». وهَوَت عصاه التي يمشـي بها على رأس واحد مـن الجنديـن النحيلين، «اخرج! اخـرج!» وكل مرة يقول فيها «اخرج»، كان يُؤكد معناه بضربة بعصاه. تراجع الجنديان أمام شـدّة وغضب ذلك المغولـي. «هـذا كل ما لدينا!» قال سـعيد وهو يضـرب الباب بعنف خلـف الرجلين. «والآن إذا لـم يأتِ دوائي في الحال، سأُظهر وجهي الآخر فعلاً».

راقبتُ المفرزة التي أرسلت لاعتقالي تركب سيارة الجيپ وتمضي.

وصـل الألمان الأربعة فـي الحال، واحداً تلو الآخر، وقد أحضروا معهم زجاجات البراندي الســتّ التي وعدوا بها. «ها هو ذا مخزونك للطوارئ، أيها المحتاط لأمره!» قال سعيد، مُناولاً إيّاي إحدى الزجاجات.

بينـما كان كـؤوس الشـراب تدار جلسـنا علـي وأنا بجانــب النافـذة لنراقب مجيء المفرزة التالية. كان لدينا بعض الوقت للانتظار، وفي الحقيقة استغرق الشيخ ساعتين ليتخذ إجراءً واسع النطاق.

عندما استلم سعيد السيارة المصفحة رقم 466 لم يحسب أنها ستُستخدم لاعتقالي، لكن يبدو أنه منذ أن أتت سـيارة قوة حرس الحدود المصفحة ونقلت الســجناء بالقوة، فقد تنبه الشيخ فجأة لفائدة هكذا شاحنات رقم 466، ولا بدّ أنه قد وضع يده عليها منذ القضـية، لأنها قد أتـت هنا متبوعة بثلاث شـاحنات مدجّجة بالجنود.

«أخـرج الرّشاشـات» صـاح سـعيد. فأخرجناها حســن وأنا مـن الخزانـة، لقّمناها ووضعناهـا علـى مقعد النافذة. بينما جرَّ كمال صـنـدوق القنابل اليدوية، وفتح الغطاء، ووضعه بيننا.

«ليحضر لي أحدكم سـترتي وحزامي»، قال سـعيد بهدوء، وبينما كانت الســيارات تتوقف في الفناء، بادر سـعيد الذي لم يكن يرتدي شـيئاً إلا سـروالاً تحتياً ذا ثقب في مقعدتـه وخفّيـن، إلـى ارتداء سـترته وثبّـت حزامه مع مسـدس في قراب. لـو لم تكن الأمور خطيرة إلى أقصى حد، لكنا انفجرنا من الضحك لدى النظر إليه.

وقفت الســيارة المســلّحة مباشـرة تحـت النافذة، وقفـز الجنود خارج الشــاحنات ووقفـوا حولهـا. بدا أنهم غير راضيــن بأن يطيعوا أوامر ضابطهم الـذي كان يُحاول أن يجرّهـم إلـى نوع من القتـال. أخيراً استســلم وتركهم يقفون حيث كانـوا، ثم تقدّم إلى باب المـنزل.

لا شـي خطير لدرجة كافية ليمسـح ابتسـامة وجه سعيد. خطى إلى الشرفة ونظر حول المنظر بابتسامة وقحة.

«انتباه!» صاح مُرعداً. تصلّب الجنود للأمر ونظروا للأعلى إلى المارد الأشقر. حتى الضابط نسي أنه كان يهمّ بالدّخول إلى المنزل.

«إذا تحرّك أي منكم، سوف نمزّقه إرباً بحيث لن تتعرف عليه أمه الحقيقية». أخذ نفساً عميقاً، نفخ صدره، ووقف وقبضتاه على أوراكه. «مفهوم؟ جيّد جداً. لدي الآن شيء آخر لأقوله لكم. إذا كنتم أيها الجبناء تسعون الآن لتزويد مواقعكم على الجبهة بالرّجال فإن حربكم ستكون نصف رابحة. لكنكم لستم جنوداً على الإطلاق، أنتم فقط عصابة نهب. أرسلنا المفتي هنا لنساعدكم، لكن بدلاً من أن تكونوا ممتنين لنا لمساعدتكم على الانتصار بالحرب، والتي في حقيقة الأمر لا تعنينا على الإطلاق، تسرعون إلى هنا وتريدون اعتقال الطبيب. كنتم كل هذا الوقت تتعلمون الكثير من الأشياء المفيدة، لكنكم مغرورون جداً حتى أنكم لا تريدون أن تستمعوا لما يُقال لكم».

وترك فاصلاً مدروساً ليجعل كلماته تؤثر فيهم. «والآن، عودوا إلى المنزل وأخبروا رئيسكم اللصّ الصغير بأن الطبيب سيأتي عندما يناسبه، وليس عندما يُؤمر بذلك. انصراف!».

وهكذا كان. صعدوا بصمت إلى سيارتهم ومضوا.

«أحسنت»، قال حسن بامتنان، «كان ذلك صاروخاً حقيقياً».

«لا تبدأ بالكلام الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع، لكن افتح آخر زجاجتين»، وغرق سعيد في كرسيه بتأوّه.

كان يثير ني تأثير الكحول إلى حدّ الغضب، حتى أنني لم أكن أهتم بما أفعل، وحالما فتحتُ الزجاجة الأخيرة، قلت: «سأذهب فوراً الآن إلى المقرّ العام وأسأل هذا الوغد لماذا يريدني».

«ولمَ لا؟» قال سعيد بطريقة جافة، «سآتي معك».

كطبيبه، كان عليّ أن أرسله إلى السرير، ولكن كرفيقه أومأتُ شاكراً.

نظر سعيد حوله إلى الآخرين.

«ماذا عنك، حسن؟».

أومأ حسن بالموافقة.

«ثلاثة يكفي» قرّر سعيد ومضى إلى غرفته ليكسو نصفه الأسفل.

في غضون ذلك أمرتُ بتجهيز الجيب. ثبتنا مسدساتنا في أماكنها وعلقنا على أكتافنا رُشيشات[1]، كما تجهّز حسن للطوارئ بتخزين قنبلتين في جيوب بنطاله.

عندما وصلنا إلى المقرّ العام لم نعطِ الشيخ أي وقت ليُفكر بنقلته التالية، بل اندفعنا متجاوزين الحارس الذي على بابه ودخلنا الغرفة دون قرع.

نظرت إلينا ثلاثة أزواج من العيون بتعبير دهشة ممزوج مع الإزعاج. كان قائدنا، الذي ارتدى جلاّبية، يستلقي حافي القدمين على سريره ويدخّن نرجيلة. وقد جلس بجانبه على الكرسي زوج من شيوخ البدو العابسين، كانا بلا شك يناقشان معه صفقة غير ذات قيمة.

«أردتَ أن تتحدّث معي، ح.» قلتُ له، عندما أتيت ووقفت، بكل تحدٍ، قريباً خلف السرير.

«لكن عزيزي سلامة، لم تكن المسألة مستعجلة جداً لهذه الدرجة.. وأنت لا تحتاج إلى أن تحضر معك حارساً شخصياً». ثم سحب المخلوق الضخم نفسه، نهض من السرير، وصافح كل واحد منا، وكأننا كنا أصدقاء قدماء مقرّبون لم يرنا منذ وقت طويل.

---

(1) الفارق بين الرُّشيش والرّشاش هو أنّ الرّشيش سلاح صغير الحجم ويستخدم عيار الطلقات الخاصة بالمسدسات، أي 9mm بالنسبة للأسلحة الأوروبيّة، و 45. إنشاً بالنسبة للأسلحة الأميركيّة. والعبارة الألمانيّة لوصف هذا النوع من الأسلحة هي: MP اختصاراً لعبارة Maschinenpistole التي تعني حرفياً: مسدس رشاش. وفي الإنكليزية: Sub Machine Gun (اختصارها SMG)، وفي الإيطالية Pistola Mitraglia (اختصارها PM)، وفي الفرنسية: Pistolet Mitrailleur.

أعدت: «أردتَ أن تتحدث معي».

«تعال، تعال. لماذا لا تتحلّى بالصبر قليلاً؟ يجب ألا تحرمني سعادة رؤية أصدقائي الألمان تحت سقفي. لن أهمل واجباتي كمُضيف لشيء تافه مثل هذا».

رنّ جرساً ليحضروا له القهوة وسألنا كيف كنا، وعمّا لدينا من أخبار عن وطننا، وكيف حال جرح سعيد، وكيف هي الأمور في جبهة القتال وفي المشفى.

«ولأي سبب...» أصررتُ على موقفي، ضجراً من تمثيله.

«أوه، نعم. مجرد شيء تافه. بالطبع أعلم أنه كان هراءً، لكن هناك إشاعات حقودة كثيرة جداً بين الناس السيئين الذين يتمنّون أن يُقوّضوا الثقة المتبادلة بيننا، لكي يحطموا وحدتنا العربية المجيدة».

مدّ يده السّمينة بثقة فوق ركبتي، ونظر إلي بشدة بعينيه الصغيرتين الزرقاوين الزجاجيتين.

«سأقول لك». تابع مع تنهيدة. «أخبرني أحدهم بأن لك صلةً بإطلاق سراح المجرمين. كما قلت لك، لم أصدّق أبداً ولا كلمة من ذلك. إنه بالتأكيد هُراء، سخيف. سألت نفسي، كيف يمكن أن تورّط نفسك في عمل كهذا؟ ما الفائدة التي تجنيها بخيانة شيخك الذي كان لك كأبيك الحقيقي؟ ألم أفعل هذا دائماً، يا أصدقائي؟» نظر إلى البدويين للتصديق على كلامه، اللذين وافقاه بإيماءات واضحة.

«كيف سمعت رواية كهذه؟»، سألتُ، بغرض أن أكتشف إذا كانت لديه أيّة معلومة حقيقية أو أنه استمع إلى إشاعات فقط.

«رآك أحدهم تذهب في الظلام إلى منزل الإخوان المسلمين، الذين كانوا مسؤولين عن الهجوم الجبان عليّ». وضع رأسه على جانب واحد وثبّت عينيه المنتفختين علي، حيث انتظرني لأردّ.

لم أكن لأقول الحقيقة لهذا الماكر الكذاب.

«كمـا تعلـم، عزيـزي ح.». قلـت، ملائماً نبرتـي لـنبرته: «كنـت مرتبطاً مـع جماعة الإخـوان المسـلمين في القاهـرة لننضـمّ إلى كفاحكم مـن أجل الحريـة. وقد فوّضني بعـض الأعضـاء في مركـز القاهرة أن أنقل رسـالة تحيّة إلى إخوانهم فـي يافا، ونفّذتُ المهمة».

كان هذا الإيضـاح كاذباً تماماً، ولكن التزاماً بقواعد التعامل الشـرقي، الذي يسـمح لأيـة مبالغـة بأن تمـرّ دون اعتـراض، إذا كانت تفي بالغـرض أو على الأقل لا تسـبّب الأذى، فقبلها الشـيخ مع تنهيدة راحة.

«أرأيتـم، يـا أصدقائـي. ألم أُخبركم بأن صديقي سـلامة سـيوضح في الحال سـوء الفهم؟ بالله ونبيه، لم أصـدق أبداً كلمة من القصـة – ولا كلمة، عزيزي سلامة».

* * *

19 - الهروب من يافا

حدثت الأشياء كما كان يُفترض لها أن تحدث في ظل قيادة كتلك.

فبنهاية أبريل كان القتال في يافا قد توقف تماماً. كانت المدينة مهجورة تقريباً، أقل من عُشر الـ 80,000 من السّكان بقوا في منازلهم، وحتى هذه البقية كانت تحاول بكل الوسائل الممكنة الخروج من المدينة. كان خوفهم الشديد من أبناء البلد الذي راحوا يستحثونهم على أن يُغادروا منازلهم وممتلكاتهم، لا يقلّ عن خوفهم من الاحتلال الوشيك للمدينة من قبل المحاصِرين اليهود. علاوة على ذلك كان اللصوص، الأكثر خطراً من أيّة قوة احتلال، كانوا يجولون في المدينة زرافات ووحداناً - ينهبون ويقتلون.

استُغلّ عجز وشقاق وغيرة القادة العرب من بعضهم بشكل ذكي من قبل اليهود وسط الفوضى العارمة، حيث قاموا باحتلال ضواحي يافا بأكملها وتحصينها. كانوا يشقون طريقهم للأمام جنوباً نحو المدينة، وساعدت إحدى مزايا هذه الحرب الجزئية الجواسيس، من الجانب الآخر، في جمع ونقل المعلومات بشكل سريع وآمن. كان نظام الهاتف أثناء هذه الفترة كلها في كل مكان في فلسطين تحت نفوذ الانتداب، ولم يكن هناك من صعوبة بالتّخابر بين تل أبيب ويافا. ولعدّة أسابيع تزايدت القوة الناريّة للقوات اليهودية بشكل مستمر، فكانوا يتمتعون بتفوّق في المدفعية بشكل ملحوظ، وأمّا مدافعهم الهاون الثقيلة التي قصفوا بها يافا، أحياناً لساعات متتالية معاً، فكان لها تأثير معنوي كبير.

ولمقاومتهم، نُصبت بطاريات الصواريخ على جانبنا. «أعطِ الألماني صندوق

صفيح وسيصنع منه مدفعاً» كان شعاراً في فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، عندما كان هناك اتجاه لتدمير القدرة الصناعيّة الألمانيّة بأكملها. قام ملازمنا الأول كمال، الذي كان في حياته المدنية كيميائياً لدى شركة تُصنّع مواداً متفجرة، وكان مصاباً باضطرابات نفسية بسبب فقدان عائلته في ڤينا، قام بمُبادرة شخصية، بإنشاء نوع من المختبرات الكيميائية التي تشبه مطابخ السحرة، وفيها وبمساعدة بعض الحرفيين العرب، صنع صواريخ من رقائق قذائف ألمانية قديمة تعمل بتأثير مواد متفجرة مركبة من قبله. استفاد لفترة من استخدامها بشكل فعال ضد تل أبيب، ولكن عندما استُنزف مخزونه من القذائف والمواد الكيماوية لم يعد يستطيع نابغتنا المصاب بانفصام الشخصية صناعة المزيد من الصواريخ.

بمعزل عن اللصوص، نادراً ما كان هناك رجال في يافا قادرون على حمل الأسلحة. وقبل أن تنسحب إدارة الشرطة البريطانية كانت قد سلّحت رجال الشرطة في ثمانين مدينة عربية ببنادق أوتوماتيكية. كان بإمكان ذلك أن يعني تعزيزاً للّواء المحطم هو بأمسّ الحاجة إليه، لولا أنّ رجال الشرطة المسلحين حديثاً سرعان ما اختفوا مع أسلحتهم.

وقد تم القيام بمحاولة متأخرة للتحقق من تدفق الفارين من التجنيد واللاجئين، وذلك بمنع السكان من مغادرة يافا. سُمحت الاستثناءات فقط في حالات طارئة وكانت مُرخصة فقط من قبل اللجنة العربية العليا. كان هذا في حدّ ذاته إجراءً عملياً، حيث كان هناك طريق واحد فقط يقود إلى خارج المدينة يمكن السيطرة عليه بسهولة. لكن سيل اللاجئين استمرّ بالتدفق، وباع بعض أعضاء اللجنة إجازات، كان ثمنها يفرض ضريبة بحسب غنى طالب المساعدة، ويصل أحياناً إلى 200 جنيه. إلا أن الناس كانوا يمرّون دون إجازات عبر الحرس في مركز المراقبة بدفع مبالغ أقل.

كان واضحاً بأن المدينة التي راحت تفقد سكانها وتعاني التّرويع لا بدّ أن تُجتاح سريعاً من قبل اليهود.

أمّا نحن الألمان الذين نلتقي تقريباً يومياً في غرفتي في المستشفى، فقد وجدنا

أنفسنا في وضع صعب للغاية. فقد استطعنا كوكلاء عن القانون والنظام إلى حدٍّ ما أن نضبط سلب اللصوص والغانمين، مما جعلنا غير محبوبين بالنسبة لهم. كما شعرنا في الوقت عينه بأننا كنا مكروهين من قبل المواطنين المُغتاظين، لأننا لم نستطع أن نصون مدينتهم. إذا نجحنا في النجاة من الفوضى الأخيرة فلا مستقبل ينتظرنا إلا الوقوع في الأسر.

لم يعد العرب أنفسهم يُظهرون أيّة حماسة ليقاتلوا من أجل بلدهم. ونقل الشيخ نفسه خارج جهنم المستعرة هذه إلى الرَّملة، ومن هناك أهاب بنا باتصال هاتفي أن نحافظ على ثباتنا وصمودنا. وعندها لم يتبقّ لنا أيّ سبب لعدم التفكير في النجاة بجلودنا. دبّرنا خططاً كثيرة للهروب لكنها كلها أخفقت لأنها محفوفة جداً بالمخاطر. فكّرنا مرة في اختطاف السيارة المصفحة وقيادتها عبر الطريق المراقب، لكن الاقتراح الأكثر روعة كان في الحصول على قارب نبحر به إلى سواحل آسيا الصغرى.

في صباح أحد الأيام، وأظن أنه كان في التاسع والعشرين من أبريل، اندفع سعيد في المشفى صارخاً: «ظفرتُ بالمطلوب». وكنا يومها في وضع مُزرٍ حتى أنه وجدني أنا وحسن منهمكين في شرب الويسكي، مع أن الساعة كانت مُبكرة.

«حسناً، ماذا هذه المرة؟».

«اسمعوا، شباب هناك سفينة في المرفأ».

كان سعيد منفعلاً للغاية بالفكرة التي راودته، ورمى بمسدسه باستهتار فوق الطاولة.

«وماذا علينا عمله مع سفينة يملكها شخص آخر؟» سأل حسن.

«يمكننا أن نهرب عليها».

حتى الإنسان الهادئ والواقعي والذكي مثل سعيد يصبح حيراناً، عندما يتلاشى الأمل.

«إلى أين سيذهب القارب؟» سألت، فقط من أجل قول شيء ما.

«ليست لديّ أيّة معلومة. لكن ذلك لا يهم. الذي يهم أنها ستذهب بعيداً عن جهنم هذه».

كان سعيد قد التقط الهاتف من قبل ونقل الأخبار إلى الألمانيين الآخرين. لم يستمع إلى أيّة جدالات ولم يأخذ أيّ جواب.

«انطلقوا بسرعة يا شباب»، قال، «سنلتقي خلال نصف ساعة عند المرفأ».

علينا أن نحاول، سواء نجحنا أو فشلنا. ذهبتُ إلى خزانتي وأخرجت صابوني وفرشاة أسناني. أما بالنسبة لبزتيّ الجيدتين، فضلاً عن ملابسي الداخلية، وأشياء أخرى قليلة تخصني، فكان لا بد من تركها. مرة أخرى، لا شيء إلا الصابون وفرشاة أسنان، والملابس التي أرتديها. «رفيقي العزيز، هل تقول بأنك ستترك الشراب خلفك؟» قال سعيد بانفعال عندما أغلقتُ باب الخزانة. أخذ الزجاجات الثلاث الباقيات التي يدعوها بالدّواء ووضع إحداها في جيب بنطاله.

«هيا، خُذ أنت واحدة»، قال وأجبر حسن على أخذ واحدة، حيث كان لديه متسع في جيوبه أكثر مما لدينا.

«والآن نخلع الخوذ من أجل الصلاة».

يمكنك دوماً أن تعتمد على سعيد ليكون عند طلبك. سحب سدادة الزجاجة، ومررناها علينا حتى أفرغناها. وعندما انتهينا حطّم سعيد الزجاجة بالجدار. فكّرتُ في حفلة عشيّة سيلفستر[1] *Sylvester Abend* الخاصّة بنا.

«من أجل خروجنا Exodus من الأرض المقدسة».

مررنا في الطريق إلى المرفأ بالبيوت المدمّرة والمحترقة بالقنابل والدكاكين

(1) سيلفستر آبند لدى الألمان هي حفلة ليلة رأس السنة، وتسمى هكذا نسبة إلى القديس سيلفستر. ويجري الإعداد لها بحفلات موسيقية ونشاطات ترفيهية مع الرقص والغناء وشتى أنواع التسالي.

المسـلوبة والسـيارات المقلوبة. وعندما مشـينا معاً في مجموعة مررنا بجثة بغل مُلقاة فـي زقـاق ضيق، بطنه منتفـخ بالغازات مثل بالـون. لأول مرة فإننا كألمـان لم نثُر ضد أعـداد الذبـاب التي لا تُحصى والتي تتغذى على الجيفـة التي خطونا فوقها، ولم يُفكر أحد في إزالتها. سمعنا فجأة دوياً عميقاً في السّماء. «اختبئوا!»، صاح سـعيد ودفعني إلى جـدار أقرب منـزل. بعد ثانية انفجرت قذيفة هاون في منزل يبعد عشـر ياردات أمامنا. فُتحـت الجـدران نحو الخارج كرئة متنفسـة ثم انهـارت. ملأت غيمة رماديـة مُصفرّة الزقاق وسـمعنا عبر الغبار والدّخان صرخات عالية.

«هيا، إلى لأمام». قال سعيد حيث قادنا عبر غيمة الغبار حتى لم نعد نسـمع الصيحات خلفنا.

سـقطت قذيفـة هاون أخرى أمامنا مباشـرة. كان يبـدو أن العـدو أراد أن يمنعنا من الوصول إلى المرفأ.

«اللعنة» صاح سـعيد. علينا أن نذهـب من شارع آخر. لقد حدّدوا المدى تماماً وكل قذيفة تسـقط على بُعد 30 ياردة عن آخر قذيفة».

علم سعيد ما كان يتحدّث عنه. علينا العودة إلى البيت مباشرة، الذي ضربته القذيفة الأولى، عندما انفجرت القذيفة الثالثة حوالي 300 ياردة أسفل الشارع. امتدت قذائف الهاون إلى هذه المنطقة حيث يسـدّدها رُماتها بعد كل رمية بقليل.

كان انعطافنـا يسـتحق العناء. وصلنـا المرفأ فيما بعد بوقت قصيـر، لكن دون أذى، وجدنا هناك صديقينا الآخرين بانتظارنا. أشـار أحدهما بإصبع إلى مركب كنا قد ذهبنا إليه ليوحي لنا بأن الوضع ليس على ما يرام. كانت السـفينة بسـاريتين مع محرك إضافي ودون راية مرفرفة، وقد رسـت على بعد 500 ياردة من رصيف الميناء، لكن متنها كان محتشـداً باللاجئين حيث بدا واضحاً بأن لا مكان لمزيد من المسـافرين.

«لـن نقدر أن نهرب عليها» قال حسـن بخيبة أمل عميقـة. وأحد أصحابنا الذي كان يتجول، ناظراً ومسـتمعاً، قـد علم أن اللجنة قد أقفلت الدّخـول إلى المرفأ قبل نصف

ساعة من وصولنا حتى تمنع المزيد من الناس من الهروب.

وقفنا خائبي الرجاء، كلنا باستثناء سعيد، الذي لا زال رأسه مرتفعاً بثقة.

«حسناً، لننزل» قال وانطلق نحو بوابات المرفأ.

نظرنا إليه عندما خطى بعيداً. عندما ذهب 20 ياردة، وقف ونظر حوله.

«ألن تأتوا؟» سألنا.

«هل من الممكن أن تخبرنا إلى أين تعتزم أن تأخذنا؟» قلتُ بصوت مُفعم بالانفعال وبلغة رسميّة جداً.

«إلى السفينة، بالطبع» صاح سعيد، تماماً كما لو كان ذاهباً ببساطة ليستحمّ.

«لا شك أنك تعتزم أن تصرع الحراس وتُفجر البوابة بالقنبلة اليدوية، أليس كذلك؟».

«ليس تماماً»، تشدّق سعيد بابتسامة. «سوف نُمثل فقط أننا رجال شرطة عسكرية. ألا يناسبكم ذلك يا أعزائي؟».

وعندما أصبحنا جاهزين فعلياً لنتبعه حيثما يقوده دهاؤه، خطونا بعيداً بخطىً رشيقة باتجاه البوابة.

«لماذا لم تفتح؟»، هدر سعيد.

«لدينا أوامر...».

«ولدينا أيضاً. أوامرنا هي أن نفتش السفينة لأجل الهاربين من الجندية». نظر الحرّاس كل واحد للآخر بعجز، حاول كل واحد منهم أن يلقي بالمسؤولية على أي من الآخرين.

«هيا، عجّل! أسرع! أم أفتح البوابة أنا بنفسي؟».

وعندما كان عليه فعل ذلك بدأ سعيد بالصراخ كوحش كاسر. وما قاله وفعله اتسم

بإقناع كبير جداً، حتى أننا نحن اقتنعنا تقريباً أننا كنا هناك في مهمّة ذات شأن كبير. تأرجح الباب وفتح ومشينا للأمام إلى رصيف الميناء.

وجدنا هنا زورق تجديف في سلسلة. لم يُضيّع سعيد الوقت، بل أطلق النار على القفل لفتحه. ثم تسلقنا إلى المركب الصغير، الذي لم يكن مُصمّماً للكثير من المسافرين فاستقرّ بشكل بغيض منخفضاً في الماء. أمّا سعيد وعلي، الذي كان يعمل بحاراً، فقد أمسك كل منهما بمجداف وبدأنا طريقنا.

«ماذا إن ارتعب الربان، عندما يرانا، وأبحر بعيداً!» همس كمال بانفعال.

لم يكن الأمر مُحتملاً ولكن يمكن توقّعه، لذا فعلينا أن نسرع. بوجود الخبير علي على جانب وسعيد، الذي لا يعرف شيئاً عن التجديف، على الجانب الآخر استمرّ قاربنا بالاستدارة إلى اليمين، وما كان من سعيد، الذي حاول أن يعوّض فارق المهارة بقوّة عضلاته، إلا أن نجح بكسر مجدافه، وإذا به يسحب أحد المقاعد ويجدّف به بشدّة.

كنا الآن قد اقتربنا بشكل كبير من السفينة، بحيث إذا قرّر الرُّبان أن يتحرّك بعيداً، يمكن أن لنا نُجبره برشيشاتنا لينتظر حتى نصير إلى جانبه.

أخيراً هاجمنا جانب المركب وتسلقنا سلّم الحبال إلى ظهر القارب، تاركين قاربنا، حيث لم نعد بحاجة إليه، ليأخذه التيار.

«ماذا تريدون هنا؟» قال رجل أشيب، مُعيقاً طريقنا.

«هل أنت المالك؟» سأل سعيد.

«ولـمَ تسأل؟»، نظر إليه رجل يرتدي سترة مُلطخة بالزيت، متدليّة فوق حزامه، بنظرة عدائية ملؤها الشك.

«هذا يعتمد على من تكون» قال سعيد، وهو يفرك سبّابته بإبهامه بإيماءة معروفة عالمياً.

فهم الرّجل.

«تريدون السفر؟».

أومأنا له بالموافقة.

«إلى أين تُبحرون؟»، سألت.

«بيروت. وسيكلف هذا 30 جنيهاً للشخص».

لدينا مال وثلاثون جنيهاً لم يكن سعراً عالياً جداً لحملنا إلى برّ الأمان. لكن، بعد الذي قيل، كان علينا أن نجد شيئاً نعيش به عندما نصل، ومن غير المحتمل أن الرّبان مستعد لتخفيض السعر.

قدّم له سعيد عملةً أفضل.

«ماذا تقول بنصف دزينة من الرُّشيشات؟».

«ادخل إلى قمرتي» قال الرجل ذو السترة الزيتية وشق لنا طريقاً عبر الحشود.

بقدر ما كنا مهتمين برشيشاتنا[1]، فقد فقدت قيمتها وأهميتها حالما غادرنا يافا. أمّا بالنسبة للرّبّان فإنها تمثل صفقة رائعة، كونها تساوي ربما خمسة أضعاف ثمن أجرة السفر. كان يأمل بلا شكّ في قُمرته السرّية أن يحصل منا على مواد قليلة أخرى كانت تمتلئ بها جيوبنا. كنا مُستعدين تماماً أن نتاجر بالقنابل اليدوية. كان باستطاعته أخذها، لكنه قوبل بالصّدّ عندما حاول أن يحصل على زجاجات الويسكي أيضاً.

كانت القُمرة صغيرة، وجلسنا في ضيق فوق مقعد خشبي. لكن حرية حركتنا لم تُعق كثيراً لتمنعنا من تمرير الزجاجة حولنا وشرب نخب نجاح رحلتنا. مضى الرُّبان

(1) ذكرنا أعلاه أنّ الرّشيشات أسلحة صغيرة الحجم تستخدم عيار الطلقات الخاصة بالمسدسات، أي 9mm بالنسبة للأسلحة الأوروبيّة، و 45. إنشاً بالنسبة للأسلحة الأميركيّة. ولا يذكر لنا المؤلف أنواع الرّشيشات التي كانوا يحملونها، وعلى أي حال فالشائع آنذاك كان الرُّشيش الألماني شمايسر Schmeisser طراز MP-40، والإيطالي بيريتا Beretta طراز PM-38، والإنكليزي ستِن Sten، والدّنماركي مادسِن Madsen، والأميركي طومسون Thompson.

وسمعنا حالاً مُحرك الديزل وهو يبدأ بالعمل. وتحرّك مركبنا ببطء باتجاه البحر المفتوح.

صعدنا درج السفينة واحتشدنا قبالة الحاجز. وقف الناس جميعهم في فوضى كبيرة. أشخاص بائسون، يُحدّقون ربما للمرة الأخيرة بمدينتهم وقد دفع كل منهم ثروة صغيرة ليهرب. كان الأطفال يصرخون، دون أن يفهموا ماذا كان يحدث لهم. وملأ الخوف أفئدة النساء عندما حملتهم السفينة بعيداً عن اليابسة، وانفجرن بالبكاء بعويل ونحيب. لم يخجل الرجال، أيضاً، من ذرف دموعهم، عندما بدأوا يُدركون أنه ربما يكون آخر وداع.

لم يكن هناك بالنسبة لنا من سبب لذرف الدموع، لكننا بقينا صامتين عندما كنا ننظر خلفنا إلى المدينة. أصبح صوت مدافع الهاون أضعف بشكل تدريجي وبدت البيوت البيضاء أصغر وأصغر حتى بدت المدينة ضبابية بعيدة سابحة في ضوء شمس منتصف النهار، وقد برز منها برج معمل بيرة نيشر[1] Nesher المدبّب، أعلى ممّا هو في الحقيقة.

لم تكن الحرية بالتأكيد هي ما علينا أن نتوقعه. وبعد كل ما مررنا به بقي سؤال فيما إذا كنا ما يزال لدينا نعيم الإحساس لنشعر بأننا أحرار تماماً، حتى ولو اكتسبنا الحرية.

مخرت سفينتنا، المثقلة بالمسافرين، عباب البحر ببطء باتجاه الشمال ليوم وليلة. ثم رسونا في عصر اليوم التالي في منطقة مختلفة ربما عن بيروت كما وُعدنا ودفعنا لذلك. عوضاً عن ذلك رسونا بقوارب في مدينة صور المذكورة في الكتاب المقدّس في جنوب لبنان، ولم يُصرّ أحد على السفر أبعد من ذلك. كانت فكرة الرُّبان أن يتخلص من حمولته البائسة بالسرعة الممكنة ويعود في الحال إلى مدينة يافا المحاصرة، حيث ربما يأمل أن ينقل بالسفينة حمولة أخرى من المسافرين الخائفين الذين يدفعون بسخاء. لم يكن لدينا شيء لنتذمّر منه، وكنا غير مبالين البتّة بخصوص المكان الذي يمكن أن ننزل فيه.

* * *

(1) تأسس معمل بيرة نيشر في عام 1935 (والاسم بالعبرية يعني: النسر)، وهي بيرة دون كحول.

20 - عودة إلى الصّحراء

كنا نحن الستة من غير العرب الذين لم يكن لدينا وثائق سفر، نتوقع بأن نحظى بكرم ضيافة حاتمي من الشرطة في مركزهم الرئيسي حالما نصل. ومن الإنصاف القول بأننا لم نوضع في السّجن فعلياً، إلا أننا اعتُقلنا في ڤيلاّ صيفية خالية. ومع ذلك، فلقد عمل حارس شرطة عند الباب على ألا نُغادر مقرنا المضياف.

وفي صباح اليوم التالي جاء ضابط شرطة، ودوّن بعض التفاصيل التي تتعلق بسجننا وخدمتنا العسكرية - وما أكثر ما كنا نخوض في هذه الشكليات - لكن احتجازنا الوقائي كان في حقيقة الأمر فقداناً مشروطاً للحرية. وقد أخبرنا الضابط بأننا كأعضاء في جيش المفتي، قد توجّب علينا الحضور إلى مركزه الرئيسي، الذي كان نُقل في تلك الأثناء من القاهرة إلى دمشق.

وعلى أيّة حال، عندما علمنا أن قائدنا المجيد الشيخ ح. كان هنا، فلقد توسّلنا إلى القائد أن يقودنا إليه، قبل أن نبدأ رحلتنا إلى دمشق.

كان لقاؤنا عند المركز الرئيسي للشرطة قصيراً لكنه لم يخلُ من انفعال.

«ماذا تفعلون هنا؟» جأر الرجل السّمين وقد بان عليه الاندهاش الشديد لرؤيتنا.. «لماذا لستم في جبهة القتال في يافا؟».

«وما الذي تفعله أنت هنا؟» جاء ردّنا بكل صفاقة.

إنّ محتالاً ضليعاً مثل ح. لم يكن ليعجز عن التملّص بسرعة من أيّة لحظة إحراج، وكان ردّه جاهزاً دوماً بجواب شديد الإقناع.

«أنا هنا لحضور اجتماع هام».

افترّ سعيد عن بتسامة صفراء قائلاً: «ونحن قد وجدنا موقعاً لـ 200 رشاش، فأتينا هنا لنحصل على الأسلحة».

تظاهر ح. بأنه صدّق هذه القصة الخيالية وقال: «لكن شخصا واحداً كان كافيا للقدوم وإجراء الترتيبات. فلماذا أتيتم كلكم؟».

«بإمكاني أن أحمل 35 بندقية فقط في وقت واحد» قال سعيد بسخرية. «يجب أن يأخذ الآخرين حصتهم من البقية».

وعندها أدرك الرجل السّمين بأنه جعل من نفسه أضحوكة.

«سأقفل فمك المتغطرس» ردّ بغضب على سعيد. «إنكم مجرّد جماعة هاربين من الجندية، خونة، جبناء...» كان بإمكانه الاستمرار على هذا المنوال دهراً، إذ أنه يمتلك مخزوناً وفيراً من الكلمات المهينة، ولكنه في ثورة غضبه ابتلع ريقه بعنف فشعر بالكلمات تغصّ في حلقه، وانتابته نوبة سعال.

«استمع إليّ أيها السّمين»، قال سعيد وهو يتميّز غيظاً، بينما كان يقترب نحو ح. خطوة: «أنت تعلم جيداً – أكثر مما نعلم – مَن منا هو الخائن والجبان». وراح يرفع عقيرته صارخاً بصوت تردّد في كل المنزل. «أنت لص وضيع مُبتذل!».

تحسّس ح. مسدسه، لكنه لم يستطع أن يحزم أمره باستخدامه، ثم استدار على عقبيه مغادراً الغرفة ولم نره بعد ذلك أبداً.

في عصر ذلك اليوم ذهبنا إلى دمشق.

استقبلنا الشخص صاحب النفوذ الكبير[1] في الشرق فور وصولنا إلى مقرّه الرئيسي وسألنا حول تجاربنا وانطباعاتنا عن جبهة القتال.

أخبره سعيد الحقيقة، ولم يُخفِ أي شيء.

---

(1) كتب المؤلف العبارة بالفرنسية: *Eminence Grise*.

أعطى سعيد المفتي تقريراً صريحاً عن الأوضاع التي لا يمكن احتمالها تحت أمرة الشيخ ح.، ووصف تصرفات الشيخ الاستبدادية وإساءته استغلال مركزه لتحقيق مكاسب مالية.

وقد بدا أن المفتي لا يعلم شيئاً عن كل ذلك، ولا بدّ أن الشيخ التسمين قد تمكن بطريقة ما من إخفاء أي معلومة تسيء إليه بعيدة عن أذني المفتي. رفعت تصريحاتنا هذه من درجة حقد المفتي، فأصرّ على أن نقدّم تقريراً خطياً يتضمّن روايتنا الشفهية.

بعد ذلك بفترة ليست بطويلة سقط الشيخ ح. أثناء اشتباك في فلسطين، قُتل بطلقة من الخلف، ولم يُعرَف أبداً فيما إذا كان هذا المغرور قد قُتل من قبل العدوّ أو أُعدم بأيدي رجاله.

اتُّخذت أثناء ذلك قرارات جديدة فيما يتعلق بمستقبلنا، وفي المُجمل كان كل واحد منا راضياً، مع أنه لم يكن ثمّة أيّ أمل بإطلاقنا للعودة إلى الوطن.

تمّ نقلنا إلى قيادات جديدة. أصرّ سعيد، وحسن، وعلي، وأحمد، على العودة إلى جبهة القتال، مع أن المفتي عرض على كل منهم عملاً في خطوط الاتصال. وحده كمال الكيميائي وأنا فضّلنا أن نبقى في لبنان - حيث أغرق كمال نفسه منذ ذلك الحين في صناعة الألغام وخلطات عديدة من المولوتوف في قرية صغيرة في الجبال، بينما نُقلت أنا إلى المستشفى العسكري رقم 3 في بيروت.

إنها العاصمة العالمية للشرق الأوسط التي تضم العرب، والدّروز، والأكراد، والأتراك، والغربيين من جميع الجنسيات، الذين عاشوا بوئام معاً في منطقة اشتهرت منذ القدم بحضارتها الفينيقية، وهي تمتاز اليوم بأهمية اقتصادية خاصة كميناء حرّ وسوق حرّ للذهب والعملات، وكما هو الحال في هونغ كونغ وطنجة فهي مركز تبادل رئيسي للمعاملات التجارية، وتضمّ كل صنوف الأعمال العالمية الهامة، سواء الشرعية منها أو غيرها.

وقعتُ أسيراً مأخوذاً بذلك الجمال الفاتن لتلك المدينة الساحرة، التي أثّرت بي

جداً، ربما، لأنني لأول مرة منذ سنوات كنت مواطناً محترماً دون خوف من الاعتقال أو الهجوم، أعيش حياة طبيعية بين أصدقائي من رجال المدينة. وسرعان ما عرفتُ طريقي وتلاءمت مع الحياة الناعمة الهادئة غير المنظمة للبنانيين، ومن البديهي بأنني لم أملّ البتة من تلك الطبيعة الجميلة الآسرة.

أثناء سنوات أسري لم أرَ الجبال ولا البحر، فها أنا ذا الآن، انتقلت بأمر عسكري، إلى ما يشبه جنة عَدن، واحدة من أجمل البقاع التي استقطبت الزوّار من كل أنحاء العالم وأضافت خلفية ساحرة لشاعرية الشرق. كان جمال الطبيعة المرويّة جيداً والخصبة غامراً لدرجة أنه حتى العرب المتعصبين في الأيام الأولى من الغزوات الإسلامية كانوا مُضطرين أن يخالفوا وصية النبي بالامتناع عن تصوير كل ذي روح - وخاصة بالنسبة للنباتات وكذلك الحيوانات - وبالنتيجة فقد أصبحت الأزهار والأشجار والأنهار جزءاً أصيلا من الزخرفة الطبيعية في الفن الإسلامي.

ومع ذلك، على الرّغم من هذه المباهج المكتسبة حديثاً، لم أقضِ أوقاتي حالماً تحت أشعة الشمس، فقد استمرّت خدمتي في المستشفى من صيف عام 1948 إلى صيف 1949. وفي الخامس عشر من مايو عام 1948، اجتاح جيش التحالف العربي فلسطين وتم إجلاء الكثير من الأشخاص المرضى والجرحى عن مسرح الأحداث المشوّش للحرب وأرسلوا لنا للعلاج، ولم تتوقف الأعمال الحربيّة حتى صيف 1949، لكن قبل ذلك الحين كنت قد بدأت سابقاً آخذ دوراً فعالاً في التعامل مع طابور لا ينقطع من اللاجئين يصل عددهم إلى 700 ألف كانوا مُشردين، ومُفلسين، ومُهملين، سكنهم معسكرات مرتجلة في خيام كانت مأواهم الوحيد، لقد تمكنتُ من النجاة من النسخة الألمانية عن هذه المأساة المرعبة في العام 1945، أما الآن فإنني أكرّس حياتي لنجدة هذا الكمّ الهائل من المعاناة البشرية[1].

---

(1) وهذه الفترة التي يذكرها كانت أوج نكبة فلسطين ونزوح اللاجئين الفلسطينيين إلى البلدان العربيّة المجاورة، تحت ظروف إنسانيّة بائسة للغاية. وهذه المعاناة لم تنقطع إلى يومنا الحاضر.

مـرّت أعـداد كبيرة مجهولة من البشـر بيـن أيدينا، فكنا نحن الأطبـاء كعمّال مصنع علـى أحزمـة ناقلة لا وقت لدينـا لأي احتكاك شـخصي مع المرضى، أو الأشـخاص الأضعف والمسـنّين الذيـن يمرّون بنا. حوّلتنـا الإجراءات الوقائية التـي توجّب علينا اتخاذهـا كيما نتجنب الأوبئة إلى رجال شـرطة صحيين، ولـم يتـرك لنا ضغط واجباتنا الروتينية أي فسـحة من وقـت، فكنا نتعامل مع مرضانا على أنهـم كانوا مجرّد حالات مجهولة أخرى.

كان يُصيبني بصدمة كبرى أن أفكر أنني في وسط جنّة عَدن هذه، بدأت أتوق للحياة في الصّحراء كجنّة مفقودة. تذكرتُ أنـي عشـت هنـاك حياةَ تصوّف لطبيب قرية بين بدوٍ مسـتقلين. كان يقاطعها بلا شـك اضطرابات عَرَضية طارئة، إلا أنها كانت ما تزال حياةً شخصية مستقلة.

وبّختُ نفسـي الجاحدة لاكتشافها أن الحياة في بيئة متمدّنة كانت غير ملائمة، لكن حياة الصّحراء لم تلائمني لكثير من الأسباب، فمثلاً، بعد أن جلستُ لفترة طويلة على كرسي تخدّرت قدماي لأنني كنت قد اعتدت أن أجلس متربعاً. وكثيراً ما كان زملائي ومعارفي يضحكون عليّ لاختيار مقعدي في المطعم أو المقهى في مكان أستطيع منه رؤية الباب والتحديق بشـكل مُريب بكل شـخص يدخل عبره. ودون الوزن المألوف لمسدسـي فـي جيبي، فلقد شـعرتُ بأنني لم أكن أرتدي كامل ملابسـي، بينما تسـبّب ضغـط الياقـة وربطة العنق، التي يتوجّب على كل رجـل محترم أن يرتديها في بيروت، بأن أشعر بالاختناق.

يقول مثل عربي: «لا يكون المرء حرّاً فعلاً إلا في الصّحراء».

تلقيتُ ذات يوم دعوة من حكومة المملكة العربيّة السـعودية لأتولى إدارة مستشفى تابعة لمكتب الصحة في الهفوف. ولشدّ ما كنت لهفتي لقبول تلك الدّعوة التي وجدتُ فيها بديلاً عن دوّامة التمدن وانتقالاً إلى حرّية البرية.

نسـيتُ أنني قد انسللتُ عبر سلك شائك لسـجن مخيّمي بسبب نفاد صبري لأعود

إلـى وطنـي في برلين. بـأيّ حال، فقد أجّلـت آمالي وأحلامي عندما ألقيـتُ بنظرة من طائرتي إلى عالمي الجديد هذا.

حملتنـي طائـرة ذات مُحرّكيـن إلـى جـدّة، بوابـة المملكـة العربية الـسـعودية على البحـر الأحمر. وعندها انتقلت إلى طائرة أخـرى وحلّقنا إلى الرّياض، عاصمة الدّولة الصّحراوية العظيمة، التي تُعادل مـساحتها نصف القارة الأوروبية. ثمّ حملتـني مرحلتي الثالثة شـرقاً باتجاه الهفوف.

إنّ المـسـافة المجتازة في رحلتي الطويلة لا تُحتـسـب كثيراً بمدى الامتدادات الواسعة للبحـر الأزرق والرّمل الأصفر التي حلقنا فوقها، بقدر ما كانت غنية بالتنوع بين رفاقي المـسـافرين.

فلقـد اسـتقلّ عددٌ قليـل جداً من العـرب الـسـعوديين الطائرة إلى بيـروت، ومعظم المـسـافرين كانوا من الأوروبيين ورجال أعمال مشـرقيين في طريقهم إلى جدّة. كانوا حشـداً حيويـاً، يتحدثون عن العمـل معظم الوقت. ثم من جدّة إلـى العاصمة حيث لا يُسـمح لأجنبي أن يزورها دون دعوة شـخصـية من الملك أو من خلال تفويض شـديد الخصوصـية، كان نصف المـسـافرين عرباً وكان الباقي خبراء نفط أميركيين، في طريقهم إلى الـسـاحل الشـرقي. في المرحلة الثالثة لرحلتي كان رفيقـاي الوحيدان، وهما اثنان من الـسـكان المحليين، كانا نائميـن طوال الوقت. بيـنما امتلأ المكان الفارغ في الطائرة بالصناديـق، والـرّزم، والأكياس. لم يكـن أيّ أميركي، أو أوروبي، أو مشـرقي ليرغب بالـسـفر إلـى الهفـوف حيـث لا توجد خطـوط مواصـلات بريـة أو عن طريق الـسـكّة الحديديّة مع أيّة منطقة متمدنة.

وجدتُ أمام أبنية المطار الجديدة سيارة كاديلاك بانتظاري. كان الـسـائق عربياً داكن البشرة بجلاّبية زرقاء مع مسدس في حزامه المحشو بالخرطوش بشكل وافر.

«هل أنت الطبيـب؟» سأل.

أومـأتُ موافقـاً. ولـم يقلْ أكثر مـن ذلك، لكنه شـغّل المحرك وقاد عبـر واحد من

المداخل الأربعة المرتفعة إلى وجهتي المخصصة، مكتب صحّة الهفوف. كان هذا بناءً جديداً مطلياً بالكلس الأبيض بسقف مُسطّح ككل المنازل هنا، وله فناء مُحاط بقناطر للحماية من شمس الصيف وأمطار الشتاء.

كان مدير المكتب سورياً يُدعى الدكتور فؤاد، وهو رجل ذابل، ضئيل الحجم ببشرة صفراء لا توحي بالصحّة، وعندما قدّمتُ نفسي أخبرني بأن الأمير يرغب برؤيتي عند الساعة الحادية عشرة. «عند الحادية عشرة؟» قلت، ناظراً إلى ساعتي، ومُلاحظاً أنه بقي خمس دقائق فقط لذلك التوقيت. «كيف سنتدبّر ذلك؟» سألتُ بقلق.

«أوه، طبعاً» قال بترفّع خبير «أنت لا تعرف بعد كيف يحسب الناس الوقت هنا». إن حساباتنا تعتمد على غروب الشمس، فعندما تغرب الشمس كل ليلة عليك أن تضبط ساعتك على الساعة الثانية عشرة، وهذا يعني حوالي الساعة السابعة مساءً في الصيف والخامسة بعد الظهر في الشتاء».

حدّق بي بنظرة مدرّس، غير متأكد تماماً فيما إذا كان تلميذه قد فهم أم لا.

أومأت لأُظهر له بأنني فهمت.

«حسناً، حسب ساعتك فهي الآن الساعة الحادية عشرة، لكن الوقت الصحيح هو» - نظر إلى ساعة معصمه - «السادسة وعشر دقائق. مُقابلتك الرسمية مع الأمير هي إذن عند الساعة الحادية عشرة حسب التوقيت المحلي والخامسة وعشر دقائق على ساعتك».

أذهلني نظام ضبط الوقت هذا واعتبرته شديد الصعوبة، لكن مع ذلك ما من مشكلة كبيرة، فقد كانت معظم المواعيد تُؤخذ بعد ساعة من شروق الشمس، أو مباشرة بعد صلاة الظهر، عندما تُغلق أبواب المدينة.

وفي تمام الساعة الحادية عشرة بالتوقيت المحلي، تم اصطحابي للدخول إلى حضرة الأمير. وبعد أن قدّمني السّوري للأمير، كان رجلاً ضخم البنية، بلحية كاملة سوداء بلون الفحم، تركها لتنمو إلى حدّ كبير، نظر إليّ بعين متفحصة وكأنني سيارة قد

اشتراها لتوّه، ويعاين إنتاجيتها وصلاحيتها لأداء الأغراض المرجوّة منها. ثم بعد ذلك قال: «لماذا لا ترتدي جلابية، كرجل عاقل؟».

شرحتُ أنني قد وصلت لتوّي ولم يكن لدي الوقت لأشتري ثوباً محلياً خاصاً، لكنه لم يجد عذري مقبولاً.

«يبدو هذا الشخص كامرأة» قالها بشكل ناقد نوعاً ما. «لا تدعني أراك ثانية دون لحية» كان هذا كل ما قاله عن واجباتي في الهفوف. ثم صرفني بإشارة من يده.

بدا وكأنني لم أجتز اختباري بامتياز.

* * *

21 - طبيب في الهفوف

خزنتُ بزّتي وعدّة الحلاقة الخاصة بي، فقد أصبح كلاهما الآن عديم الجدوى، في ركن قصيّ من صندوق ثيابي، وأبقيتُ لنفسي ثلاث جلابيات وخُفاً، وبعض أغطية الرأس الحريرية البيضاء، وعقالاً.

وبعد أن أمضيتُ ليلتي الأولى في الهفوف على سطح مكتب الصحّة لعدم وجود فندق في المدينة، كان عليّ أن أشغل نفسي في اليوم التالي بالبحث عن منزل لأعيش فيه، حيث كان ذلك ضرورياً كحصولي كالملابس المناسبة.

عرض الصّيدلي في مركز الصّحة وهو لبناني من طرابلس، أن يضع خبرته المحليّة تحت تصرفي. إلا أن الخطوات الأولى في تعليمي لم تكن بتلك السهولة أبداً. مباشرةً أمام مكتب الصحة كانت ساحة السوق، التي تعجّ في ضحوة النهار بالتجّار والزبائن والمتسكعين. وقد تمّ تخصيص أنماط معينة من المحلات، كما لو كان الحال نقابة من زمن القرون الوسطى، لشوارع خاصة أو أجزاء من الشوارع. فيمكنك للمرء أن يرى تجار السجّاد وخلفهم أصحاب أكشاك الفاكهة والخضار. ثم يأتي الصرافون، والخياطون، وتجّار الأسلحة، بينما انتشر في المساحات الفارغة لتلك المحال المختلفة باعة متجولون مع صوانٍ مليئة بالحلي الصغيرة التافهة.

لا بدّ أن درجة الحرارة كانت حوالي 98 درجة[1]. إلا أن ذلك لم يقف عائقا بأي حال أمام نشاط الحشود العاملة. «هذه امرأة سُنّية» شرح مرافقي، عندما مرّ أمامنا شكل غير واضح الملامح لامرأة ترتدي حجاباً ساتراً بجانبنا. وقد تدلّت من عباءتها

(1) يعني على مقياس فاهرنهايت، وهذا يقارب 36.7 درجة مئويّة.

الصوفية حاشية طويلة تجرّها خلفها وتسحب بها غصينات شجيرات شوكية قشّية مُغبرّة. أخبرني مُرشدي أنه لا يوجد بين هؤلاء الناس أيّة امرأة ترضى بأقل من مترين اثنين من الحاشية في ثوبها تجرجرها وراءها عبر الغبار، وإلا سيُنظر لها بأنها زوجة لأحد الفقراء المعوزين، أو أسوا من ذلك كزوجة لبخيل.

«حتى في الصّحراء عليك أن تقلق وتهتم بشأن الزي. إلا أن الزيّ الموحّد تجده في الأحذية فقط». قلت، مُشيراً إلى الأقدام الحافية لامرأة شيعية، كشفت تنّورتها القصيرة عند ربلتها عُريَ قدميها بشكل واضح أكثر من الثياب الطويلة لنساء أخريات. وقد علمت أنه كان يُعدّ خطيئة بالنسبة للمرأة أن تلبس حذاءً. وبطبيعة الحال فقد كانت هناك أيضاً محرّمات أخرى بالنسبة للنساء، كحمل الطيور أو شراء البيض والحليب.

ورأيتُ عربياً داكن البشرة واقفاً أمام بائع متجوّل يساومه حول ثمن مشعل كهربائي، وقد تدلّت أكمامه الواسعة فوق مرفقه المنحني تقريباً إلى الأرض.

«هذا بدوي من عُمان»، قال مُرشدي. كما كان هناك مُنادي البلدة الذي يحلّ محل الإعلانات في الجرائد، وكان مهمّته الحصريّة أن يلفت نظر كل المشترين والباعة الآخرين في ساحة السوق. «معزة للبيع!! سويلم الكياشي لديه معزة للبيع! فقد أحدهم حزاماً أزرق! أمَة فتيّة للبيع».

«هل لديكم هذه هنا أيضاً؟» سألتُ عندما سمعت ذلك العرض الاستثنائي.

«أوه، نعم. لكن انظر، هناك رجل يُفضّل ألا يكون من معارفك على الإطلاق»، وأشار رفيقي إلى رجل ضخم متشح بملابس زرقاء ويحمل سيفاً معقوفاً طويلاً يتدلّى من حزام جلدي من كتفه. «إنه واحد من عبيد الأمير الشخصيين، وهو الجلاد».

سار الرجل إلى كشك وبدا أنه يعاين غطاء رأس حريري، وقد وقف التاجر بجانبه في خنوع وهو يُثني على ذلك الغرض بإسراف.

«كم تريد ثمناً له؟» سأل الرجل الأسود.

«فقط خمسة وعشرين ريالاً، لكونك صديقاً».

«أتريدني أن أفلس، هل هذا ما تريده!» قال الجلاد، واستدار على عقبيه.

«لا تذهب! لا تجعلني حزيناً». قال التاجر، وقد بدأ بالانتحاب وهو يمسك بكمّ العبد. «إذا وجدتَ الثمن غالياً جداً، اعمل معروفاً معي واقبله كهدية».

أومأ العبد بالموافقة بشكل مُهذب، ثم وضع الكوفيّة في جيبه ورحل بعيداً.

كنت على أتم الاستعداد بأن أقبل نصيحة رفيقي الودّية، وألا أسمح لنفسي أبدا بمعرفة هذا الشخص، لكن لم يمضِ نصف عام حتى أتى يحيى، جلّاد الأمير، ذات ليلة ليجلبني من منزلي.

لم يمرّ وقت طويل حتى اعتدتُ العيش والعمل في الهفوف.

واعتماداً على نصيحة صديقي الصّيدلي وجدتُ منزلاً مناسباً استأجرتُه بثمن معقول. كان بناءً مستقلاً من طابق واحد، مستطيلاً لكنه لم يكن فسيحاً تماماً، ويتألف من غرفتين بمساحة معقولة، استخدمتُ واحدة منهما لاستشاراتي الطبيّة والأخرى كغرفة معيشة، ولم أحتج إلى غرفة نوم لأنني كنت أنام في السطح الذي كان مُحاطاً بدرابزين واطئ، وفي أيام الفصل الأبرد، عندما كانت تُمطر أحياناً اعتدتُ أن أنام في بناء منعزل صغير، يتصل بمنزلي بممرّ مكشوف كان سابقاً مسكناً للنساء. وقد كان مجمّع المباني المتواضع محاطاً بالكامل بجدار مرتفع، كما هو الحال في كل بيت ومزرعة في الهفوف.

كنت قد دخلت البلدة عبر بوابة في سور المدينة لها عدد من الأبراج لغايات الدفاع. وبنفس الطريقة فقد تم تطويق الكوت *Kut* أو المدينة الداخلية بجدار، كان تضم داخلها القصر حيث يعيش الأمير مع عائلته، وكذلك المسجد الكبير، والثكنات مع الحامية التي تضمّ أربعمئة رجل، والأبنية الأخرى التابعة للحكومة. وفي كل ليلة في التاسعة مساءً كانت البوابات الضخمة للمدينة الداخلية تُغلق ولا يمكن أن تُفتح إلا بأمر خاص من الأمير.

كانت المرة الأولى التي مررتُ بها عبر هذا السور إلى المدينة الداخلية بعد منتصف

الليل بفترة طويلة. كان معي الجلاد العام مرافقا لي. لقد مضى عليّ الآن ستة أشهر في خدمة الدولة، وكنت واثقاً بأنني أنجزت واجباتي بشكل مُرضٍ.

وهـذا مـا حدث: نقرٌ عـالٍ على باب منزلـي أيقظني من منامي، فنزلـت مترنّحاً وأنا نصف نائم لأفتح الباب، وهناك وجدتُ يحيى الجلاّد يقف باسترخاء متكئاً على سيفه المعقوف الضخم في غِمده الجلدي.

قال: «الأمير يريد أن يتحدّث معك في الحال». اندفعتُ في ملابس النوم وانطلقت مع الرجل الأسود. كان يخامرني شعور غامر بانحطاط المعنويات وكنت ما زلت أفكر في الأسلوب الجاف الذي استُدعيت به من قبل الجلاد، الذي سار بصمت إلى جانبي مُنيراً طريقنا بشعاع ضئيل من مشعله الذي أضاءه بين حين وآخر في أعين واحد من الكلاب الضخمة الرّمادية التي كانت تجوب المدينة.

لـم يأخذنـي رفيقي المشـؤوم عبر أحـد البوابات الرئيسـية التـي تقود إلـى المدينة الداخلية. بل توقف وقرع على باب جانبي منخفض، فُتح مباشرة. وقد توجّب علينا أن ننحني لنصف طولنا تقريباً كي ندخل، إذ أن الباب لم يتجاوز ارتفاعه الأربعة أقدام، ثم وجدت أنني في دهليز مُقنطر وصلنا في نهايته إلى دَرَج دائري ذي درجات بالية بشدّة، وهنـا أنارت لنا عبدة مقنّعـة الوجه الدّرج المتداعي بفانوس بيـد ثابتة حتى وصلنا إلى السـقف المنبـسط للقصر. وعندما قمنا بعبوره، وصلنا لدرجات سلم خشبي يقود إلى الطابق العلوي لمسكن الأمير.

أصبح الارتعاش في معدتي أسوأ عندما قادني الرجل الأسـود إلى باب مزدوج مرتفع. وخامرتنـي الخواطـر أنه ربمـا كانت ثمّـة محاكمة... مـع القاضي الذي يجلس في سـاعة مُتأخـرة مـن الليل... مـا الذي يمكـن أن يريدوه منـي؟ أتـراي انتهكتُ إحـدى محرّماتهم الكثيـرة؟ وتذكـرتُ أننـي قبل عدة أيام كنـت أعالج إحـدى المحظيات لواحـد من أقارب الأميـر، وصدرت مني ملاحظة أمامها كان من شـأنها أن تودي بي إلى الهاوية، كانت لتلك المرأة أسمك بشرة رأيتها في حياتي، حيث لم تخترقها الإبرة عند المحاولة الأولى. «جلدك كجلد التّمساح»، قلتُ مازحاً فمضت المرأة وهي تغلي من الغضب.

لكن حتى لو كنت اقترفتُ انتهاكاً كبيراً للقانون المحلي والعادات، فإنّ ذلك لا يُبرّر استدعائهم لي من منزلي في جوف الليل، مع رسولهم الجلاد العام. وقد يميل الناس في أوروبا للضحك على شكوكي، لكن أيّ شخص يعرف ماهيّة ظروف الحياة في العربية السعودية سيدرك بأن الصلاحيات المطلقة لشيوخ القبائل والحكّام في تلك المنطقة تجعل من المحتمل اتخاذ أيّ إجراء ذي طبيعة استبدادية أمراً محتملا.

فتح حارس مُسلّح يرتدي جلابية زرقاء أحد مصراعي الباب المزدوج المرتفع، فسرتُ نحو صالة كبيرة متبوعاً بالجلاد، وعند النهاية البعيدة كان هناك نوع من منصة مُغطاة بسجاد نفيس، وجلود ووسائد، يجلس في وسطها الأمير سعود بن عبد الله بن جلوي[1]، كانت قدماه حافيتين وقد ارتدى جلابية بيضاء وغطاء رأس دون عقال، وكان يقرأ جريدة.

انحنى مُرافقي أمام سيده وأعلن بصوت هادئ: «الطبيب الألماني».

مددتُ يدي اليمنى فوق صدري بالتحيّة وبقيت واقفاً أمام الأمير.

قام الأمير بحركتين من يده. كانت الأولى إيماءة بأصابعه وكأنه ينفض فُتاتاً من على طاولة. كانت تلك إشارة إلى الجلاّد لينصرف. ولم أستطع أن أخفي تنهيدة راحة عندما رأيتُ الرجل يذهب بعيداً بسيفه المتدلي فوق كتفه. ثم أدار راحة يده للخارج وأشار بها نحو الأسفل، كان يدعوني للجلوس.

فما كان مني إلا أن جلستُ القرفصاء على درجات المنصة، وانتظرت لأرى ما سيحدث.

لم يحدث شيء.

---

(1) هو الأمير سعود بن عبد الله بن جلوي بن تركي آل سعود، أسندت إليه إمارة الأحساء بعد وفاة أبيه، فظلّ بها إلى عام 1952 وعندها أصبحت الظهران ملتقى الوفود الأجنبيّة لاتساع أعمال شركة آرامكو، ممّا أدّى إلى انتقال الأمير إلى الدّمّام وجعلها عاصمة الإقليم، وتولّى أخوه الأمير عبد المحسن إمارة الأحساء. وبقي الأمير سعود أميراً للمنطقة الشرقيّة بالدّمّام حتى وفاته عام 1967، فخلفه عبد المحسن حتى عام 1986.

لم يرفع الأمير بصره ولو مرة واحدة عن جريدته أثناء كل الشكليات غير الرّسمية للتعارف والتحية. بل استمر بالقراءة، وكان بين الفينة والأخرى يُقلب صفحة بصوت حفيف أو يبعد سرب الحشرات الطائرة التي جذبها الضوء، وخلافاً لذلك لم يحدث شيء على الإطلاق. ومع الوقت زاد اقتناعي بصورة تدريجية بأن رأسي لم يكن في خطر، مهما كان الدافع لهذه الدعوة الليلية. وعند ذلك ومدفوعاً بذلك الشعور المريح بدأت أقلّب النظر حولي، كنت أشعر بالضجر قليلاً، ومسحت عيناي كل شيء في هذه الغرفة الضخمة الفارغة، مُحصياً حتى الصدوع في الجدران وفاحصاً بدقة رسومات السجاد.

لكن لم أكن أشعر بالارتياح أبداً لحضور الحارسين الشخصيين، كانا عبدين أسودين، رابضين باتجاه الجدار خلف الأمير في وقفة فردية. كان كل واحد منهما يجلس على أحد عقبيه ورجله الأخرى ممتدة، جاهزة لأية وثبة مُفاجئة. كانت بندقيتاهما الآليتان مركوزتين بين أفخاذهما وأعينهما كانت مُثبتة تقريباً عليّ بسيماء كلها فضول وشكّ، بينما وقف حارسٌ شخصيّ ثالث عند الباب الكبير.

أحدث الأمير حفيفاً بجريدته مرة أخرى عندما قلب ورقة. ثم قال بهدوء: «قهوة!» *"Qahwa!"*.

«قهوة!» كرّر أحد الحراس خلفه. فتح الحارس الموجود عند الباب بابه صارخاً «قهوة» في الدهليز. تكرّرت الكلمة من قبل الحارس في الخارج ومرة أخرى من قبل صوت بعيد.

وبعد نصف دقيقة بعد أول كلمة «قهوة» ظهر ولدٌ أسود صغير يحمل وعاءاً نحاسياً ذا أنبوب طويل. تناول الولد فنجاناً دون عروة من كيس مُعلق حول رقبته وصبّ القهوة فيه بانحناءة خبيرة. ثم وقف ينتظر بصمت بإبريق القهوة في يد والفنجان في الأخرى، عليه أن ينتظر خمس دقائق، إلى أن يمدّ الأمير، الذي ما يزال يقرأ، يده بإبهام وسبّابة منفرجة باتجاه الصبي. وضع الشخص الصغير الفنجان في يد سيّده، الذي عاد مرة أخرى لقراءة جريدته. سمعتُ رشفةً. ثم أومأ الأمير، الذي أصبح نصف رأسه مرئياً

الآن، باتجاهي فصبّ لي الولد فنجاناً من القهوة.

تبع ذلك صمتٌ ثقيل، ثم خرج الصبي وتابع الأمير بالقراءة. وانتظرت.

تحرّك صرصارٌ ضخم بتثاقل فوق السجادة بقرنَي استشعار متذبذبين، ومرَّ قريباً من قدم الأمير. توقف لبرهة وكأنه يرى فيما إذا كان هناك أيّ شيء ذو قيمة في هذا الإصبع الكبير، ولكن عندما تبّهته مجسّاته أن هذا العائق هو قطعة من لحم حيّ ركض بذُعر مسرعاً للأمام لمسافة قصيرة، قبل أن يعاود مشيته الهادئة البطيئة. لكن في هذه اللحظة رآه الحارسان وبدا أنهما سعيدان تماماً بهذا الانحراف الصغير الحاصل، حيث أن ظهور الحشرة البنّية قد جاء ليروّح عنهما ضجر حراستهما. فما كان من أحد الحارسين إلا أن تقدّم بحذر دون أن يحوّل عينيه عن ظهر الأمير، وسحب خنجره من غمده الفضي المرصّع وبدأ يقود الصّرصار من هنا وهناك بحرفه الحاد، بينما راح رفيقه الذي علت وجهه ابتسامة صفراوية يراقب الحيوان الذي يُحاول الهرب.

قُوطعت لعبتهما الصغيرة بصوت الأمير من خلف جريدته.

«كيف صحتك؟» قال لي.

انتبه الحارسان واقتربا من بعضهما، فانتهز الصّرصار الفرصة ليهرب.

«أنا جيّد، حمداً لله» أجبت، «وكيف حال سموّك؟».

«الحمد لله!» قال الأمير مومئاً بتهذيب. ثم طوى جريدته ونظر إليّ للمرة الأولى..

«سمعتُ عنك أشياء طيّبة»، قال. «المرضى راضون عنك».

«أنا سعيدٌ أن خدماتي قد آتت ثمارها» أجبت.

نظر إلي الأمير بدقة للحظة.

«أخبرني» قال، «هل تظن أن الأميركيين أفضل أم البريطانيين؟».

«الأميركيون» قلتُ دون تفكير. فلقد بقيت فترة طويلة في المعسكرات الإنكليزية

ولم أكن أبداً سجيناً في المعسكرات الأميركية.

«وهذا رأيي أيضاً»، قال الرّجل ذو اللحية السوداء، وقد بدا مسروراً بجوابي.

«يستخرج الأميركيون النفط من الأرض، ونحن نستلم نصف الأرباح. لكن الإنكليز أرسلوا لنا أولاً البعثات التبشيرية ليحوّلوا الناس عن دينهم، ثم أتى التجار والمستشارون ليسيطروا على اقتصاد المنطقة، وأخيراً أتى الجنود ليحتلوا الأرض».

أومأتُ، ولم أفهم تماماً ما كان يقصد.

«أنت كنت جندياً، أليس كذلك؟»، سأل الأمير.

عندما قلتُ إنني كنتُ عسكرياً في السابق، أراد أن يعرف رأيي بالجنود البريطانيين، والأميركيين، والرّوس. كنت كراقص الحبل الذي عليه السير بكل حذر لتجنب مخاطر هذه المحادثة، وبذلت جهدي لأجعل أجوبتي تُطابق ما ظننتُ أنه وجهات نظر الأمير. استنتجتُ أنه لا يحبّ الرّوس لأنهم يُنكرون وجود الله ومعارضون لقانون الله فيما يخص العبودية، وأنه كان ينظر إلى الإنكليز بكراهية ممزوجة بالخشية.

ظننتُ أن هذه المحادثة التمهيدية كانت مجرّد مقدمة إلى الموضوع الحقيقي الذي دفع الأمير ليرسل لي في ساعة مُتأخرة جداً من الليل. لكن في حقيقة الأمر لم يتحدّث الأمير بشيء إلا بالسياسة ومواضيع عديدة مُتشعبة، وبأسلوب غير رسمي يفتقر إلى الترابط. استمرّت مُحادثتنا حوالي نصف ساعة ثم صرفني - وسرعان ما التقط جريدته ثانية.

رافقني أحد الحراس الشخصيين حتى البوابة الصغيرة في السور التي دخلت عبرها إلى القصر. ولم يمكن للجلاد ولا أي شخص آخر أن يصحبني إلى المنزل، وكان علي أن أتحسّس طريق عودتي في ظلمة حالكة.

لقد وضعت نفسي الآن تحت رحمة الكلاب البرّية الكبيرة كالذئاب، التي تنام طوال النهار على سطوح المنازل حول السوق، ثم تقضي الليل تبحث عن الطعام بين النفايات والقمامة المرمية في الشوارع هنا وهناك. كانت تعبر بجانبي بصمت وبثبات،

لـم يكـن خوفي من رفـاق الليل هؤلاء غير مبرّر بـأي حال، إذ أنني لم أسـتطع أن أجد حجراً أو أي شـيء آخر لأرميه عليها، رميت أحـد خُفيّ باتجاهها لكن طلقتي أخطأت هدفها، ولاقت رميتي الثانية بالخف الآخر نجاحاً أكبر فتراجعت المجموعة إلى مسافة آمنـة. ومع ذلـك، علي أن أفترض أنها سـتكون خلفي مرة أخرى حـالاً، وعندها لُذت بالفرار هارباً بأقصى سـرعة، لكن لم أقطع مسـافة 200 ياردة حتى وجدت أن الكلاب كانـت خلفي مباشـرة، وحيث أنني كنت بلا أيّ سـلاح، فقد ألصقتُ جسـمي مواجها الجدار بظهري منتظراً هجوم تلك الوحوش.

«مَن هناك؟»، انطلق صوت فجأة في الظلام. وبدأ شعاع مشعل يبحث عني.

«أنا هنا، يا صديقي».

توجّه المشـعل باتجاه صوتي ثم سـمعتُ ضربات قوية لعصا على ظهور الكلاب، التي جرت بعيداً وهي تئنّ.

«ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت من الليل؟»، سـأل الرجل صاحب المشعل، الذي ظهر من العدم فجأة لينقذني.

«أنا الطبيب الألماني. لقد تمّ استدعائي إلى القصر».

دنـا الحارس الليلي مني ببندقية ذات ماسـورة طويلة معلقة فـوق كتفه وهراوة بيده اليمنى، وانحنى للأمام، موجهاً مشعله إلى وجهي ليتأكد بنفسه بأنني حقاً الرجل الذي ادّعيته.

«لكن يحسـن بك أن تحمل مصباحاً»، قال مؤنباً. «أنت تعلم أنه من الخطأ الفادح أن تسير في الشوارع في الليل دون مصباح».

لقـد كنت في الحقيقة من طبقة الأشـخاص الأثرياء الصغيـرة الذين يُتوقع أن يكون لديهم عمل في الليل، والذين يُحتمل بالتالي أن يكونوا في الشوارع بعد صلاة العشاء. لكـن حتى الأطباء، وموظفو الحكومة، وخدم الأمير أو المواطنون المرتـبطون بأعمال خاصة كان يُفترض بهم أن يحملوا فوانيس في الليل ليكشفوا عن هويتهم. فلقد استولى

ابن سـعود سـابقاً على الرّياض والهفوف من خلال غارة مفاجئة صاعقة، فهرّب قليلاً مـن الرجال إلى المدينـة في النهار، وعندما حلّ الظلام، فاجـأ هؤلاء الرجال الحرّاس وهزموا الحامية. وقد علم الحكام الجدد من خلال خبرتهم الشخصية بأنه من الممكن أن يسـتولوا على مدينة مُحصنة بعدد قليل من الرّجال الأشـداء. ولذلك السـبب ومنذ أن احتل ابن سـعود المنطقة، لم يسـمح لأحـد بالخروج من المنازل بين سـاعة صلاة العشاء، بعد ساعة من غروب الشمس، وحتى الفجر.

«لم يكن لديّ فرصـة لأحمل مصـباحاً»، قلتُ مبرّراً إهمالي.

«حسناً، يَحسن بك أن تشتري مصباحاً صغيراً مثل هذا» قال الحارس بغرور حاملاً مشعله الذي أنار لي به الطريق حتى باب منزلي.

اشـتريتُ في اليوم التالي مشـعلاً وعصاً قوية، لأني لا أرغب في أن أعرّض نفسـي للكلاب الشاردة مرّة ثانية أو أخاطر بالسقوط في أيدي العدالة لانتهاكي القانون.

كطرف نزيه فلقد علمتُ شـيئاً ما عن القضاء المحلي، لكن اكتسـاب الخبرة في هذا المجال، حتى من مسـافة أمان، كان امتحاناً قاسياً للأعصاب الأوروبية.

* * *

22 - عدالة العربية السعودية

أُخبرت يوماً أنني عُيّنت طبيباً في المحكمة. ولم يكن هناك تنصيب رسمي.

وعلى ما يبدو فأنني عندما أُحضرت للمرة الأولى إلى القصر من قبل الجلاد العام، قد استعملت التكتيك الصحيح في مُحادثتي مع الأمير. فمنذ ذلك الوقت وفيما بعد كان يدعوني كثيراً إلى القصر لأعالجه أو أُعالج أي فرد من عائلته بكل مهنية.

وكنت دائماً في هذه المرّات أجد نفسي أنقاد إلى مُحادثة من قبل الأمير حول عشرات المواضيع، ويجعلني أتحدّث لساعات معه عن ألمانيا وبعض البلدان الأوروبية الأخرى.

كان واضحاً أنه لم يكن هناك أي فائدة من إخباره عن مسارحنا وحفلاتنا الموسيقية أو متاحفنا. كان كل ما في عقل الأمير الواقعي اهتمام كامل بالمظاهر العملية للحياة الغربية: المؤسّسة العسكرية، الصناعة، الطبّ، العائلة، أو تأثير الكنيسة على الحياة العامة.

وقد اعتاد الأمير كلما شعر برغبة في الحديث معي، أن يرسل إليّ سواء كنت في المستشفى أو من فراشي. كانت تباغته رغبته في محادثات كهذه في أكثر الأوقات حرجاً. ومع ذلك فقد كانت الإزعاجات التي أعانيها من خلال دعواته المتقلبة سبباً في دعم مركزي، وضمان الأمن الذي اكتسبتُه كان يعني في الحقيقة شيئاً معقولاً في بلاد يكون فيها المنصب، والحرية، وحتى الحياة ذاتها تحت رحمة مشيئة الحاكم.

تحدّثنا مرة عن النظام الطبي القانوني في ألمانيا. فشرحت له بأنّ لدينا أطباء

خاصـون للسّـجن، وكذلك خبراء طبيّـون قانونيون واجبهم أن يُثبتوا سـبب الوفاة عند الشكّ بوجود حالة قتل.

وقبـل أن أغـادر القصر بعد هذه المُحادثة وجدت نفسـي قد عُيّنـت طبيباً لمحكمة العـدل في الهفوف. ولو أنني كنت أعرف ما هـي الواجبات التي تتطلبها هذه الوظيفة، لكنـت فضّلـت أن يُقطـع لســاني على أن أتحـدّث عن العلاقـات الألمانيـة بين الطب والقانون.

هـذا ويتمّ إقرار العقوبات في المملكة العربية السـعودية لكل جناية على حدة وفقا لحكـم القرآن، الذي يحـوي أكثر بكثيرٍ من ناحية التشـريع الاجتماعـي والجنائي مما يحويـه الإنجيـل. وفـي الوقت الـذي أُمر فيـه بتدوين القـرآن كان هناك قليـل جداً من البلدات المقامة في العربية الســعودية[1] ولا يوجد هناك سـجون للأشقياء. وبناءً على ذلـك، فإن كل الحدود المعلنة في القرآن هي أشـكال مختلفـة للعقوبات المادية، تبدأ مـن الجَلد للجرائم الثانوية إلـى الرّجم للزّنا وصولاً إلى قطع الرأس للجرائم الكبرى، مثـل القتل وادّعاء الإلوهية، وكذلك التحريض على العصيان أو أي عمل تخريبي ضـد الدولة. كان السّارقون يُجلدون عند جريمتهم الأولى والثانية. أما الجريمة الثالثة فكانت تُعاقب ببتر اليد اليمنى، أما إذا كان المجرم شـديد العناد بحيث يسـتمرّ في السـرقة بيده المتبقية، فان رجله اليسرى كانت تُقطع.

ولقـد خُصّص يوم الخميـس لتنفيـذ العقوبات المعلنة أثناء الأسـبوع الفائت. ولهذه الغاية كانت مفرزة من الشرطة تُخلي مركز السوق كميدان مُرتجل يُساق إليه الأشخاص المدانون لتُنفّذ فيهم الأحكام.

كانت الجرائم الثانوية تُعالج بالجلد أولاً، وقد اسـتلزم الأمر وجود سـتة أشـخاص لتنفيـذ الحكم. حيث يرمي أربع من عبيد الأمير بالرجل المُدان أرضاً ويثبتونه بسـرعة

(1) يقصد جزيرة العرب بالطبع، فمصطلح الدّولة السّعوديّة نشأ في القرن الثامن عشر للميلاد، واستمرّ إلى عصرنا الحاضر بصفة المملكة العربيّة السّعوديّة التي نشأت في مطلع القرن العشرين.

هائلة. أما العضو الخامس في المجموعة فكان السيّاط، وهو رجل أسود قوي البنية، كانت مهمته أن يسدّد عدد الضربات المحدّدة على ظهر الجاني العاري بغصن نخيل. بينما كان الشخص الأخير الذي يُشارك في هذه المراسيم هو كاتب المحكمة، الذي كان يسجّل عدد الضربات على نسخة الحكم ويُحصي كل ضربة إذا تركت أثراً دامياً على ظهر الضحية. ويقف الكاتب متابعاً وممسكاً في يده سوطاً سباعياً من الجلد المتين، لم يكن ليتردّد أبدا في استخدامه على ظهر الرجل الأسود إذا ما بدا له أن ذلك الأخير لم يضرب بالقوة الكافية.

وكان هناك المجرمون من أصحاب السوابق الذين تمّت إدانتهم بالسرقة، فكانت تُقيّد يدهم اليمنى بأحزمة جلدية ومرقأة لإيقاف جريان الدّم وتخفيف ألم العملية. ثم يقدّم مساعدو الجلاد يد الجاني بشكل أفقي وهي مشدودة بالكامل. ثم يقوم الجلاد، مرشدي الليلي، بشق جرح سطحي على معصم الجاني، ليُعلّم المكان حيث يريد أن يضرب. ثم يخطو خطوة إلى الوراء ويقطع اليد بضربة صاعقة خاطفة من سيفه المعقوف الموجه بدقة من مسافة قريبة، فتسقط اليد المقطوعة على الأرض المغبرّة أمام قدمي الضحية. في أثناء ذلك يوضع وعاء صغير مملوء بدهن ليغلي على نار أغصان مقطوعة بجانب مكان تنفيذ الحكم. تُغمر الجدعة في هذا الوعاء لمنع حدوث النزيف المفرط، ولا يمرّ وقت طويل حتى تُزال المرقأة. وتُربط اليد المقطوعة حول رقبة الجاني، الذي يُؤمر بمغادرة المدينة في الحال.

إحدى الحسنات البارزة لهذا الشكل الهمجي من العقوبة هي أن أي شخص يمكن أن يترك باب منزله مفتوحاً في الليل، دون خوف من السرقة التي تصبح مُتاحة وسهلة، لكن المجازفة لم تكن تستحق عناء المضيّ بها. وقد كان الخوف من التعرّض للاشتباه في التخطيط لسرقة بادياً حتى في المرضى الذين يقرعون بابي دون أن أُحدث أيّة ردة فعل مني، فقد اعتادوا أن يُغادروا المنزل بسرعة خشية أن يتم إيجادهم هناك ويُشتبه بهم بقصد السطو.

كان سجن الشرطة الذي كان الجانحون يُلقون فيه منذ ساعة اعتقالهم حتى تنفيذ

حكمهـم كان دائمـاً مفتوحـاً أمامي، وفي الحقيقة كنت مسـؤولاً عن صحّة السـجناء. إلا أنه مع ذلك، لم يُسـمح لي بدخول سـجن العبيد، حيث يُحتجز أشـخاص مذنبون بالإسـاءة ضد الدولة. وقد رفض الأمير الاسـتماع عندما اقترحـت بدافع الفضول، أنه يجب أن يُسـمح لي بمعالجة الأشخاص المودعين في هذا السجن، وسرعان ما أدركتُ سـبب تجاهل الأمير عندما علمتُ بأن هؤلاء السـجناء كلهم محجوزون بموجب أمر شخصي من الحاكم.

إنّ سـجن العبيـد، الـذي كان يُطلق عليه غالباً اسـم القلعة، يطل برأسـه على تخوم البلدة كتهديد مشـؤوم. وقد أكتسـب اسـمه الذي لا يحمل أي معنى مؤذٍ بحدّ ذاته من حقيقة أنه كان في أوقات السّلم يُستخدم كسجن للعبيد الآبقين، الذين كان يُحتفظ بهم هناك ويخضعون إلى عملية تليين إلى أن يأتي أسيادهم لجلبهم.

كان منظر الأسـوار العالية مع الأبراج الضخمة علـى الزوايا الأربع يعيد إلى النفس منظر القلاع الإقطاعية. إذ كان هذا البناء أثناء النظام التركي يُعدّ آخر نقطة للمقاومة في نظـام الحصـون، وكان مـن المُتوقع أنه حتى في حال نجـح المُهاجم في احتلال البرج الخارجي، فسـوف ينسـحب المدافعون أولاً إلى المدينة الداخلية، وعقب ذلك، فيما إذا تمّـت مهاجمتها سـيكونون عندها قادرين على أن يصمدوا في أبنية السـجن، فكل برج هو حصن بحدّ ذاته.

أيقظنـي كاتـب المحكمة ذات ليلة من فراشـي. فقد صدر الأمر مـن الأمير أنه كان علي أن أتولّى معالجة أحد السّجناء في القلعة. انطلقنا مُجهّزين بالمشـاعل والهراوات إلى سجن العبيـد *Sign el Abeed*.

كان كاتب المحكمة على علم بكل شيء عن السّجن، وعندما وصلنا وجدنا أنفسنا بمواجهة باب مفرد مُصفّح بالحديد شديد الانخفاض بحيث كان على المرء أن ينحني للأسـفل ليمرّ عبره. قرع الكاتب بجرأة على الباب بعقب مسدسـه. بعد برهة فُتح ثقب بحجم يد الرجل.

«أنا حسن، الكاتب»، قال رفيقي، مُوجهاً نور مشعله نحو وجهي. «لقد أحضرتُ الطبيب معي».

أُنزل الغطاء وسمعت صلصلة مفاتيح. كان هناك صوت سلاسل ومزاليج، وأخيراً فُتح الباب مصدراً أنيناً كئيباً من مُفصّلاته.

«أهلاً بك» نعق صوت أجشّ.

تمكنا من خلال نور مصباح من رؤية المحرس، وكان كبير السجّانين بانتظارنا. كان له عُكاز تحت إبطه الأيسر وبندقية في يده اليمنى. بدا شخصاً مراوغاً خانعاً وذليلاً. وقد أصيب حارس الجحيم هذا بعرجه منذ اليوم الذي قام فيه الأمير بزيارة مُفاجئة إلى السجن، وأمسك به يرتكب جُنحة، فقد قام في مقابل بقشيش سخي من أحد المساجين بتقديم قطعة من لحم الضأن لغدائه، وقد علم الأمير بذلك فطاش صوابه، فما كان منه إلا أن انتزع سيفاً من أحد العبيد وعطّل مفصل ركبة الحارس المرتشي بطعنة عنيفة.

قادوني مرة أخرى إلى فناء أناره فانوس معلق. وعند مدخل دهليز مُقبّى، سحب الرجل الأعرج أولاً ثلاثة مزاليج حديدية ثقيلة وأدخل مفتاحاً بطول قدم في قفل من طراز قديم، كان هناك عبدان أسودان قويّا البنية كالدّببة يجلسان على عجزيهما في الداخل، كذلك كان الحارس محبوساً في الداخل مع السجناء.

ومن ثم نزلت نحو الأسفل نحو مجموعة من الدرجات الحجرية من نوافذ القلعة. وقد امتدت الأرضية العليا للأقبية حسب تقديري بحوالي خمسة عشر قدماً تحت مستوى الأرض، والباب الوحيد الذي يمكن أن يدخل الهواء عبره إلى هذا السرداب الخفي كان مُغلقاً بشكل دائم، وبالتالي فمن الممكن للمرء أن يُخمّن نوع الهواء فيه.

وبعد مرورنا بيت الدّرج الثاني الذي يقود إلى مناطق أكثر عمقاً وصلنا إلى غرفة مقبّاة، تمتد بشكل متقاطع مع ممرنا، الذي قطعه حاجز قضبان حديدي. مرة أخرى قام حارسنا بسحب المزاليج وأدار الأقفال، وأخيراً وجدنا أنفسنا في رُدهة ضخمة بشكل متقاطع.

في كوّة في الجدار كان هناك مصباح مرتجل مؤلف من إبريق مربّى مليء بالزيت بفتيل طاف وأنار رعب المشهد بضوئه المترجرج، فقد استلقى ثمانية رجال في صفين على الأرض، ممدّدين بشكل متقابل عند الأقدام وقد نتأ من الثقوب الدائرية صفٌ طويل من الدعامات المثبتة على أرسغ أقدامهم.

لم يكن للمذنبين في حق الدولة أيّ حق في رؤية الشمس، وحتى الظلمة كانت مُحرّمة عليهم. بل كانوا يذبلون في ضوء مصباح الزّيت المترجرج مع أرسغهم العارية المحتكة بتلك الجذوع. كانوا يساقون مرتين في اليوم، قبل الفجر وبعد غروب الشمس، وهم مُقيّدون بالسلاسل إلى قاعة صغيرة داخلية للصلاة، والاغتسال والإطعام، حيث يلقون إليهم بالأرز والتمر وكأنهم بهائم، وكانوا كالبهائم يتقاتلون للحصول على طعامهم.

حدّقت بنا ثمانية أزواج من العيون من وجوه علتها طبقة من الكدر وأضناها الهزال.

أدار كاتب المحكمة مشعله فوق سلسلة من الهياكل المنبطحة، وأشار إلى رجل يرتدي ثوباً أزرقَ حريرياً، مُبللاً بالدم عند كتفه.

فتح عبدٌ قفل الدّعامات بينما عمل الحارس الأعرج على أن لا يستفيد أحد من السجناء الآخرين من الحريّة المؤقتة لأقدامهم بمحاولة الهرب.

رفع مريضي قدمه خارج الأداة الميكانيكية التي أُغلقت مباشرة مرة أخرى، لكنه قُيّد بعد ذلك بزوج من القيود وقذيفة مدفع كانت مربوطة إلى قدمه. أمره السجّان بعد ذلك بأن يرفع قذيفة المدفع ويحملها معه، لكن اليد الوحيدة السليمة التي لديه لم تكن قوية بدرجة كافية للقيام بذلك، وهكذا قام أحد الحراس الزنوج بحملها خلف السجين.

في فناء القلعة فحصتُ مريضي وضمّدتُ كتفه المجروح. كان قد تلقى رصاصة عبر العضلة التي بدا مع ذلك أنها ستشفى قريباً. أعطيته أيضاً حقنة مضادة للكُزاز وبعض أقراص السُلفا، وعندما أنهيتُ مهمتي، قام الكاتب إلى عمله، فجثم بجانب السجين

وبدأ يستجوبه بالهمس وراح الرجل يهمس بإجاباته.

لم أستطع أن ألتقط أيّة كلمة من شأنها أن تعطيني أيّة معلومة عن هوية الأسير الغامض، الذي بدا مختلفاً جداً عن الآخرين.

وبعد عشرين دقيقة نهض الكاتب واقتيد السجّين إلى العالم السفلي. فتح الحارس الأعرج الباب الذي صرّ بصوت مزعج، ولكني لم أستطع أن أزفر تنهيدة راحة حتى أُغلقت المزاليج خلفنا ودار المفتاح في القفل.

عزمتُ جاداً على ألا أكون فضولياً مرة أخرى وأطلب إذناً بالنظر إلى الجحيم.

ومع ذلك فقد كان ثمّة تجارب ألطف بانتظاري برغم مهامي في المستشفى، حيث أن خبرتي الشخصية المتزايدة ونقاشاتي المفعمة بالحياة مع الأمير لم تترك لي الكثير من الوقت لنفسي.

* * *

23 - القتال عند غدير الماء

بصفتي طبيب المحكمة، كثيراً ما كنت أُستشار من قبل الشرطة.

ذات صباح أرسل الآمر الرائد عبد الله، في طلبي وأخبرني بأن دورية شرطة قد وجدت جثة لشخص مجهول عند غدير ماء يبعد خمسين كيلومتراً.

وأخبرني الرائد بأنّ دورية الشرطة قد أُمرت بأن تذهب إلى المكان، وأن الأمير أعطى أوامره بأن عليّ أن أرافق المفرزة لإجراء تحقيق في مسرح الجريمة.

«هل قلت خمسين كيلومتراً؟ أنت تعرف أنني مشغول جداً».

«هذه أوامر الأمير».

«أعتقد أنك إذا أحضرت الجثة إلى هنا، فمن الممكن أن أقوم بتحقيق مُرضٍ أكثر ممّا سيكون هناك».

«أوامر الأمير».

يُعدّ أمر الأمير كقانون، وقد أطاع الرائد عبد الله دائماً القانون وعمل على أن يتمّ تنفيذه على الوجه الأكمل، إذ كان في السابق ضابط شرطة في العربية السعودية أيام الإمبراطورية التركية، وبقي في الشرطة المحليّة في جزيرة العرب عندما تولّى النظام الجديد السلطة. هذا التركي الهرم الأشيب يبلغ الآن من العمر 65 عاماً، لكن على ما يبدو أنه لا يمكن الاستغناء عنه نظراً لخبرته الكبيرة بمهنته فضلاً عن ولائه للأسرة الحاكمة، الذي كان من الرّسوخ بحيث أنه لم يستطع أن يفهم جرأتي في أن أناقش أمراً للأمير.

أمـا أنـا فما زلت أجـد الطاعة العمياء أمراً صعـب التحقيق إلى حدّ مـا، على الرّغم من وجود مُتسـع من الوقت أمامي لأتعوّد عليها. وبأيّ حال فقد ركبتُ حالاً في سيارة الجيـب، فكنتُ الرّجـلَ الخامسَ في مفـرزة متجهة إلى مكان في الصّحـراء الجنوبية. جلس بجانب السائق قائد الدورية، الرّقيب محمود، بينما تقاسمتُ المقعد الخلفي مع رجل شرطة ومقتفي الأثر عُمَر.

كما هو الحال بالنسـبة للرائد، فقد كان عُمر المناصير باقياً على قيد الحياة منذ زمن الأتراك. فمنذ شبابه كان قد عيّن كمقتفي أثر من قبل الشرطة التركية وهو الآن قد طعن فـي السّـن لدرجة تمنعـه أن يتذكر تلك الأيام عندمـا كان عرب شـبه الجزيرة يملكون عدداً قليلاً جداً من المـسدسات والبنادق، وعندما كانت تثور حرب قبلية حول النساء، والمـاء، والجمـال، وأراضـي الرّعـي، فقد كانـت ما تزال تنشـب بالسّـيوف المعقوفة وهـراوات الضـرب، والخناجر، والرّماح والتروس، وفي واقع الأمر أنه في أيام شـبابه كان بعـض رجال القبـيلة يحملون بنادق دَكّ تُعبأ من فوهتها، كانت غالباً محلية الصنع، وكثيـراً ما زُخرفت بشـكل فني بالعـاج، والفضة، وعروق اللؤلؤ، لكن عُمـراً لم يُحبّها ولم يعتد فيما بعد على استخدام الأسلحة الآلية، وفي آخر المطاف قرّر أن يحمل سيفاً مجـرّداً كسـلاحه الوحيد. ومع ذلك فـإنّ هذا الرجل الأعزل كان تقريبـاً خصماً مهيباً، ولم يكن ذلك فقط بسبب قوّته البدنية الهائلة.

عندمـا وصلنـا بالقرب من الخزانـات، ظننت أننا نقتـرب من آثار معبـد قديم. فقد بَـدَت لنـا أعمـدة حجرية طويلـة تنتصب وسـط فوضى من بلاطـات صوّانيـة، فبدت تماماً كفنّ معماري غابر لآلاف من السـنين، لكن الطبيعة وحدها كانت المسؤولة عن تلك الأشـكال التي نراها، فقد جوّفت سـيول الشـتاء خلال آلاف السـنين منحدر التل الصخري مخلّفة أشكالاً مشابهة للأعمدة، ثم اندفعت أسفل المنحدر العميق فحفرت قاع بركة، بينما نَمَت حول تلك البركة بعض النباتات دائمة النمو.

وجدنا الجثة وكانت مخفيّة بين غصنين سميكين، حيث كان صاحبها مُستلقياً على ظهره ورأسه وأذرعه في الماء. كان يدور فوق رؤوسـنا نسـران، ينتظران أن نذهب بعيداً

لتـترك لهمـا الوليمـة التي بدآها مـن قبل. كانت ملابـس الرجل الميت المشـبعة بالدّم ممزّقة، لكن الجروح السـطحية التي لاحظتُها في البداية كانت من فعل النسور. سحب رجال الشرطة الجثة خارج الماء.

«لا يرتـدي الرجـل حزامـاً»، علّـق أحدهم فـي الحال. فمـن المعـروف أن العرب المحليين يحملون دائماً نقودهم في أحزمتهم، والاسـتنتاج بأنّ الضحية قد قُتل لأجل ماله كان واضحاً.

وعندمـا قمنـا بثني الأطراف، كنت قادراً أن أثبت أن التخشّـب الناجم عن الوفاة قد حـدث في مرحلة مبكرة، ولاحظتُ أيضاً أن الجسـد لم يكن بـارداً تماماً. لا يمكن أن تكون الوفاة قد حدثت قبل ساعات الصباح الباكر.

«ما سـبب وفاته؟». سـأل الرقيـب محمود، الـذي كان يتابع معاينتـي باهتمام. كان صعباً أن أجيب على السـؤال. فقد كنت أشـك أنه كان من الممكن أن أميّز على جسـد مزّقت معظم لحمه طيور مفترسة أيّة علامات تدلّ على علّة مرضيّة أو عنف بشري.

كان تشريح الجسـد الميت مُحرّماً في العربية السعودية، وبالنتيجة فلم يتم الكشف في الأغلب عن جرائم القتل بالسّـم. لذلك فقد كان هذا المنهج في التحقيق غير متاح بالنسبة لي.

ولم أستطع أن أجد على الرأس، أو الصدر، أو بطن الجثة أيّة جروح لم تتأثر بمناقير أو مخالـب النسـور. ومع ذلـك، فعندما كنت قد قطعت الأمل تقريباً في تحديد سـبب الوفاة، اكتشـفت ثقبين ضيقين عميقين لم ينشـأا من أسـنان حيوان أو منقار نسـر. كان حـول أحدهما علامة بلون أرجواني واسـتنتجت بأن سـكيناً أو خنجـراً قد أُدخل حتى المقبض، خادشاً اللحم عند الدخول إلى الجرح.

نهضتُ على ركبتي قائلاً: «الرجل مطعون».

«نعـم، أعـرف» قال صوت عميق خلفي، كان عُمَر مقتفي الأثر، الذي كان يسـتطلع هنا وهناك أثناء معاينتي الجثة، «أعلم، أظهرت لي الآثار ماذا حدث».

بينما كان رجلا الشرطة يدفنان الرجل الميت قادنا عُمر، الرّقيب وأنا إلى الأعلى إلى المنحدر الحجري الذي يُشرف على غدير الماء حتى وصلنا إلى السّطح الرملي للصحراء. وقف هناك وأشار إلى ثلاث آثار لرجال مُشاة. اتّجه اثنان منهما باتجاه غدير الماء والثالث في الاتجاه المعاكس.

ثم ركع وقاس عرض آثار الأقدام بمقياس خشبي رفيع أخرجه من جيبه.

«عاد الرجل ذو الأقدام الأصغر» قال. «لديه رقعة على عقب خفّه الأيمن» وأشار إلى شكل غريب في طبعة القدم.

تبعنا آثار الأقدام حتى وصلنا إلى فجوتين كبيرتين مُسطحتين في الرّمل.

«هنا بركت الجمال». كانت هناك آثار جملَيْ متاع قد أتيا من الشرق إلى المكان واقتيدا بعد ذلك باتجاه الجنوب.

تابع عُمر: «أتى رجلان إلى هنا في الصّباح الباكر. إما أنهما معارف أو تعرّف أحدهما على الآخر في الطريق، وقد انطلقا معاً. الآثار متوازية ولا يتقاطع أحدها مع الآخر أبداً، برك الجملان كلاهما هنا وترجّل الرجلان وهبطا معاً إلى غدير الماء وهناك قتل أحدهما الآخر. عاد القاتل وحده وانطلق بعيداً مع الجملين».

صاح الرقيب محمود على السائق ليستعدّ. ثم قال للرجل المسنّ: «هل تظن بأننا ما زلنا قادرين على اللحاق بالقاتل؟».

«ولم لا تنتظر حتى تصلك أخبارٌ عنه من إحدى القرى بدلاً من مطاردته؟»، سأله عُمر.

«سيكون عليّ عندئذ أن أقوم برحلتين في الصّحراء، لكي أذهب وأمسك به»، جادل الرقيب، متخذاً وجهة نظر منطقيّة تماماً. كانا كلاهما هو ومقتفي الأثر متأكدين بأن أحد شيوخ القرى سيرسل نبأً عاجلاً أم آجلاً بأن القاتل قد التجأ إلى قريته، فإذا ذهبنا في إثره الآن، فإن ذلك سيوفّر علينا عناء الذهاب مرة ثانية لاعتقاله. «بهذين البعيرين»، تابع، «لن يكون بعيداً أكثر من أربعين كيلومتراً».

ذهب عُمر لمعاينة الآثار مرة أخرى، وركع بجانب تلك التي تقود للجنوب. «الحيوانان كانا جملي أمتعة مسنّين»، كما قال: «وإلى جانب ذلك، فقد رُكبا طوال الليل ولا بدّ أنهما أُرهقا تماماً الآن». أشار إلى طبعاتهما وأظهر كيف أن الحيوانات كانت تجرّ أقدامها للأمام. «لا بدّ أن ندركه خلال ثلاث ساعات»، حسب ما استنتج.

وهكذا اندفعنا متخذين سبيلنا نحو المطاردة، فجلس عُمر إلى جانب السائق متابعا أثر الحيوان بتركيز. كان سهلاً أن نتبعه مع بذل الجهد المتواصل، لكننا تقدمنا أخيرا إلى أرض صلبة مُغطاة بأجمات من أعشاب الصّحراء الجافة، حتى وجدنا أنفسنا أخيراً في وسط سرب ضخم من جمال الرّعي.

«علينا أن نستسلم الآن» قلتُ باستياء، «حتى ولو حصلنا على الآثار مرة أخرى، فلن نكون قادرين على تمييزها حيث بدّل الشخص بالتأكيد حيواناته المتعبة بواحد من جمال الرّكوب الرشيقة والسّريعة هذه».

هزّ الرقيب رأسه قائلاً: «هذا كلام صحيح فعلاً»، «إن الرّجل لم يهرب على أحد هذه الحيوانات. لديه فرصة ضئيلة للاختباء مع جمليه المسنّين العاجزين، لكن مع هجن جيدة تحمل وشم الأمير، فإنه سوف يُعتقل بالتأكيد من قبل أيّ شيخ قرية. أنت تعلم أن هذا القطيع ينتمي لحاكمنا».

اندفعنا بأقصى سرعة ممكنة عبر القطيع، لكننا أضعنا الكثير من الوقت في مراوغة الحيوانات المجترّة. ثم رفع عُمر بصره إلى الشمس.

«وقت الصّلاة، يا مسلمين!» صاح. «توقف، يا حسن».

بدا غريباً بالنسبة لي أنه بينما كنا نطارد قاتلاً هارباً، قد أضعنا آثاره وربما قد نحتاج ساعات لإيجادها مرة أخرى، أن نُدعى لوقفة من أجل الصّلاة. إذا لم نلحق به في الحال، فقد يجد الهارب فرصة ويفرّ مباشرة مع انطلاقه البعيد.

«ألا تستطيعون تأجيل صلاتكم؟»، قلت، والجميع مشغول. «بالتأكيد أن إلقاء القبض على قاتل يجيز تأخير الصّلاة!».

كان الرجـال الأربعـة قد خرجوا فعلا من الجيب وفرشـوا حصير صـلاة من القش على الأرض.

قال لي عُمر برنّة احتقار في صوته. «هذا شـيء لا تفهمه أنت. إذا شـاء الله، فسـوف نمسك بالقاتل حتى إذا حُمل على جمل طائر».

وعند هذا الحدّ استدار، وخلع خفّه متوجهاً بوجهه نحو مكة، وبدأوا جميعاً باتخاذ وضعية الصّلاة.

عندمـا اسـتأنفنا المطـاردة وجدنا المرعى بـدأ ينقص حتى تحوّل أخيـراً إلى أرض رملية. ثم طلب عُمر من السـائق أن يتوقف وبدأ يُفتش على مقربة عن آثار ضائعة. قُدنا بشكل بطيء خلفه وكان لدينا متسـع من الوقت لنتحدث.

«أخبرني» قلت للرّقيب، «لماذا نصحك عُمر أن تنتظر أخباراً من شـيخ القرية، بدلاً من أن نسعى وراء القاتل؟ فإذا كان لديه الوقت الكافي قبل أن تبدأ المطاردة، وإذا قاده طريقـه عـلاوةً على ذلك إلى منطقة حجرية، حيث لن يسـتطيع حتى عُمر أن يتبعه، فلا أفهم كيف بإمكان أيّ شخص أن يعلم أين هو في هذه الصّحراء اللامتناهية».

«لا يمكن لأحد أن يختبئ في السّعودية». قال الرّقيب بشكل صريح.

«ولـمَ لا؟ الصّحراء ضخمة، ولا متناهية بشكل فعلي».

«يجب ألا تنسى» أجاب، «بأن النّاس يحتاجون طعاماً وماء. معظم الجيوب المائية هي واحات مسكونة. والأصغر بينها، حتى تلك الينابيع التي تُحفر بشكل سرّي معروفة للشرطة. على القاتل أن يذهب إلى الماء».

«نعم. ثم يُتابع طريقه».

«لا يتجـوّل الناس هنـا كثيراً، وكل فرد في القبيلة يعرف الأفـراد الآخرين، وبالتالي فالغريب يظهر في الحال، على الرّغم من أنه يُسـتقبَل بالتأكيد بالضيافة المألوفة، حيث أنـه فـي الصّحـراء لا أحـد يرفض الطعـام والمـاء والملجأ. لكنـه واجب شـيخ القرية

(العُمـدة[1] omdeh) أن يسـأل كل غريـب من أين أتى وإلى أين سـيذهب، ولأي قبيلة ينتمي».

بدا مثل نظام التعريف الذي لدينا في وطننا! حتى في الصّحراء يجب أن يكون هناك نظام.

«يحاول الأشـخاص الهاربون من العدالة أن يخدعوا شيخ القرية. لكن، أنت تعلم، أن البـدوي الـذي تنحصـر معرفتـه فقط بالخيـول، والجمـال، والأغنام، والأسـلحة، ولهجات الصّحراء، لن يخدع بسـهولة مواطناً من الحجاز، بأنه تاجر من اليمن. يمكن لشيخ القرية أن يستبين مثل هذه الادّعاءات الكاذبة ليس فقط من لهجة رجل وملابسه، ولكن من الوشم، واللون، وحتى من جلد الجمل الذي يركبه. علاوةً على ذلك، هناك في كل منطقة سُلالات مختلفة للجمال، يمكن تمييزها بسـهولة بالنسبة للعين الخبيرة، كما يمكن لرجل المدينة أن يميّز الموديلات والصناعات المختلفة للسيارات».

«لكن ماذا لو أحجم شيخ القرية عن الإبلاغ أو اعتقال شخص مشتبه؟».

ابتسـم محمود. «هنـاك اسـتثناءات قليلة جداً، ولكـن يمكن الاعتماد على شـيوخ القُرى، ومنذ أسـابيع مضت كانت لدينا حالة من ذلك النوع، بدوي من قبيلة شـمَّر كنا قـد اعتقلناه، اعتـرف أنه خطّط للاختباء لبضعة أيام في واحـة الحاني[2] el Hani. ولم يبلّغ شـيخ القرية (العُمدة)[3] عن وجوده، وتمكّنا من إثبات أنه قد أهمل واجبه، فتلقى الضرب بالسّـياط عقوبة لذلـك، وبالإضافة إلى ذلك، كان علـى القرية أن تدفع غرامة ألفـي ريال، ولجمع ذلـك المبلغ توجّب على القرويين أن يرهنـوا محصول التمر وأن

(1) يستخدم المؤلف في هذا المقطع تعبير العُمدة لذكر شيخ القرية، لكن هذا التعبير غير مألوف البتة في جزيرة العرب، بل من الواضح أن المؤلف يستعمله من خلال ما سمعه في إقامته الطويل بمصر.

(2) يصعب معرفة صواب التسمية بالعربيّة لكون الموقع صغيراً ولم يعيّن القائل مكانه، لكنها إما الحاني أو الهاني.

(3) نكرّر ما قلناه أعلاه، فتعبير العُمدة غير مألوف في جزيرة العرب، بل يسمّى كذلك بمصر.

يبيعوا الجمال والخراف. إنني أؤكّد لك، سيمضي زمن طويل قبل أن يحاول أيّ شيخ قرية اقتراف عمل كهذا مرة أخرى، فقط لمجرّد أن يساعد هارباً».

فكّرتُ في نفسي أن الأمر أكثر سهولة في دولة عصرية بالنسبة للمجرم أن يذهب إلى أرض في مدينة ضخمة مزوّدة بقوة شرطة مدرّبة، من أن يذهب إلى الصّحراء.

رفع عُمر يده وصاح: «توقفوا!» لقد وجد أثراً، وجثا على ركبتيه لمعاينته.

«وجدنا أثره من جديد». قال وهو يعود لمقعده في الجيب. «البعيران كلاهما منهوكا القوى، وخلال ساعة سنمسك به».

«نعم»، قال محمود بهدوء، «غدير الماء في عين نجم[1] Ain Nigm يبعد فقط مسافة ساعة ركوب من هنا. سنجد رجلنا هناك».

كانت المسألة واضحة تماماً. علينا أن نسرع نحوه إلى غدير الماء. فلا يمكن أن يكون في أيّ مكان آخر.

وقبل مسافة قصيرة من غدير الماء، كان هناك كثيب رملي مرتفع يُعيق طريقنا، ولكيلا نضطر إلى أن ندور حوله، صعدنا بكل جدّ باتجاه قمة الكثيب بحيث نستطيع أن نرى من هناك غدير الماء تحتنا مباشرة. كانت هناك عدّة شُجيرات شوكية منتشرة في منحدر غير عميق وبركة من الماء العكر تعكس أشعة الشمس. استلقى في الجوار جملان نائمان ورقبتاهما ممدودتان على الأرض، ولم نستطع أن نرى الرّاكب.

كانت حركتنا التالية خطأً تكتيكياً فادحاً، فقد انزلقنا عبر الرّمل الحرّ باتجاه غدير الماء عندما أزّت طلقة تحذيرية فوق رؤوسنا مباشرةً، وعرفنا أننا لسنا في أمان بل كنا كأهداف في حقل رمي. دوّت طلقة أخرى فأسقط أحد رجال الشرطة بندقيّته مطلقاً صيحة عالية وصفع بيده إلى صدره. صرخت بالرقيب «ابقَ بعيداً عن الحافّة»، ورحت أتدحرج بشكل عرضي نحو أسفل المنحدر حتى توقفت خلف جلمود.

---

(1) من الواضح أن المؤلف غلبت عليه اللهجة المصريّة في نطقه للعربيّة، فلا غرو إذ كان أغلب إقامته الأولى بمصر، وفيها تعلّم العربيّة.

تابـع الآخرون ركضـاً وانزلاقاً ودحرجةً، حتى لحقوا بـي، بينما زحف محمود إلى جانبي ليتقاسم صخرتي، عندما أُطلقت علينا طلقتان إضـافيتان.

«إنه يكمن في الدُّغل إلى يمين الماء» قال الرّقيب، وقام بتصويب بندقيته من جانب مخبأنـا وأطلـق عدة طلقات إلى الشـجيرة الشـوكية، وعلى ما يبدو فـإن رصاصاته لم تصب الهدف.

وحسبما يظهر فلقد كنا تحت سيطرة الهارب من مخبأه. أعاد محمود التلقيم وأخطأ الهـدف مـرة أخرى، لكن قبل أن يسـتطيع أن يُطلق مرة أخرى سـمعنا صيحة عالية من الدُّغل. وضع الرقيب سلاحه أرضاً وحدّق ليرى ما يحدث.

«اخـرج!» صـاح صـوت عميق من الدُّغـل. «لقد رأيتُـه». وعندها اندفـع عُمر نحو شخص ذي شعر مُتلبّد ولحية شعثاء، يبدو كرجل بدائي، وأومأ لنا لكي نأتي إليه.

لقـد كنا نعرّض أنفسـنا مباشـرة إلى نـار عدوّنا عندما هبطنا سـطح الكثيـب، انزلق الرجـل المسـنّ من الجانب الآخر وأتـى من الخلف، وقد تغلّب علـى الهارب بصراع بالأيدي. كان عُمر لا يُقاوم.

كان الرّقيـب منزعجاً. «لمـاذا لم تخبرني ما قصدتَ عمله»، قال. «كان بوسـعي أن آتي لأساعدك».

«سـتكونُ عندهـا عقبـةً فـي طريقـي، لأن الرّجلين يصـدران ضجّة أكثـر من رجل واحد».

«افترض أنه سمعك، وأطلق عليك النار قبل أن تثب عليه».

«ومـن قـال لك أنـي وثبتُ عليه؟ لقـد رميتُه بحجر مـن الأعلى هناك». وأشـار إلى الكثيب، «وأصبتُه في الرأس. إن الحجر المُصوّب بشـكل جيّد يكون كطلقة من بندقية - أو هكذا تعلّمت».

لكن الحجر لم يقتله، بل استلقى فاقداً الوعي برأس دامٍ، وعندما عاد وعيه إليه كان

سعيداً أن يقبل كأساً من الشاي من الرّجل الذي ضربه بعنف. لم يكن مُقيّداً، وبدا سعيداً وهو يجلس مع معتقليه يشرب الشاي حول نار من العيدان والأعشاب، ولا يتوجّب عليه القيام بأيّة محاولة إضافية للهرب، هكذا نظر إلى الأمر، لقد ارتكب جريمة قتل عمداً ثم قام بكل ما في وسعه للهرب، لقد تورّط في معركة يائسة. لكن الآن وقد أُسر وجُرّد من سلاحه، فقد استسلم لقدره بإيمان شرقيّ بالقضاء والقدر.

«إلى الصّلاة! يا رفاق، إلى الصّلاة!» صاح عُمر مرة أخرى، ونهضت المجموعة الصغيرة مجهزّين أنفسهم لأداء الفريضة، كان عُمر الإمام ووقف الآخرون صفاً خلفه، وتحوّلت وجوههم باتجاه مكة - الرّقيب محمود، القاتل، والشرطي المجروح ورفيقه.

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله». بدا أن الله لا يريد للقاتل أن يهرب.

بعد عدّة أسابيع رأيتُ الرجل مرة أخرى، ولم يكن مظهره قد تغيّر.

كنتُ قد أُمرتُ أن أحضر مُحاكمته لتقديم شهادتي فيما يتعلق باكتشاف الرجل الميت. جرى التحقيق الأوّلي في القصر، وكانت جريمة قتل الرجل عند غدير الماء واحدة فقط من الحالات المُدرجة على القائمة، وعندما وصلتُ قاعة المحاكمة بالدّقة الألمانية، كانت تُقضى شكوى أخرى. كان الأمير سعود، حاكم ورئيس المحكمة لمنطقة الإحساء، مُقيماً للعدل حسب أوامر القرآن، في كافة الدّعاوى المدنية، وكذلك كان القاضي الأعلى في جميع الدّعاوى القضائية الجنائية، الكبيرة والصغيرة. رفع الأخير بصره بانزعاج عندما فُتح الباب وشققتُ طريقي عبر حشد من المتفرجين المهتمين.

عندما ميّزني، استبشر وجهه، وأومأ لي أن آتي وأجلس بجانبه على المنصّة، حيث جلس مُحاطاً بحارس شخصيّ مُسلح وعدد من وجهاء الهفوف.

لكنه ركّز انتباهه في الحال في القضيّة التي كان ينظر فيها. حدّق على نحو مروّع ببدوي صغير مهذار بدت على وجهه الذي يشبه الصقر سيماء شريرة، وعندما دخلتُ

القاعـة كان يجـأر ببراءته بكلمات بليغة وإيماءات شـاملة جارفة. بينمـا كان المُدّعي، وهو رجل خُلاسـي بدين، يمكن للمرء أن يدرك بسهولة أنه تاجر، كان واقفاً خلفه عند إحدى جهتيه.

جلسـتُ بصعوبة، وعندها بدأ المدّعى عليه، الذي بـدا أنه توقف قليلا مع دخولي، بمتابعـة دفاعه ومتحدثاً بمواضـيع كثيرة مرة أخرى. ومـع ذلك، مَنَعتْهُ إيماءةٌ من الأمير من الاسترسال في كلامه.

«قهـوة!» *Qahwa!* قال الأمير لأحد الحراس، وتماماً كما حدث عندما دخلتُ إلى القصر للمرة الأولى، تكررت الكلمة «قهوة!» مجدّداً من قبل الكاتب إلى البواب ومن خلال البواب إلى الحارس في الدّهليز، حتى وصلت أخيراً إلى حجرة القهوة. ودخل الولد الأسود بإبريق قهوته وقدم الفناجين إلى الأمير وجميع ضيوفه على المنصة.

«أقسـم باللـه وحيـاة أولادي...» قال المُدّعـى عليه، مجرّباً حظه مـرة أخرى، لكن إشارة فظة أسكتته مرة أخرى.

«استمع إلي»، قال الأمير، موجهاً حديثه إلى المُدّعى عليه، بينما أمسك فنجانه بيده اليمنى وأشـار إلى الرجل بسبابته اليسرى. «لقد وقّعت ورقة تفيد بأنك استلمت قرضاً بثلاثـة آلاف ريـال، ولم تُعد النقود بعد. فإذا لم تفـي بذلك القرض خلال ثلاثين يوماً، سوف تذهب إلى السجن وتبقى هناك حتى تدفع عائلتك دينك».

«لكن...»، بدأ الرجل.

«لا تقـل - لكـن -» قال الأمير. «لقد انتهـى الموضوع. يا كاتب»، قـال، ملتفتاً إلى رجـل يجلس علـى الأرض عنـد قدميه مع دفتـر للكتابـة وقلم رصاص. «سـينال هذا الشخص ثلاثين ضربة لحنثه بقَسَمه. هل دوّنت ذلك؟ ثلاثون، قلت».

ثم استدار إليّ وقال: «وكيف حالك، عزيزي الطبيب؟».

تحدّثنا لمدة ربع سـاعة في شـتى المواضيع، حتى اسـتذكر الأمير أن عليه أن يُحاكم رجلاً مُتهماً بالقتل.

أُحضـر المتهم مكبلاً بالسلاسـل إلـى المحكمة بأمـر الأمير، فقدّمتُ أنـا والرّقيب شـهادتينا فيما يتعلق باكتشـاف الجثـة والظروف التـي اعتُقل فيها المتهـم. أقرّ المتهم باعتـراف صـريح بجريمته خاضعـاً إلى حُكم الأمير فيه، الذي بحسـب النص القرآني، سيحكم عليه بالموت بالسّيف.

نُفّذ الحُكم في اليوم التالي، وبحسـب العُرف فقد أخلت الشـرطة مكاناً في سـاحة السـوق. وتـم اقتياد الرجل المُـدان إلى مكان التنفيـذ من قبل عبيد الأميـر، حيث كان الجلاّد بانتظاره بسـيفه المسـتلّ من غمده، وكذلك كان حاضراً أيضاً موظف الحكومة الذي يقتضي واجبه الإشراف على الدّعاوى القضائية.

بيديـه المقيّدتيـن إلى ظهـره، ركع الرجل المُـدان على الأرض وأحنى رأسـه، أمام يحيـى الجـلاد، الذي وقـف إلى جانبه ورفع سـيفه ليضربـه، لكن الرّجل أحنى رأسـه غريزيـاً بيـن كتفيه، فما كان من الجلاد إلا أن طعنه في خاصرته بسـنان السـيف، الأمر الذي جعله يتلوّى من الألم ومدّ رقبته. فما كان من الجلاد إلا أن وجّه في الحال ضربة قاصمة فصلت الرأس عن البدن.

* * *

24 - العبيد

يأتـي مرضـاي إليّ وهـم مبتلون بأغرب الأوجـاع والآلام، ومثـل كل المرضى في العالم، تجد لديهم أفكاراً مُسبقة عن سبب معاناتهم.

«أظـن أن لـديّ روماتيزم فـي ركبتي»، قال رجـلٌ صـغير الحجم، مُنهـك القوى في الخمسين أتى لاستشارتي.

بدا وكأنه لم يستخدم الصابون والماء منذ سنوات، وقد أرخى شعره الأسود الطويل ملتفاً كخيوط متشابكة تنزل على ظهره. لكن هذا الشخص الصغير الضئيل أظهر لي بثبات كيف يستطيع رجلٌ حقيقي تحمّل الألم.

«دعني ألقي نظرة»، قلت.

أخـذتُ مريضـي إلـى العيادة وبـدأت بفحصه. تحسّسـتُ ركبته بعناية فـي محاولة لتحديد مكان الألم، وعندما قمت بذلك، اكتشفت ورماً مُدوّراً قاسياً عندما لمسته تأوّه مريضي. شعرت بالشـيء وكأنه طلقة ولكنني لم أجد أيّة ندبة دخول في منطقة الركبة، سألته إذا كان لديه جرح رصاصة.

«واحـدة؟» قال الرجل باحتقار. «يا بني، جسـدي مُغطى بالندبات، على الرّجل أن يتحمّل. أنا الشيخ فهد البياري من قبيلة بني هاجَر[1]».

سـحبتُ سـروال الشـيخ فهد للأعلـى عندمـا أردت أن أرى إذا كان فخذه قد حمل

(1) في الأصل ترد التسمية: Beni Hajjar التي يمكن أن تقرأ: بني حجّار، لكن الأغلب أنه يعني بني هاجر (الهواجر) من القبائل القحطانيّة في المنطقة الشرقيّة والكويت.

أي علامـة لجـرح طلقة قديم. وقـد تأكدتُ عندمـا وجدت ندبة قديمـة بعرض الكف تقريبـا فوق الركبة دون علامة خروج، ومن ذلك اسـتنتجت بـأن الرصاصة ما تزال في قدمه، وقد تحرّكت مع مرور السـنين إلى الأسفل حتى وصلت إلى ركبته. كان هذا هو الرّوماتيزم الذي يتذمر منه.

«ليس لديّ بروكايين procaine للتخدير في المنزل»، قلتُ. «تعال إلى المستشـفى غداً، وسوف أُخرج الطلقة».

«غداً؟ لا، افعلها الآن. نحن بنو هاجَر لا نخشى الألم»، صرّح بفخر.

وحيـث أنني لا أملـك طاولة عمليات فـي منزلي، فقد كان علي أن أجعله يسـتلقي علـى الأرض، وقمـتُ بتعقيـم الجـزء الذي يجـب أن أعمـل عليه ثم جرحـت الجلد فـوق الرصاصـة. كان عليّ أن أجري بعض الضغط الجانبـي، لكنني نجحت أخيراً في استخراج الرّصاصة بملقط.

اسـتلقى مريضي كل الفترة سـاكناً بـلا حراك، لكنه كان بين الحيـن والآخر يرتعش قليلاً ويصدر تأوهاً ضعيفاً. وعندما انتهى، كان يشـعر بضعف إلى حدٍّ ما وطلب الإذن ليرتاح بُرهة قبل أن يُتابع طريقه، فأعددتُ له قهوة واستبقيتُه.

كانت الطلقة التي أمسـكها بيده وهـو يتأملها من عيار حوالي 11 ملم. كانت قصيرة بالنسبة لبندقية وطويلة بالنسبة لمسـدس.

سألته إذا كان يعلم من أيّ سلاح قد أُطلقت الرّصاصة.

قال إنها «مارتيني شتوتزن[1] Martini-Stutzen». هذه البندقية ذات الماسورة القصيرة وتُلقّم من مؤخرتها، ذات عيار 11 ملم، وقد صُمّمت في الأصل كبندقية لسلاح الفرسان.

---

(1) تسمية شتوتزن بالألمانيّة تعني بندقيّة الصّيد القصيرة، وقد دخلت إلى اللهجة العربيّة الخليجيّة بصيغة (شوزن) التي تعني البندقيّة ذات الجفّ الأملس (Shotgun بالإنكليزية). والسّلاح المذكور أعلاه نموذج قصير من بندقيّة مارتيني هنري الإنكليزية Martini-Henry التي صنعت بين 1871 - 1891 وعيارها 577/450. إنش.

«لكن بندقية مارتيني شتوتزن قد توقف استخدامها منذ وقت طويل، أليس كذلك؟».

«إن عُمر جرحي الذي سببته هذه الطلقة» قال مُشيراً إلى ركبته المضمّدة، «هو خمس عشرة سنة، وفي تلك الأيام كانت بندقيّة المارتيني عملياً هي السّلاح الناري الوحيد لدينا[1]. ولم نحظَ بأسلحة حديثة إلا منذ الحرب الأخيرة».

«إذا كان ذلك منذ خمس عشرة سنة مضت...» بدأتُ بالكلام، لكنه قاطعني بنبرات كبرياء خبير «يجب أن تعلم» قال، «أنني كنتُ تاجر العبيد الرّسمي لبلاط قصور السّاحل الشرقي. فقد كان على كل حاكم أن يتزوّد سنوياً بعدد محدّد من العبيد لاستخدام الملك، وبالإضافة لذلك، على الأمير أن يُبقي موضع إقامته في حالة جيدة، والتجار الأغنياء عليهم تزويده بذلك. يمكن أن أخبرك أنني كنت شديد الانشغال في تلك الأيام».

«كنتَ ستخبرني كيف أصبت بالجرح»، أضفت.

كنت في ذلك الوقت شديد الإطلاع على عادات المنطقة، وأن ممارسة تجارة العبيد كانت تبدو لي عادية تقريباً.

«اصبرْ، يا صديقي!» قال الشيخ. «سأخبرك قصّة سوف تمكنك من أن تفهم».

أخذ رشفة قهوة وأشعل سيجارة. «حسناً، كنت معتاداً في ذلك الوقت على أن أقوم برحلات كثيرة، بصحبة عمّي الفاضل إلى عُمان وقَطَر، بهدف شراء العبيد. كان هذا تماماً عندما بدأ النفط يتحوّل إلى تجارة مربحة. أصبح الناس أثرياء بين ليلة وضحاها وأرادوا أن يحصلوا على عبيد جُدد، فارتفعت الأسعار. كنا سُعداء، إلا أنه فجأة أصبح هناك نقص، وبدا في الحال كأنه لم يعد يوجد عبيد للشراء، وهكذا لم نعد نستطيع الخروج للعمل وكان علينا أن نخطف الأطفال ونبيعهم كعبيد». بدا وكأن هناك العديد من الأشياء التي كنت أجهلها.

---

(1) تأكيداً على ذلك، راجع ما يذكره الرحّالة البريطاني وليَمسون (الحاج عبد الله فضل المسلماني) في منطقة الخليج العربي، وكيف كانت بندقيّة المارتيني هنري هي السّلاح الناري الأكثر شيوعاً بين أيدي القبائل. انظر كتاب «رحلات المغامر العربي» في هذه السلسلة.

«كنا ذات يوم في قَطَر، وكان عمّي المحترم، الذي يتمتع الآن بنعيم الجنة بعد عناء هذه الحياة الدنيوية، كان يعسّ ويستكشف الأرض فاكتشف فرصة واعدة لتطوير أعمالنا، وأثناء الليل، بينما كان عمي يُراقب الجمال، دخلتُ منزلاً واختطفتُ فتاتين في العاشرة من العمر من فراشهما. لا بدّ أنني كنت أخرق، فقد بدأت إحداهما بالصراخ واندفع عبدان داخلين، تركتُ الفتاتين وتدلّيت خارج النافذة ثم ركضت إلى السور الذي يُحيط بالمنزل. بوثبة واحدة كنت فوق قمته لكن العبيد كانوا قد لمحوني فعلا وبدأوا بإطلاق النار. أطلقوا النار بشكل سيء جداً، فقد كان القمر مُنيراً والمسافة قريبة ولو كنت في مكانهم، فلن يكون للمتطفّل أيّ فرصة. أطلقوا على الأقل ست طلقات، واحدة منها فقط أصابتني - وهي هذه هنا. بقيتُ مستلقياً على الأرض خارج السور، حيث لحسن الحظ تم القبض عليّ من قبل دورية شرطة».

«ماذا تعني، لحسن الحظ؟».

«يا صاحبي، أنت لا تعرف الناس في قَطَر. فلو لم تأتِ الشرطة لكان العبدان الأسودان قد قتلاني وليس على الفور، ولكن بشكل بطيء من أجل متعتهما».

«نعم، لكن كونك اعتقلت هو شكل معدّل من السعادة».

«بالطبع، أنت محقّ، لقد وضعوا السلاسل حولي وربطوا قذائف مدفع إلى قدمي، صدقني أيها الطبيب، كانت تزن على الأقل ضعفي وزني، ثم أخذوني إلى الحدود وسلموني إلى شرطة السعودية، التي وضعتني بطبيعة الحال في السّجن».

علمتُ أن خطف الأطفال يُعدّ جريمة كبرى. لكن ها هو ذا الشيخ يقف أمامي بكل نشاط، يضحك وهو يشرب قهوته، لقد أفلت من سيف الجلاد، وهكذا لا بُدّ أنه كما يبدو خرج من السجن.

«كيف هربت؟» سألت. «هربت؟»، كرّر كلمتي.. «عليهم أن يتركوني أذهب، فبرغم كل شيء أنا واحد من بني هاجَر كما أخبرتك».

«أعلم، ولكن ما علاقة ذلك بإطلاق سراحك؟».

«ألا تعلم؟ قدّمت قبيلتنا أكثر من أيّ من القبائل الأخرى المعونة للملك عبد العزيز بن سعود، حفظه الله، لفتح أرجاء جزيرة العرب، وكردّ للجميل لدعمنا أصدر الملك مرسوماً بألاّ يُحكم على رجل من قبيلة بني هاجَر بالموت أبداً، وحيث أن الخطف ليس واحداً من الجرائم المستحقة للعقاب المذكورة في القرآن الكريم، فقد كانوا مُجبرين على أن يتركوني أذهب».

انتصب واقفاً وسار لعدة خطوات ليرى كيف كانت ركبته.

«حسناً»، قال وهو يبتسم برضا.

«إلى أين ستذهب الآن؟» قُلت له بينما كان يغادر.

«إلى القصر»، قال «لدي حديث عمل مع الأمير».

واختفى في عتمة المساء وهو يعرج قليلا.

* * *

يتوجّب على أميرنا في كل سنة أن يقدّم سبعين عبداً لسيده المطاع، الملك، بينما كان علينا نحن أطباء مكتب الصحّة أن نقدم تقريراً من وقت لآخر عن صحّة القوافل القادمة إلى الهفوف والمغادرة إلى العاصمة. كان العمل الذي ذهب صديقي الهاجري لمناقشته مع الأمير يتعلق بشكل جليّ بتجارة العاج الأسود «العبيد»، الذي كانت أسعاره ترتفع طوال الوقت منذ أن أغنت أرباح النفط الكثير من الناس، فزاد الطلب على العبيد. وماذا عن مصير هؤلاء السود، الذين كانت حياتهم، كما وُصفت في رواية «كوخ العم توم»[1]، نوعاً من الرتابة البائسة؟

رأيتُ خلال السنة المئات من هؤلاء الناس وعالجت بضعة مئات منهم، كانوا

(1) كوخ العم توم *Uncle Tom's Cabin* رواية عالميّة مشهورة للأديبة الأميركيّة هاريت بيتشر ستاو Harriet Beecher Stowe نشرت في عام 1852 وهي تصوّر معاناة السّود في أميركا إبّان نظام العبوديّة. هزّت هذه الرّواية ضمير الولايات المتحدة بعمق، ويُنسب إلى الرئيس أبراهام لنكولن قوله عنها: «إذن فهذه هي السيّدة الصغيرة التي أشعلت هذه الحرب الكبيرة».

يُرسَلون للعلاج لأنفه عذر، ولم يكن ذلك من أجل الاعتبارات الإنسانية، بل لأنهم يُمثلون ثروة تزيد عن 400 جنيه للقطعة الواحدة.

ولم يكن بدافع الإنسانية الصِّرفة، أن يُعامَل العبيد على الدّوام بشكل أفضل تقريباً من العمّال الأحرار والموظفين. فقد كان العبيد دائماً ما يبدون أكثر انتعاشاً ويلبسون بشكل أفضل من الأفراد الأحرار من الطبقة الأدنى، لأنهم كانوا نوعا ما يُمثلون مالكيهم، تماماً كما في البلدان الغربية - مع أنني لا أحب هذا التشبيه - حيث يُحكم على الرجل إلى حدٍّ ما من خلال مظهره وصيانة سيارته، وهذا هو الحال في الجزيرة فإن العبد الذي لا يتغذى بشكل جيد، والذي يرتدي ملابس رديئة أو سيئة يعود بالعار على سيده. وكان هذا أحد الأسباب لماذا توجب عليّ في مهنتي أن أعالج عبيداً كثيرين بعدد المرضى الأحرار.

كل واحد من العبيد في قصر الأمير، والذين يعدّون بمجملهم حوالي المئتين، كان يتولّى مهمة شديدة الوضوح والتحديد، فكانت المهمات العرضية مثل تحضير القهوة موزعة بين ثلاثة أولاد مراهقين من السود: واحد ليُحمّص البنّ ويطحنه، وواحد ليغلي القهوة، وآخر ليقدّمها. وهكذا كان الحال في مهن أخرى، فكان لكل عبد مهمّة مُخصّصة في نظام الواجبات، وبالنتيجة، فإن معظمهم لم يكن لديه أي شيء تقريباً ليقوم به. أما العمال الأحرار فقد كان عليهم أن يكدحوا للحفاظ على حياتهم، بينما كانت أمور العبيد جاهزة ومرتبة دون أي إلزام بالعمل الشاق، ونادراً ما يسمع المرء عن عبيد يتذمّرون من نصيبهم. كانوا غالباً راضين ولا يتمنّون حياة أخرى. لم أستطع أن أرى في أيامي الأولى في السعودية عبداً دون أن أقابله بشعور عميق بالشفقة، ولكن عندما اكتسبتُ معرفةً وخبرة أصبحتُ مقتنعاً أنه لا يمكن للمرء أن ينزل عقوبة قاسية بعبد أكثر من أن يحرّره من حياته الخالية البال من الهموم والمسؤوليات وإطلاقه إلى حياة الحرية. وقد سمعتُ بحالات أن عبيداً محرّرين قد أتوا يقرعون أبواب أسيادهم السابقين ويتوسّلون إليهم وعيونهم ملأى بالدّموع لكي يعودوا.

ليس ذلك بالطبع دليلاً على أن الحياة الخالية من القلق بديلٌ مناسب عن الحرية الحقيقية، لكن الحياة بلا حرّية تجعل شخصاً غير قادر على حياة الحرّية. كذلك يمكن

مقارنة الرغبة بالعودة إلى العبودية، مع موقف كثيرين من المحكومين السابقين في بلدان الغرب، والذين وجدوا أنفسهم صغاراً جداً في وطنهم مع الحرية، فهم سيتهزون أدنى فرصة ليعودوا إلى السّجن. وهكذا هو الحال في السّعودية، فالولد الذي تربّى في ظل العبودية ليس لديه تجاه الحرّية إلا نزعة باهتة أو أنه لا يتوق لأن يكون حرّاً، ويمضي حياته بشكل آلي دون مُعاناة في حياة العبودية.

كان تأمين العبيد قديماً يتم بشكل حصري من السّاحل الشرقي لأفريقيا من قبل التجار والغزاة. لكن هذه التجارة الآن قد قاربت على التوقف تقريباً، ومعظم العبيد في السّعودية ينحدرون من سلالات عبيد ولذلك فهم يُولدون في الأسر، أو في مكان ما ويُباعون في سوق العبيد كأطفال لأهل فقراء. لكن لا يزال هناك تجارة مستوردة من العبيد من قَطَر، وعُمان، وحضرموت، والحبشة.

ومن النادر اليوم وجود تجارة بالإماء من أوروبا والشرق الأدنى، لكنها مع ذلك موجودة بصعوبة، وإلا لما كنت أحلم يوما بأن أصبح يوماً مالكاً لأحدى الإماء.

ففي ليلة ماطرة من العام 1951 استدعيتُ إلى منزل إبراهيم التاجر لأزور أَمَةً مريضة. وكالعادة، استُقبلت لدى وصولي من قبل مُضيفي في الصالون الكبير وقُدّمت القهوة وسط طقوس الترحيب الرسمية. جلس إبراهيم على مقعد ملتفّ مُزوّد بوسائد، لأنه بسبب حجم بطنه الهائل لا يمكنه أن يصالب قدميه ككاتب يجلس على الأرض في زاوية بعيدة للغرفة، ويكتب بخط الرقعة *riqqa* الجميل في دفتر حساباته، هكذا كان نصف جالس ونصف مستلقٍ، حاول إبراهيم أن يكون مرتاحاً قدر استطاعته على مقعده، ويمزح مع العبد الذي جلب لنا القهوة.

وعندما انتهت كل الشكليات في آخر الأمر أصبحتُ قادراً على أن أكرّس جهدي لمريضتي.

حدّقت بي عينان سوداوان كبيرتان من وجه شاحب، غائرٍ إلى حدٍ ما، بينما كنت أتحسّس نبض مريضتي، متمنياً أن أضيء جوّ القهر من حولنا من خلال حديث ودّي

صغير، سألت الأمَة عن اسمها.

«ناديا»، قالت ونظرت إليّ وتعابير رُعب ارتسمت على وجهها.

«بالتأكيد أنت لست من جزيرة العرب».

كانت بشرتها البيضاء، وشكل وجهها أبلغ إجابة على سؤالي.

«لا أنا من حمص في سوريا».

أنهيتُ فحصي واستنتجت أنها لا تعاني اضطراباً عضوياً، ربما كانت المشاكل التي عانت منها في الغالب تحدث بسبب عصبي. بينما كنت أكتب لها الوصفة لعقار مسكّن وآخر منشط جلستْ ونظرت إليّ بتركيز. ثم قالت، «ولا أنت عربي أيضاً».

«لا، أنا ألماني *Alemani*».

«هل أنت عبدٌ أيضاً؟». يبدو بشكل جليّ أنها تظن في عقلها أن كل الأجانب في السعودية كانوا عبيداً.

«لا»، شرحتُ، «أعمل هنا بإرادتي الحرّة. ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل اشتراك أحدٌ ما في حمص؟».

«لا»، قالت وهي تنظر إلى الأمام كأنها تقول: «أعتقد أن هذا ما حصل». ثم تردّدت قليلاً قبل أن تقول: «آه، لا أعرف».

أثارت كلماتها الغامضة المتردّدة فضولي، فألححتُ عليها لتخبرني قصتها، ومع أنها كانت مُعارضة في البداية، فقد وافقت في النهاية.

كانت الابنة الرابعة لعامل متقطع يعيش قرب حمص. «يوماً ما» قالت، أخبرها والدها أنه تعرّف إلى رجل من دمشق، كان يبحث عن زوجة. وأظهر لها صورةً للرجل وتمّت الموافقة على أنها سُتعطى لهذا الغريب.

«وبعد عدة أيام» تابعت الفتاة «ذهب والدي مع الرّجل من دمشق إلى القاضي، ووُقّع عقد الزواج، وفي اليوم التالي ظهر رجل في منزلنا وأخبرني أنني أصبحتُ زوجته.

ذهب معي مع صرّة صغيرة حملتُ فيها أشيائي إلى حلب، حيث ركبنا طائرة».

«إلى أين تأخذني؟». سألت.

«إلى دمشق».

«لكن لا يحتاج المرء لطائرة ليذهب إلى دمشق».

«بالطبع لا»، قال، ولكن حيث أنه كان يعلم أنني لم أسافر بالطائرة أبداً فأراد أن يمنحني مفاجأة صغيرة. لم أدرك أن الطريق طويل هكذا إلى دمشق بصحراء كثيرة وبحر أزرق هائل يمتدّ تحتنا».

«وبعدئذٍ بدلاً من دمشق وجدت نفسك في جدّة؟». كما فهمت.

«ربما»، قالت، «لا أستطيع القراءة ولم أرَ دمشق أبداً».

تابعت لتخبرني بقية قصتها. في جدّة أخذا غرفة في فندق، وبعد أن وصلا مباشرة أخبرها زوجها بأن عليه أن يخرج ليفي بموعد عمل طارئ، وعندما غادر الغرفة أدار المفتاح في القفل. كثيرٌ من الرجال العرب يحرصون على كل ما يتعلق بحفظ شرف زوجاتهم بحيث لا يتركوهن أبداً دون حراسة - ولم تشك ناديا بأي خطأ حتى مضت ثلاث ساعات ففُتح الباب، وبدلاً من زوجها دخل تاجر سعودي وأخبرها أنه اشتراها لتوه. وهكذا وجدت نفسها مملوكةً وخليلة شرعية لهذا الرجل. وبعد مدّة ملّها التاجر واستبدلها بفتاة أخرى، كانت مُلكاً لأحد أصدقائه من التجّار في الرياض. وقدّمها سيّدها الجديد هديّة لابنه، الذي باعها إلى رجل من الأعيان في الهفوف، والذي بدوره سلّمها إلى إبراهيم التاجر، ككفالة لدين، وهكذا كان أن أتيتُ لأجدها في جناح النساء في بيت إبراهيم.

خلال هذا الوقت عرفت مئات العبيد وكانت وجهة نظري فيما يتعلق بالعبودية مثل العرب تقريباً. بدأت أعتبر القانون كشيء طبيعي وبديهي ومُقدّر من العناية الإلهية. لكنني وجدت نفسي الآن متعاطفاً مع الفتاة، ولم يكن ذلك فقط بسبب بشرتها البيضاء، بل لأن ناديا كانت الأولى والوحيدة من العبيد الذين قابلتهم لم تُذعن

وترضخ لقدرها.

بقي تعاطفي مع ذلك نظرياً بشكل كامل، فلم تسكني الطبيعة لأكون بطل الشاعرية، الذي يحمل فتاة جميلة متّشحة بعباءة ويهبط عن الجدار بمساعدة زحافة ملائمة بعد أن يقتل اثنين من حرس الحريم، ويقوم بمخاطر شجاعة لا تُحصى، ثم يحضر غنيمته الجميلة نحو المنزل والأمان.

بعد عدّة أسابيع، قُبيل عيد المولد النبوي بفترة قصيرة، والذي يتشارك مع بعض خصائص الميلاد عندنا، حُلّت هذه المشكلة تحديداً بالكامل بأسلوب عملي غير شاعري على الإطلاق، فخلال إحدى محادثاتنا الليلية سألني الأمير إذا كان يستطيع أن يلبّي لي أيّة رغبة بمناسبة العيد الديني.

كانت هناك أشياء كثيرة أستطيع ذكرها، لكني بالتأكيد لم أستطع أن أفكر بأهمّ منها في تلك اللحظة الحرجة وحدث لي أمرٌ غريب جداً، فقد استعدتُ حزن ناديا، وغَزَت عيناها المعبّرتان ذاكرتي. وهكذا بدأتُ أروي القصة الطويلة والمعقدة كيف غُرّر بالفتاة، فاستمع الأمير إليّ بانتباه.

عندما انتهيت قلت: «أعطِ هذه الفتاة حريتها».

«هل هي جميلة؟».

«نعم».

«هذا سيء» قال الأمير بتعبير مرير، لقد تمنّى بشكل واضح بأن هدية المولد لن تكلفه الكثير.

«لكن هل هي عذراء؟».

«ليس تماماً».

«هذا أفضل» قال وهو يهزّ رأسه «ومن هو سيدها الحالي؟».

«إبراهيم مهنا، التاجر».

انفجر الأمير في ضحكة رنانة. «لماذا لم تقل ذلك رأساً؟ يمكنك شراء أمَة منه بمجرد قصيدة. يجب أن تعلم أنه ليس لديه اهتمام بالفتيات».

والآن أتذكّر كيف كان ينظر إلى صبي القهوة.

«جيد جداً، إذن»، تابع الأمير. «سأشتريها لك».

«لكني لا أريدها كهدية، أريدك أن تمنحها حريتها».

لم أستطع أن أرى مخرجاً من هذه الورطة.

«لا يستطيع تحريرها غير سيّدها فقط» أصرّ الأمير. هازّاً رأسه. «لا أريد شراءها لنفسي، لكن كهديّة لك، ثم بإمكانك الاحتفاظ بها أو إطلاق سراحها، الأمر يعود إليك».

لم يكن هناك مكان للخطف في هذه الأرض الهانئة الوادعة بحقول نفطها وخطوطها الجوية وسعر السّوق المحدّد لكل شيء بدءاً من الجمال وحتى الإماء. وهكذا، بعد عدّة أيام، كنتُ أودّع ناديا عند المطار. اغرورقت عيناها بالدّموع عندما ودّعتني للرحيل قائلة: «لن أنسى أبداً طيبتك، أيها الطبيب». قلت: «لا تنسي، ستأخذك طائرتك إلى الظهران، حيث يقابلك هناك صديقٌ لي ويصطحبك بعيداً في طريقك إلى دمشق. تأكدي أنك ستصلين حقاً هناك هذه المرّة».

قبل سنة مضت تقابلنا مجدداً، لقد تزوّجت من بائع كتب شريف في دمشق. وجدتُها تقف بجانب كومة غسيل.. كان ثمّة توأمان يزحفان على الأرض عند قدميها، ورضيعٌ ثالث يضحك في مهده.

«أنا الآن أمَة حقيقية» ضحكت ناديا وأشارت إلى الطُغاة الثلاثة الذين كانت تكدح من أجلهم. «لكن صدّقني يا حكيم، ما أحبَّ ذلك إلى قلبي»[1].

* * *

(1) الواقع أنّ هذه إحدى أجمل قصص الكتاب، وتدلّ على طيبة وكرم في قلب هذا الطبيب الألماني، الذي تفاعل مع مجتمعاتنا العربيّة في كل من مصر وفلسطين والسّعودية، أعجبته أشياء ولم يفهم أشياء أخرى، لكنه حافظ على نظرة احترام وتفهّم مقبولة وجديرة بالتقدير.

25 - الحملة على البُريمي

«مال ما عندنا، مال ما عندنا».

"Mal ma andina, mal ma andina!".

«حلال ما عندنا، ولا زَينات[1]».

عندما جلس البدو القرفصاء حول نار المخيّم، كان حزنهم باديا للعيان وهم يغنون لازمتهم المتواصلة عن الأشياء التي لا يملكونها. لقد سمعتهم يتغنون بهذا الرّثاء الحزين في فلسطين أيضاً، أنشودة بأحرف تنبعث من الحلق في ظلام دامس.

«مال ما عندنا...».

أرسلتُ امرأة جميلة إلى دمشق حيث تنتمي، وأمّا حلالي فقد تألف من حقيبة متوسطة الحجم للأدوية وأدوات جراحة. كان وطني الهفوف، والصحيح أن أقول أنّه لا وطن لديّ، ولا حتى في حياة المغامرة، إلا أنه من العدل أن تدعو حياتي في ظل هذا الشرع الشديد القبضة بأنها مغامرة. ربما كانت كذلك، فعلى الرغم من أنني كنت أتمتع بحظوة الأمير، فأنا لم أعرف أبداً متى كانت نيران الصّحراء ستحرقني، ويجدر بي الآن أن أفكّر بالعودة إلى وطني الأصلي، حيث انتهى عقدي، لكن الحرارة اللاهبة كانت أكثر مما كنت احتمل.

«مال ما عندنا...».

لم تعد هناك أيّ حوادث مثيرة في حياة موظف الصحّة العام في الصّحراء. كانت

---

(1) المراد بالزّينات هنا النساء الجميلات.

حرارة صيف الخليج العربي من القوة بحيث لا تسمح بوقوع الحوادث، فلا أحد سيمشي يباردة واحدة ما لم يكن مضطراً للقيام بذلك، حتى أنا لم تكن لدي الطاقة لأمشي من مكتبي فوق الرّمل الملتهب في ساحة السوق إلى منزلي لأتناول غدائي.

عندما سارت شاحنة إلى ساحة السوق تحت المكتب، بقيت غمامة الغبار الصفراء التي أثارتها ساكنة بلا حراك في الهواء.

وبينما كنا نشاهد الشاحنة تصل، سمعت زميلي الطبيب ناجي Nagy يقول: «آه، كلاب الجنة». كان يجلس بجانبي عند النافذة، ضجراً وتعباً مثلي، مُحدقاً للأسفل إلى ساحة السوق.

بقيت غمامة الغبار ثابتة عندما توقفت الشاحنة. فتح باب السائق وخرجت الحرارة متبخّرة وكأنها تنبعث من فرن خبّاز. ثم نزل السائق ورفيقه وأنزلا اللوح الخشبي.

التقط السائق عموداً طويلاً وبدأ يبحث هنا وهناك تحت مظلة النافذة. بينما كان صديقه يخبط بيديه باتجاه جوانب الشاحنة صارخا بأعلى صوته. ثم رأيت الحمولة الاستثنائية التي كانوا يحملونها. عشرة، عشرون، ثلاثون كلباً قفزت كلها إلى ساحة السوق، نظرت حولها، وهي تنبح بشكل متردّد، وفجأة اختفت كحزمة أشباح رمادية بين المنازل.

«أفترض أنّ هذه تعزيزات» قلت، «لتمنع كلاب الهفوف الشاردة من الانقراض».

ابتسم الطبيب ناجي. «هل تعني أن تقول أنك بعد كل هذا الوقت لا تعلم ما هي قصة الكلاب؟».

«لا تضايقني، الجو شديد الحرارة هنا لأفكّر وخاصة بالكلاب».

«حسناً، لن ينهكك أن تستمع إلى حكاية خُرافية».

«تابع» قلت، «أخبرني حكايتك إذا كان لديك رغبة بذلك».

«مرة كان هناك ملك»، بدأ الطبيب ناجي بالابتسام، «رغب في أن يغزو أرض

صحـراء كبيرة، لكـن كانت هناك بعض القبائل عارضت أن تُغـزى. وذات ليلة، وبينما كان الملـك وجنوده يغطّون في نوم عميق فـي المدينة، نجحت عُصبة من أعدائهم في التسـلّل إلى المدينة، وغرضهـم أن يقتلوا الملك، لكن كانت فـي المدينة كلابٌ كثيرة وبـدأت تنبـح بغضب، وفي الحـال انتبه الجميـع للمتطفلين، استيقظ الملك وجنوده وهـرب أعداؤهـم. ثم تعهّد الحاكم الممتنّ بعدم التسـامح بقتـل أيّ كلب في عاصمته بعـد الآن، وأعطى أوامره لحاجبه بدفع منحـة حكومية للكلاب تتألف من وجبة يومية من لحم وأرز».

«حسناً، وماذا بعد...؟».

«هذه نهاية قصتي. وإذا أردت أن تعرف فالعاصمة تدعى الرّياض، والملك هو عبد العزيز بن سعود. ولـو لم تمُتْ تلك الـكلاب تحديداً حينها من أمراض الشيخوخة، فـلا بـدّ أنهـا كانت حيّة حتى اليـوم. أتوقع أنك تريـد أن تعرف ما علاقة تلك الشـاحنة بقصتـي؟ حسـناً سـأخبرك، بما أن كل الكلاب تحـت حماية الملك ولا يُسـمح لأحد بقتلهـا، فلا يبدو أن هناك شـيء ليكبـح تزايد تعداد الكلاب، لم يكن هناك شـيء على الأقـل حتـى خرجت السـلطات بفكرة جيدة تقضي بجمع عشـرات الـكلاب من مدن مختلفـة وترحيلهـا إلى أماكن أخرى، وكما سـمعت فإن الـكلاب المحليّة لا توافق». مـا زالـت المعركة الأولى بين كلاب الهفـوف والمُتطفلين من الرّياض جارية والضجّة ضخمة. تابع الطبيب ناجي تفسـيراته: «في غضون أسـبوع سيغدو المهاجرون لا شيء غيـر جلـد وعظم، إذ أن الكلاب البلدية لن تسـمح لهم بكسـرة طعام. إنها إذن مسـألة أيام فقط قبل أن يُعضّ القادمون الجدد حتى الموت أو يموتوا من الجوع. لكن التعهّد تعهّد، وفي الرّياض لا يُسـمح بترك كلب يموت من الجوع».

لـم يعدّل حديـث زميلي الذي كان يهذر به مـن حرارة الجوّ، ورأيـتُ غمامة الغبار الصّفراء التي قد بهتت الآن، ما زالـت تطفو فوق السـاحة. كان لا يزال أمامنا عدة أسابيع من الحرّ، إذ كان التاريخ 29 أغسـطس من سنة 1952.

أتـى أحد عبيـد الأمير الشـخصيـين، وهو يرتدي جلاّبيته الزرقاء المميّزة، كان يسـير

مُسرعاً إلى الساحة تحت الحرارة الشديدة حاملاً رسالة بأن علينا الحضور إلى الأمير مباشرة - نعم، كلانا.

كان العُرف عندنا عندما ننزل إلى المدينة، أن نأخذ حقيبة الأدوات معنا، وعندما وصلنا القصر مبللين بعَرَق متقاطر، وجدنا الأمير بانتظارنا في قاعة المقابلات الرّسمية، كان معه اثنان من البدو وعُمر مُقتفي الأثر، وقد أوحى وجود عُمر بوجود حادثة كالقتل عند غدير الماء.

لم يُضيّع الأمير وقتاً، أخبرنا أن علينا نحن الطبيبين أن نبدأ رحلة فورية بصحبة عُمر والبدويين لنعالج بعض الأشخاص الذين أصيبوا في حادثة في مكان ما خارج المدينة.

«أحمّلك المسؤولية بروحك عن أمن هذين الطبيبين». قال لعُمر على نحو مؤثر. «إذا حدث لهما شيء، فمن الأفضل لك ألا تظهر هنا مرة أخرى».

كان جاداً بشكل مُفرط، ثم صرفنا دون أيّة إيضاحات إضافية، فركبنا سيارةً خارج القصر وسارت بنا إلى البوابة الجنوبية للمدينة، حيث وجدنا هناك ضابط شرطة قد جنّد كل الشاحنات القادمة وأوقفها في صف.

«اخترْ السيارة التي تريد أن تأخذها» قال مُشيراً إلى الشاحنات. «أقترح الحمراء، الفورد، فما زالت جديدة جميلة إلى جانب أن اللون جذاب».

عندئذٍ أنَّ صوتٌ محتجاً.

«السيارة ليست جديدة، والمحرك على وشك أن يقع ويتفتت إلى قطع». سُمح للرجل أن يتكلم، لكن لا نقاش لأمر الأمير.

«نريد سيارةً ثانية» قال عُمر، ناظراً بحدّة إلى السيارات الأربع الباقية، التي كان أصحابها الأربعة قد بدأوا يتنهّدون براحة، كان عُمر محقاً، فإنّ رحلة طويلة في الصّحراء من شأنها أن تتسبّب بعبء هائل على المحرّك. صرّح المالكون كلهم معاً في آنٍ واحد بأن كل الشاحنات لا تصلح وأنها معرّضة للتحطم، لكن عُمراً، الهادئ

والخبير، اختار الشيڤروليه. ثم تسلق هو وأحد البدو مقعد القيادة للفورد الحمراء، فيما اتخذ الرجلان الآخران مكانهما في الشاحنة. جلسنا زميلي وأنا بجانب السائق في الشيڤروليه، وصُدمنا قليلاً عندما أُخذنا إلى مرآب عسكري لنأخذ كفايتنا من النفط وقِرب الماء قبل المغادرة إلى المدينة.

تضاءلت البيوت عندما اقتربنا من الصّحراء، وقُدنا عبر مزارع التّمر، ومررنا بالمواقف والمسالخ، حتى تركنا أخيراً وراءنا حفر نفايات نتنة على حافة المدينة مليئة بالحمير، والأبقار، والجمال الميتة وتمرّ بكل مراحل التعفن. وكانت حشودٌ من الكلاب الهجينة وعدة نسور تُنقّب في تلك الأكوام المروّعة.

عند المساء لم نكن قد وصلنا بعد إلى موقع الحادث، وصلنا أبو قيص[1] Abgaiz على الخليج العربي، حيث كانت هناك مصفاة نفط، وهناك ذهبنا إلى العُمدة[2] *omdeh*، الذي دعانا لنأخذ قسطاً صغيراً من الراحة في منزله. كان السيد المحترم لهذه المقاطعة الصغيرة، على نحو مميز، عبداً للأمير.

«هل الطريق إلى مكان الحادث بعيد؟»، سألتُ عُمراً قبل أن نبدأ الرحلة مرة أخرى.

«أوه» قال، «لا أفترض أننا نحتاج أكثر من يومين لنصل هناك».

«نحن ذاهبون إلى الصّين، إذن؟».

«لا، المكان لا يبعد إلاّ القليل بعد سلوى[3]»، قال الرجل المسّن بهدوء كما لو أنه كان يأخذنا في نزهة في الجوار.

أخبرت الطبيب ناجي بأنّ عُمراً قال إن مكاننا المقصود كان وراء سلوى.

---

(1) الواضح أنه يعني راس أبو قيص إلى الجنوب الشرقي من قطر.
(2) أسلفنا أنّ المؤلف يتبع اللهجة المصريّة، بينما لا يُستعمل تعبير العُمدة في جزيرة العرب.
(3) سلوى موقع سعودي على الحدود الجنوبيّة الغربيّة لقَطر، وباسمه يُعرف خليج سلوى الفاصل ما بين قطر والبرّ السعودي جنوبي المنطقة الشرقيّة.

«هـذا هـو الطريق الذي تأتي منه الرّيح»، قال، وأطلق صافرة من بين أسـنانه. «لا بُدّ أنهم يأخذون مسألة البُريمي بشكل جدّي».

«أيّة مسألة؟».

«إنها قضيـة معقدة» قال. «واحة البُريمي، الواقعة الآن في منطقة عُمان، كانت سابقاً إحدى الممتلكات التي تمت حيازتها. وقد تنازعت عُمان والسعودية حول تلك البقعة العامـرة من الأرض والتي كلفت الحكومة أكثر من الضرائب التي يدفعها الناس. وفي آخر المطاف هجرتها الحكومة السعودية وتركت السكان ليتدبّروا أمورهم بأنفسهم».

«ولماذا يجب أن يهتم بها أحد الآن؟».

«سأعطيك ثلاثة تخمينات».

«النفط» قلت ببعض الثقة.

«ولـد ذكي»، قال زميلي موافقاً، «ولهذا السـبب أصبحت هذه القطعة من الصَّحراء القاحلة فجأة ملكية نفيسة، تنازعت عُمان والسعودية على ملكية النفط تحت الأرض، فادّعى الملك سعود بأنه المالك الأصلي للثروة، واتخذ سلطان عُمان الموقف نفسه مدّعياً بـأن المنطقة تنتمي فعـلاً إليه، طالما أنها هُجرت من قبل سعود، ومن الواضح الآن وكأن الملك سعود قَصَد أن يُسوّي المسألة بالقوة».

«تعني أنه ببساطة أرسل حملة إلى البُريمي واحتلّ الواحة؟».

أومـأ ناجي موافقـاً: «لن أتفاجأ بأن ما يُسمى «الحادث المروري» سيتهي ليكون صداماً مُسلحاً بين السكان المحليين والقوات السّعودية، فلن يرغب السكان المحليون بالعودة إلى ولائهم القديم».

«لا أستطيع الكفّ عن التساؤل كيف حصل الأمير على أخبار مبكرة كهذه عن هذا الحادث».

«حسـناً، أنـت تعلم، السـعودية دولة عصريـة، وليس من الصعوبـة أن تحمل جهاز

إرسال في حقيبة أو صندوق سيارة».

وفي الواقع وبسبب استغراقنا بالحديث في السياسة، فقد فاتنا الانتباه إلى أن سائقنا كان ينحني أكثر فأكثر فوق عجلة القيادة وأنه كان في الحقيقة، يقود في نومه وقد انحرف مسافة بعيدة عن الطريق، ولم نعد نرى الضوء الخلفي للسيارة التي تسير أمامنا، لعنّا السائق وهو، دون شك، ردّ على توبيخاتنا جميعها بكل إذعان وصمت. عدنا بعد القيام بحركات متعرّجة كثيرة إلى الطريق، ولكننا لم نرَ أيّ أثر للسيارة الأخرى، وتوجّب علينا أن نُحافظ على وخز سائقنا في أضلاعه بمجرد أن ينخفض رأسه للأمام. وعند حوالي منتصف الليل غطّ ناجي في النوم، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى تبعتُه.

أفقت على رجّة عنيفة وضربة قاسية على الرأس، مع لعنات مُدوّية لزميلي، الذي كان شديد التمكّن من الشتائم العربية[1]، وسرعان ما وجدنا أنفسنا وقد غُصنا إلى محاور العجلات في رُكام رملي وقد صدم كلانا رأسه في الزّجاج الأمامي عندما قمنا بتوقف مفاجئ.

علينا أن نخرج بطريقة ما، داس السائق على البنزين، لكن العجلات دارت حول نفسها في الرّمل لتنغرز بشكل أكثر عُمقاً.

أخبرتُ السائق أن يُحضر جاروفاً وبضعة أكياس من الشاحنة. خرج وانحنى قبالة السيارة، كان ما يزال نائماً جزئياً، ونظر محدّقاً إلى المحور الخلفي.

«ليس لدي جاروف»، قال مكفهرّاً، وهو يضطجع في الرّمل بجانب السيارة ليرى ما يمكن فعله.

لم نستطع بالتأكيد أن نخلّص أنفسنا دون مساعدة، لقد كنا نشعر بإرهاق شديد وقرّرنا النوم حتى يفتقدنا الآخرون ويعودوا للبحث عنا، فأخذتُ فترة المناوبة الأولى.

لقد كان البردُ قارساً مروّعاً، وبسبب استعجالنا للرّحيل لم نأخذ معنا بطّانيات،

---

(1) الواضح لم يبيّن لنا المؤلف جنسيّة زميله الطبيب ناجي، فهل هو اسم مستعار كاسم سلامة؟ يناديه هربرت ناجي باللفظ المصري: Nagy.

متصوّرين أننا نُدعى لمعالجة ضحايا حادث قد وقع في مكان ليس ببعيد عن الهفوف. أخذتُ بالحركة صعوداً وهبوطاً لأحافظ على دِفء جسمي. بينما اقترب الطبيب ناجي والسائق بعد أن كانا قد تمدّدا على مبعدة عن بعضهما، وهم يلتمسان الدّفء كالخراف. ثم تسلّقتُ نحو مقعد السائق وأنرت أضواء التوقف، فمن الواجب أن نكون مرئيين عندما يأتون ليبحثوا عنا. عوى ابن آوى في الظلام وردّ عليه آخر. ثم سمعتُ صوتا أشدّ عمقاً وكان صوت ذئب.

نفذ البرد إلى مقعد القيادة وأصبح لا يُحتمل. ثم خرجتُ مرة أخرى باحثاً عن الدّفء بالمشي، ولكن حالما قفزتُ للأسفل، سقط خُفّي مني وكان عليّ أن أزحف تحت الشاحنة لأبحث عنه. وقد جعلني ذلك غاضباً جداً فبدأت ألعن وأسبّ كل شيء وخاصة إهمال السلطات التي أرسلتنا دون أسلحة، أو بطانيات، أو مجاريف، ونحن ننتعل أحذية جلدية رقيقة في مغامرة يُشتمّ منها رائحة حرب.

جفلتُ مرتعباً لدى سماعي طلقة عن بُعد، فقفزتُ وجرحت رأسي بأسفل الشاحنة بينما كنت أزحف نحو الخارج - لقد جُرح رأسي للمرة الثانية في تلك الليلة!

«السيارة الأخرى!» صاح السائق بينما كان يقفز نحو مقعده وبدأ يومض الأضواء الأمامية.

بدأت أضواء السيارة في البعيد تضيء وتطفئ، لقد كانوا يجيبون إشاراتنا، ولم يمرّ وقت طويل حتى وصلت فرقة الإنقاذ، ولحسن الحظ فقد كان لديهم حبل جرّ سحبونا به خارج الهوّة الرّملية التي سقطنا فيها.

كان عُمر مستيقظا كعادته، وقد بدّل مكانه مع الطبيب ناجي ليجلس بالقرب مني بقية الطريق، أما أنا فاستغرقتُ في النوم حالما انطلقنا، كان الوقت تقريباً منتصف النهار عندما استيقظتُ بشعور حارق بالظمأ، وقد آلمني رأسي بشكل فظيع من كدماتي وحرارة الشمس التي لا ترحم، حتى عُمر رمى بعباءته الكتانية فوقه.

«كُن حذراً في استهلاك الماء!» حذّر عُمر. «لم يتبقّ لدينا الكثير».

كنت أشـرب بشراهة من قربة الماء نصف الممتلئة، وكدرس ذي مغزى حول قِرب الماء الفارغة، أشار عُمر خارج النافذة، حيث كانت جيفٌ لخمسة جمال ملقاة بجانب الطريـق، لـم ينقـل راكبوها حتى أسـرجتها الثمينة التي مـا زالت مربوطـة إليها، عندما تابعـوا طريقهـم إلى الأمام بآخر مؤنهم مـن المياه، مدفوعين بأمـل كاذب بإيجاد بركة ماء في مكان ما.

«لقد جفّت برك المياه بالقرب من الفوقا Fouka هذه السـنة بشـكل مبكر جداً» قال عُمـر «الصّحراء مليئة بالجيف، هنـا لا ترى تقريباً حتى الذئاب أو بنات آوى، حيث أن أقرب ماء يقع على بعد مئتي كيلو متر».

إذا كانـت الجمـال التي يمكنها أن تسـير لثلاثة أو أربعة أيـام دون ماء، قد ماتـت من العطش هنا، فليس غريباً أن محرّكنا سـيتعطل عندمـا يخوض في الرّمال الناعمة، ومع القيام بأول أو ثاني تغيير لناقل الحركة. كانت البقع السّـوداء التي رأيناها في الصّحراء تنتهي دائما عندما نقترب منها، لتتحول إلى نسـور تولـم على جيف. صادفنا خلال فترة بعـد الظهـر بقايا قافلة صغيرة في منتصف الطريق، وقد ذبح الرُّعاة حيواناتهم ليشـربوا دماءها، قبل أن ينطلقوا إلى الأمام وحدهم. ثم وجدنا جثثهم على الطريق على مسـافة ساعة.

تلاشـى الطريق فوق تلّة قوراء، واسـتطعنا رؤية الحدود الزرقاء للجبال على يميننا عند الأفق الغائم، فقُدنا فوق أرض حجرية حتى غروب الشـمس تقريباً. ثم عدنا لنسير على الرّمل مرة أخرى. فَرَّ ذئب أمامنا ثم رأينا بعر خراف في الرّمل.

ماء! لا بُدّ من وجود ماء في مكان ما قريب. لا تستطيع الخراف السير لأكثر من يوم بعيداً عن الماء.

كان الظلام قد حلّ حينما وصلنا سلوى أخيراً، مخفر حدود سلوى، النقطة الحدودية السـعودية على الخليج العربي - مجموعة من الخيام الممزقة وبعض أكواخ القصب، لكنها احتوت بعض النخيل القزمي وبئر ماء مالح أنقذ حياتنا.

كانت الأسماك معلقة بصفوف طويلة لتجفيفها، لقد كان من الرائع بعد كل الرّمل الذي رأيناه والعطش الذي عانيناه، أن نرى مرة أخرى المكان الذي يمكن أن تعيش فيه الأسماك، وفي بيت شيخ البلدة (العُمدة) *omdeh* كان بمقدورنا أن نتعافى إلى حد ما بعد كل ذلك الإجهاد العصبي الذي عانيناه في رحلتنا. واكتشفنا هناك بعدما شربنا أكواباً من الشاي المنكّه بالقرفة بأن القوة الخاصة بالحملة التي كنا نقصد البحث عنها قد بدأت رحلتها قبل يومين من مخفر الحدود صوب واحة البُريمي.

لاحظ عُمر بعينه الخبيرة الذي لا تفارقه وجود شاحنة خاصة بالحكومة ذات دفع رُباعي أمام كوخ العُمدة، وقد طلبها لاستخدامنا، وبعد قليل من النقاش وافق ابن العمدة على أن يأتي معنا ويقودها.

تابعنا رحلتنا أثناء الليل، وكنتُ في السيارة الثانية. ومن وقت لآخر كانت أنوار سيارتنا الأمامية تنعكس على مؤخرة الفورد أمامنا والتي كانت تقود الموكب فتكشف لنا البدو، الذين أزالوا سدادات فوهات بنادقهم وقاموا بمراقبة جانبي الطريق. لم تعد القوانين الصارمة للدّولة السعودية تحمينا بعد الآن، فقد أصبحنا أعداءً ومتطفلين. ألقينا نظرة قصيرة على مخيّم بدويّ صغير بدا أكثر بؤساً وفقراً من المستوطنات الأفقر في مصر والسعودية، ثم لمحنا جملي ركوب نحيلين مربوطين بحبل أمام خيمة، قد اندمجا بغرابة في الصورة. كنت أتساءل من هم الزوّار، لم يعنني الأمر وتابعنا طريقنا للأمام.

عندما كشف الضوء الأول للفجر المشهد حولنا، وجدنا أن وجه الصّحراء قد خضع لتغيير. فقد استحال الرّمل الصافي الذي كنا نخوض فيه إلى لون قرميدي أحمر. لقد كنا في الرّبع الخالي، وهي منطقة هائلة ومنعزلة خالية من أيّة حياة نباتية.

تلاشت الطرق منذ زمن، وشقت كل شاحنة طريقها بين أو فوق الكثبان التي تجاوز ارتفاعها أحياناً 600 قدم، تدبّرنا أمر بقائنا معا نوعاً ما، حتى نكون قادرين على مساعدة بعضنا في حال التعطل. تجسّد الخطر الذي كنا نستشعره في هيئة ابن العمدة، الذي كانت سيارته المتعدّدة المزايا بإطاراتها الضخمة المنفوخة ملائمة للقيادة عبر الرّمل

الناعم، ويجدر بها أن تقود الموكب، لكنها في الحقيقة تابعت التباطؤ بشكل مطّرد في الخلف، كان من الواضح أن الشخص فضّل أن نكون في المقدمة في حال حدث عند وصولنا إطلاقُ نار من قبل البدو. وضع عُمر نهاية لهذه الطريقة في التأمين على الحياة من خلال الجلوس بجانب الشاب والإصرار على تولّيه القيادة، بينما طلبتُ من زميلي ناجي أن يأتي ليجلس بجانبي.

اشتدّت الريح عند الظهر، كانت خفيفة في البداية، ثم بدأت أعمدة من الرّمال تهبّ على قمم التلال الرّملية وانتشرت فوق الصّحراء المتموجة كخمار أحمر. لكن الريح لم تتسبّب بهبوط في درجة الحرارة. كانت الرّمال تتدفق عبر النوافذ المفتوحة في تيّار لاذع إلى أن أصبحت الحرارة داخل السيارة غير محتملة. «عاصفة رملية!» قال سائقنا، مقطباً وجهه ومشيراً إلى الشمس، التي بدت مثل كرة حمراء متوهّجة خلف ستار من الرمل.

وسرعان ما اختفت بمجملها، لتندفع موجة بنّية محمرّة عالية بارتفاع منزل بكل قوّة نحونا، ولم تترك أمامنا الوقت إلا لنسحب أغطية رؤوسنا أمام وجوهنا، قبل أن ندخل في غياهبها. كانت ظلمةً حالكةً كالليل.

كان الإعصار يحمل الرّمل ليعصف به بحركة دورانية هائلة في الهواء الذي كان كثيفاً جداً، حتى أننا شعرنا وكأننا نُدفع إلى جانب كثيب، رفعنا النوافذ، إلا أن الرّمل الناعم وجد طريقه نحو الداخل عبر الشقوق ونفذ إلى أثوابنا وأغطية رؤوسنا، وكسا أجسادنا المجلّلة بالعَرَق. وخلال عدّة ثوانٍ التصقت عيناي ببعضهما وأجبرني الألم على أن أدفن رأسي في تجويف مرفقي.

أخفى السائق رأسه على عجلة القيادة واستمرّ بالقيادة كأعمى يسير في الظلام. فعلى الرغم من أن الأضواء الأمامية كانت مضاءة لم يكن بالإمكان رؤية أيّ شيء.

فجأةً، توقفت حركة ارتطام العربة وارتجاجها.

«لا تتوقف، أيها الأبله». صرختُ بأعلى صوتي «إذا علقنا الآن، فلن نخرج أبداً».

ردّ صارخاً: «لقد توقف المحرك».

لقد انسدّ أنبوب البنزين، فلم يبق أمامنا إلا أن نجلس مترقّبين معاً وتركنا العاصفة تفعل أسوأ ما لديها، وبعد برهة، شعرنا بأننا لا نستطيع أن نستسلم ببساطة لثورتها، بعد أن امتلأت فتحات أنوفنا وحناجرنا بالرمل، ولم أعد قادرا على التنفس فسحبتُ الباب وسمحت لتيار هوائي من جهنم أن يدخل، وعندما حاولت بيأس أن أغلقه ثانية، اندفعتُ بالكامل متدحرجاً خارج السيارة.

لأكثر من ساعة كنا في معمعة الجحيم، وفجأة انتهى الأمر كله تماماً كما بدأ.

بدأ الضوء يعود ببطء، وكأن النهار بدأ يبزغ، حدّقنا بأعين ملتهبة إلى المنظر، وبدأ ناجي يغرف الرمل خارج قمرة السائق، فيما حاولت أنا والسائق أن نعيد المحرّك إلى العمل، لكن في حقيقة الأمر كان علينا أولا أن نجد المحرك الذي اختفى تحت طبقة سميكة من الرمل الممزوج بالزيت والبنزين في كتلة خارجية زفتية صلبة، جرّفنا الرّمل بعيداً بأيدينا - وهي الأدوات الوحيدة التي نملكها - وبعدما انقضت ساعتان نجحنا في أن نحرّر المحرك والعجلات. وقد أذهلنا أن العجلات بدأت بالحركة حالما قمنا بتشغيل المحرك.

لكننا لم نبتعد كثيراً في طريقنا إلى الأمان، كنا وحيدين تماماً، ولم يكن هناك أيّ أثر للسيارات الأخرى. كنا نسير بشكل متعرّج إلى اليمين واليسار دون هدف، ثم حاولنا أن نحدّد مسارنا حسب موقع الشمس وتابعنا السير بجدّ فوق الكثبان.

وبصورة مفاجئة انحرف سائقنا بعنف فتسبب بصدم رأسي مرة جديدة، فصرختُ عليه لينتبه. ولكنه قد رأى قبل أن انتبه أنّ نهاية الكثيب كانت تهوي بشكل عمودي تقريباً، ولو لا سرعة بديهته لكنا تشقلبنا أسفل المنحدر.

ثم أمسك ناجي بذراعي وأشار إلى شيء ما على قمّة كثيب.

«انظر هناك»، قال.

«ربما هو واحد من جماعتنا».

«أو واحد من الجانب الآخر».

تابعنا التقدّم نحوه.

«بأية حال، انه بدوي» أضاف السائق.

«لماذا، هل كنت تتوقع أن ترى رجلاً من الإسكيمو؟» قال ناجي بخبث.

«انه يلوّح لنا».

«نعم، انه يلوّح حقاً، لكن ربما يشير إلى رفاقه».

نزع الرّجل الواقف على قمّة الكثيب عباءته البيضاء من على كتفيه وبدأ يلوّح بها، وفي الحقيقة وبعد رحلة كهذه، كنتُ سعيداً فعلاً بأن أرى كائناً بشرياً، وتمنّيت بتوق أن يكون أحد رجالنا.

أخبرتُ السائق أن يقودنا للأعلى إليه. لم يكن أحد رجالنا ولكنه كان مع ذلك، سعودياً.

«الحمد لله أنكم وصلتم بسلام!» قال الرجل، بابتسامة عَلَت وجهه وصعد إلى شاحنتنا.

«كنا خائفين أن تكونوا قد ضللتم طريقكم. ولهذا السبب عيّنّا حراساً على كل الكثبان ليدلّوكم إلى الطريق».

امتدّ أمامنا منخفض طويل مسطح توقفت فيه ثماني شاحنات على شكل مربّع، كان هناك دستة من الخيام الطويلة بجانب بركة ماء ضحلة، «عين ظهر» Ain Dahr مكان توقفنا، كان أحد منابع الماء السرّية الكثيرة، حيث لا يرتفع الماء إلى السّطح ولكن يجب أن يُستخرج بالحفر، كان قانوننا غير المكتوب بأن كل مُستخدم عليه أن يُغطي بحذر بركة الماء بالرّمل قبل الرّحيل.

تُركت الخيام مفتوحة من جميع الجوانب بسبب الحرارة الشديدة، والتي لم تستخدم إلا للحصول على الظل.

كانت رُزم من البنادق في حقائبها الجلدية مربوطة إلى أعمدة الخيمة.

وصلنا تماماً عند ساعة صلاة العصر، ووجدنا أربعةً من البدو ساجدين باتجاه مكة.

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

جلسنا أنا وناجي في ظل الخيمة حتى انتهت الصّلاة[1].

* * *

(1) هذا إذن دليل على أنّ ناجي الطبيب الآخر كان أجنبياً لا عربياً.

26 - «حادثة سير»

صافحنـا الأمير تركي قريبُ أميرنـا، والذي قاد الحملة على البُريمي، باليد بترحاب شـديد وهو يحيّينا لدى وصولنا بكلمة مرحبـا المألوفة، وبعدها قام بتعريفنا على ثلاثة مـن المواطنين من أصحاب النفوذ في الواحة. كانوا محمود الرّومي، وخالد الرّويس، ومُطلق عبد الرّازق.

وقبـل أن نقبـل دعوته إلى الشـاي، طلبت أنا وناجي أن نرى الأشـخاص المصابين والذين بسـببهم قدمنا إلى هذه المنطقة المجهولة، كنـا خمّنا من قبل طبيعة «الحادث» الذي نتجت عنه إصابتان بجروح من طلق ناري، لم يكن أيّ منهما خطيراً. كان الرّجلان الجريحان كلاهما قادرين على الحركة، ونصحتُ في الحال أن تُعدّ التحضيرات لرحلة العودة.

وللتوّ تولى عُمر مهمّة تعبئة السّيارات من حاويات البنزين التي أحضرناها معنا.

اسـتخدم الطريقة القديمة بإدخال خرطوم مطاطي طويل في ثقب الحاوية وسحب البنزين بالشـفط إلى خزان السـيارة، سـاعده أثناء تلك العملية أحد السـائقين واثنان من البدو، لكن لم يفكّر أحد منهم بإزالة السيجارة من فمه.

«معلـش»، قـال أحدهم، عندما وبّخته، قـال عُمر: «إذا كانـت إرادة الله، أن البـنزين سـينفجر...» ولم أنتظر حتى أسـتمع إلى نهاية جملته بل مشـيتُ مسـرعاً إلى الخيمة. وعلـى مـا يظهر أنها لم تكن إرادة الله بأن ينفجـر البنزين. ومع ذلك، فعندما عدتُ إلى خيمـة الأمير تركي، وجـدت جواً من الانفجار يغلف المـكان، كان الرجال الثلاثة من البـدو أبعـد ما يكونون عـن الاتفاق بالإجماع، أما أنـا فكنت مُنهكاً تمامـاً من الرحلة،

وكان آخر ما أفكر به مشكلة ملكية الواحة. لكنني لم أكن مُنهكاً جداً لألحظ بأن كل واحد من الوجهاء الثلاثة كان يرتدي عباءة سوداء جديدة تماماً لها حاشية مذهبة، وخنجر مُرصع وساعات يد ذهبية مع أحرف مطلية بالمينا الخضراء، وأغطية رأس حريرية مطرزة وأحذية جديدة، وقد بدا جلياً أن هذا الزيّ المتطابق كان مِنحة من ملك العربية السعودية.

وقد تبيّن لي أنّ هؤلاء المواطنين الثلاثة الموثوق بهم قد زاروا الملك المسنّ في الرياض وقاموا بقليل من الرّياء والمداهنة، ولا يحتاج المرء لكثير من الذكاء لكي يخمّن بأنهم استجدوا باسم أصدقائهم المواطنين الحماية والمساعدة ضد... نعم، ضد من؟

بدا وكأنها النسخة الصحراوية لمعاهدة الآنشلوس[1] Anschluss.

«هل تريد مزيداً من الشاي أيها الطبيب؟»، قال تركي.

فناولتُ كأسي إلى الخادم.

«أتصوّر أن نسأل الطبيب رأيه»، اقترح محمود الرّومي، الذي له تقاطيع ناسك شرس بعينين متوهجتين لمتعصّب بوجه شاحب شحوب الأموات. «وجهات نظر الطبيب في هذه المسألة ستكون عادلة بالتأكيد».

«ما الذي تريد أن تسألني عنه؟» قلت، مع أنني كنت أعلم جيداً جداً موضوع قضيتهم.

«حسناً، هل تظن أن إلحاق واحتنا بالسعودية سيكون في مصلحتنا أم لا؟».

لم أستطع أن أقول لهم إن ذلك الأمر هو أدنى اهتماماتي، فقد علّمتني السنوات

(1) آنشلوس بالألمانية تعني الانضمام، وهو اسم المعاهدة التي تمّ بموجبها ضمّ دولة النّمسا إلى ألمانيا الكبرى على يد ألمانيا النّازية، في 13 مارس من عام 1938، ولقي هذا الانضمام في حينه ترحيباً كبيراً من قبل الكثير من النمساويين. وهذا التعبير يقال اختصاراً لعبارة: Anschluss Österreichs أي: انضمام النّمسا.

التي أمضيتُها في الشـرق الانتبـاه والحذر ومراعاة قاعدة الأمان أولاً. وبهذه المناسـبة وجـدتُ أنه مـن الملائم أن أحلب فـي إنائهم، ووفقـاً لذلك أفقد أبديـتُ وجهة النظر بـأن الوحدة مع المملكة السّـعودية القوية سـتعود بالنفع على سـكان البُريمي - فوائد السّلام، والحرية، والازدهار.

«أحسـنت القـول، أيهـا الطبيب!» قـال تركي مع إيماءة استحسـان وابتسـامة ودّية. «يجب ألا ننسـى أبداً بأن سـكان الواحة شـعروا دائمـاً بأنهم ينتمون إلى أسـرتنا، كما أنهـم وقفوا بإخلاص بجانبنـا في الصّراع ضد المسـتعمرين البريطانيين، وعزموا على أن يسـتقلّوا عن حكم حكومة عُمان. وهكذا فإنّ السّـلم والازدهار سوف يعودان الآن إلى البُريمي.

أعلنت الحرّية عن نفسها بانفجار خافت من بعد.

«بنادق دَكّ» قال تركي مبتسـماً. ثم أضاف وهو يزمّ شفتيه: «مجموعة لصوص».

اسـتطعنا لبرهة أن نسمع الانفجارات الأكثر حدّة لبنادق عـاكرنا، ثم انقطع إطلاق النار.

«لقـد أفرغوا أسـلحتهم وعليهـم أن يلقّموها ثانية»، قـال تركي مُعلقـاً على الهدوء المؤقت، «لكني أتوقع بأنّهم اكتفوا وهم الآن ينسحبون».

يبـدو أنه ليس محقـاً تماماً فيما يتعلـق ببنادق الدَّك، حيث بـدأ الإطلاق من جديد، وبـدا أن القعقعـات الحـادة التي سـمعناها كانت آتية بشـكل واضح من بنـادق حديثة سريعة التلقيم.

«يبـدو أن هناك الكثير من اللصوص في الجـوار»، قلتُ مُقاطعاً بينما هبّ البدو من تعبهم وقد ثارت هممهم

، وقـد اسـتمعنا بيقظة إلـى صخب القتـال الذي لا يمكـن أن يكون أبعـد من ميل. وعندها فُكّت البنادق من سواري الخيمة وسُـحبت خارج حقائبها الجلدية.

وسرعان ما جاء بدويان يتعثّران بأسفل الكثيب أمامنا وهما يسحبان رجلاً جريحاً بينهما ويصرخان: «لقد هاجمونا، وسقط إمام Imam».

أخذنا ناجي وأنا نعتني بالرّجل الجريح، ووصف البدويان بسرعة ما قد حدث، وخلال دقيقة دبّت الحركة في المخيّم فأصبح كخليّة نمل هائجة، لم يكن أمام تركي بالتأكيد أيّ سبب للتذمّر من انخفاض الرّوح القتالية عند رجاله، الذين اندفعوا جميعاً بعد أن اختطفوا أسلحتهم غير عابئين بالأوامر إلى المنحدر شديد الوعورة.

«توقفوا!، انتظروا، انتظروا! يا ملاعين».. صاح تركي في إثرهم، لكن الأمير ابن المدينة لم يكن يمتلك شيئاً من مواصفات القائد العسكري بأيّ حال، وكل ما فعله هو أن استبقى ثلاثة رجال بعد أن تمكّن من إعادتهم وناشدهم أن يبقوا ويحرسوا المعسكر. ثم أمسك بندقيته وركض خلف قوّاته.

أصيب الرجل الجريح بطلق ناري اخترق الرئة وكانت حالته خطيرة، ولا يمكننا فعل الكثير اللهم إلا تخفيف الألم، ودون أمل كبير بإنقاذه مددناه على الرّمل في ظل الشاحنة. مسح ناجي الدّم عن يديه بجلاّبيته، ونظر حول المخيّم، وقال: «ثلاثة حراس، طبيان أعزلان وثلاثة جرحى! إذا جرّب أصدقاؤنا الآن خدعتهم المعتادة، وقاموا بقليل من حركاتهم في موقعنا النائي وهاجموا المخيّم، فستكون تلك نهايتنا».

عبّرتُ عن شكوكي. «هذا النوع من التكتيك يستخدم فقط في معارك الصّحراء، لإغراء العدو بالخروج من المخيّم بهدف نهب المخازن واغتنام النساء والجمال بالقوة. لكن الناس الذين يهاجموننا يعلمون بشكل كامل بأنه لا شيء يستحق النهب في المخيّم، هدفهم فقط هو أن يُبيدوا الحملة».

«إذا أرادوا أن يفعلوا ذلك» قال ناجي، «فما عليهم إلا أن يحرقوا السيارات، لا يمكنهم اختيار طريقة أكثر فعالية. دعنا نأمل ألاّ يحصل ذلك».

ومن باب الحرص، أمرتُ الحرّاس الثلاثة بأن يجمعوا كل الأسلحة والذخيرة الحربيّة المتوفّرة، ووجدنا أنه مع أسلحة الرّجال الجرحى، فإن لدينا خمس بنادق

مـاوزر[1] ومسدساً واحـداً، مع ثلاثيـن طلقة لـكل بندقية ومخزن مع ست خراطيش للمسدس. قليل جداً، لكن ذلك كان أفضل من لا شيء.

في تلك الأثناء، قام ناجي بتقريب السيارات من بعضها وذلك لحصر المساحة التي يتعيّن علينا الدفاع عنها، أعددنا قوة دفاعنا الهزيلة تحت الشاحنات، واستلقينا على الرّمل الأحمر محدّقين إلى المنحدر الذي يحيط بنا، ولم يبتعد بصرنا عن المنحدر الجنوبي، بينما استلقى بيننا مريضنا المصاب بالرئة، بحيث يمكننا الاعتناء به إذا اقتضت الحاجة، وقد استلقى صامتاً على ظهره، كان وجهه يتمعّر بالألم والخوف وتنفّسه يزداد سرعة داخلاً وخارجاً من رئتيه، فيما كان يحدّق إلى الترس التفاضلي للسيارة فوق رأسه.

«أتمنى ألاّ يُحرم واحدنا من الآخر» قال ناجي بهدوء دون أن يدير رأسه. «طالما أن أحدنا بخير فكلانا لديه الفرصة للنّجاة، ولكن مَن تُراه سيساعدنا إذا جُرح كلانا؟».

هل كنتُ لأستحضر فعلاً صورة بغيضة كتلك في لحظة كهذه؟ تحسّستُ في جيوبي باحثاً عن سيجارة، لكني لم أجد واحدة.

«هل معك سيجارة؟» سألتُ ناجي.

ودون أيّة كلمة رمى لي بواحدة.

«لاشيء لدي لأُشعلها به».

فرمى بولاعته نحوي.

لم يتسنَّ لي أن أشعلها أبداً، ففي تلك اللحظة اخترقت رصاصةٌ الجانب المعدني للشاحنة متسبّبة بشرخ كبير، وبعد ذلك مباشرة سمعنا دويّ الرّصاص يلعلع في الكثبان خلفنا. رميتُ بسيجارتي والولاعة في الرّمل، وحرّرتُ مزلاج الأمان لبندقيتي مراقباً

---

(1) البندقية الألمانية الشهيرة من طراز عام 1898 ذات المغلاق اليدوي Bolt Action الذي يعدّ إلى يومنا الحاضر تحفة في ميكانيك الأسلحة الفردية. عيارها 7.92 X 57 وقد يُشار إليه اختصاراً بـ 8 X 57 وهو ذاته عيار الرّشاش الألماني MG-34 المذكور في هذا الكتاب مراراً.

البدو المنسلّين من المنحدر باتجاهنا، وهم يطلقون صرخات حادّة، ما يزالون بعيدين حوالي 300 ياردة وتابعوا إطلاق النار بشكل كثيف على السيارات المتوقفة بينما هم يركضون، صفّرت الطلقات فوق رؤوسنا وضربت السيارات، أو كانت تتسبب بتطاير الرّمال عندما كانت تطبّ في الأرض أمامنا. أطلق أحد رجالنا طلقتين على المهاجمين.

«أوقف إطلاق النار، يا بعير!» صرختُ، «دعهم يقتربون أكثر». كان ذلك يعني بقاء مجرّد 28 خرطوشة.

كان المهاجمين يقدرون بنحو عشرين رجلاً، إذا استطعتُ أن أحصي بالشكل الصحيح في خضمّ ذلك الهياج كله، مقابل خمسة منا مع 28 طلقة رصاص[1]، وهم الآن على بعد 150 ياردة منا، وقد أزّت بعض طلقاتهم قريباً جداً مع أنهم كانوا لا يزالوا يُطلقون النار دون تحديد هدف، اللعنة. لا بُدّ أن تلك الطلقة قد ضربت خزّان البنزين في إحدى السيارات. تدفّق تيّار ضعيف من البنزين للخارج على الرجل الجريح بالرئة وسحبه الطبيب ناجي عدة ياردات باتجاهه. «اسحبه خلف العجلة»، صحتُ بناجي. ضربت القذيفة المرتدة الإطار الخلفي للشاحنة التي كنا نستلقي تحتها. تدفق الرمل الأحمر متطايراً مع الهواء المهسهس، وزحفتُ خلف العجلة الأخرى للشاحنة. ثم سمعت من الجانب الآخر أحدهم يصيح، «أيها الطبيب، أيها الطبيب! جُرح سعد».

كنت ممسكاً ببندقيتي أمامي، كما تعلّمت في دورة تدريب المشاة، وزحفتُ إلى الجانب الآخر. كان الرّجل الجريح ينزف بغزارة من جرح في فروة رأسه، وبينما كنت ألفّ ضماداً حول رأسه، بقيتُ مركزاً بصري على البدو المهاجمين الذين تفرّقوا إلى مجموعات صغيرة، لا تبعد أكثر من 50 ياردة.

لقد اقتربوا بما فيه الكفاية، صحتُ بالأمر لإطلاق النّار نحو المهاجمين الصّارخين، وسمعتُ فوراً إطلاق بنادقنا.

---

(1) ذكر الكاتب قبل قليل بوضوح أنّ معهم 28 طلقة لكلّ واحدة من بواريد الماوزر الخمس، فالآن يقول إنها كانت جميعها 28 بالإجمال.

«أعطني بندقيتك، أيها الطبيب» توسّل الرّجل الذي أضمّده. «بإمكاني أن أطلق بينما تقوم أنت بتضميدي».

وضعتُ بندقيتي في يده وتابعتُ المحاولة لإيقاف تدفق الدّم من رأسه، أطلق سعدٌ النار، ثم مسح الدّم من عينيه وأطلق مرة أخرى. رأيت أجساداً سوداء ملقاةً في الرّمل أمام السيارة المتوقفة، ورأيت أحد المهاجمين وقد وصل إلى مسافة عشر ياردات منا يرتد برأسه للوراء ثم ينهار على ركبتيه.

«استمرّ بالإطلاق، يا سعد» صحتُ، عندما جرى خُلاسيٌّ طويل مفتول العضلات صوبنا وهو يطلق النار من مستوى خصره، وكان في حزامه خنجر معقوف ذو نصل عريض وهراوة معشقة تتدلّى من جانبه.

لم يجب سعد، بل تعثّر وسقط نحو الأمام فاقداً الوعي في الرّمل وبندقيتي تحته، كافحتُ عبثاً لأسحبها من تحت جسده.. كانت عالقة في مكان ما.

توقف الخُلاسي على بعد عدّة ياردات بعيداً عن الشاحنة وهو يراقب محاولاتي المحمومة بابتسامة هازئة، ثم رفع بندقيته ببطء وصوّب. وفيما كان لا يزال يشدّ بقوة على البندقية، حدّقتُ كأرنب مُنوّم مغناطيسياً في الدائرة السوداء عند فوهة ماسورة البندقية.

ضغط على الزناد، فاصطكّت إبرة الإطلاق.

نظر الرّجل إلى بندقيته وفتح المغلاق، كان المخزن فارغاً، فاشتعل غضباً وقذفني بسلاحه.

ثم هاجمني وهو يجأر ملوّحاً هراوته بيده، فكّرتُ للحظة هل أبقى تحت الشاحنة أو أخرج وأواجهه في العراء، وقرّرت أن أقفز خارج مخبأي وعندما فعلتُ ذلك طارت هراوته المعشقة فوق رأسي وضربت جانب الشاحنة، انحنيتُ غريزياً وقبل أن أستطيع أن أعدّل من وضعيتي قفز الوحش على ظهري.

أسقطتني القوة الدافعة ووزن جسده الثقيل، وكنت محظوظا أن لم تكن لديّ القوة

لأقف لمهاجمته لأنه بالتأكيد سوف يطعنني فوراً في الظهر بخنجره، وعندما تدحرج كلانا على الرّمل دُفن خنجره إلى المقبض.

ومع ذلك، فقد استطاع أن يخرج من دهشته، وهبّ واقفاً مرة أخرى على قدميه قبل أن أستعيد رباطة جأشي.

وعندما قذف بنفسه عليّ مرة أخرى، وخنجره جاهزٌ في يده لتوجيه الضربة، تدحرجتُ كالبرق، لكني لم أكن سريعاً بشكل كافٍ، وعلى الرّغم من أن الخنجر أخطأني وغرز في الرّمل، فقد كان عليّ أن أتحمّل كامل وزن ذلك الرجل القويّ فوقي.

كنا نلهث ونكافح في صمت قاتل من أجل حياتينا. رأيتُ الوريد في جبهة عدوي منتفخاً، ورفع الخنجر مرّة أخرى ليضرب، فلم يكن هناك أسرى في الصّحراء، كان واحد منا فقط سيموت، وكنتُ سأكون ذلك الواحد إذا ما أصاب الخنجر هدفه بدقة، فما كان مني إلا أن أمسكتُ بمعصمه بيديّ كلتيهما ونجحت في إيقاف السّنان على بعد عدّة إنشات عن حنجرتي، لكنه أمسك بمقبض الخنجر بيده الأخرى حتى يتغلب على مقاومة ذراعيّ المتشنجتين وضغط للأسفل بكل قواه، رأيت النصل يرتعش ولا يبعد أكثر من كف عن حنجرتي، شعرتُ أن قوتي تذوي. كان خصمي - كتلة من العضلات - أقوى بنية، وحاولتُ بيأس أن ألفّ ساقي حوله، لكنه انحنى أكثر فوق مقبض الخنجر.

ثم واتتني فكرة فأفلتُّ يدي اليسرى ودفعت بيميني السّلاح بقوة إلى الجانب الآخر نحو اليسار. أدهش عملي الخلاسي وانغرز الخنجر عميقاً في الرّمل بجانب رقبتي، كنت متأكداً من أنني لن أستطيع أن أخلّص نفسي بطريقة أخرى، لقد قمتُ بالشيء الصحيح.

قبل أن يستطيع خصمي أن يتوقف ويوجّه ضربة أخرى، نجحت في أن ألتقط حفنة تراب بيدي اليسرى وقذفتها في عينيه. جأر من الألم وبدأ ينفض الرّمل بأصابع يد

واحدة، فيما ظلّت اليد التي تمسك الخنجر تلوّح في الهواء. فأمسكتُ معصمه بيديّ كلتيهما واقتلعتُ الخنجر منه، وبعدها وجهّت طعنات عمياء دون هدف ثلاث مرّات أو أربع في جسده الضخم الذي انهار علي.

استغرقتُ عدة دقائق قبل أن استجمع قوة كافية لأُدحرج الجسد بعيداً عني. لم يستطع الموت الذي علا وجه الخلاسي الشاحب وشفاهه المزرقة، أن يخفي التعبير اليائس الذي أرهقه أثناء المصارعة.

نزَّ خيطُ دم هزيل من فمه المفتوح جزئياً إلى لحيته، لزجاً ممزوجاً بالرّمل والعرق.

لم أكن بعدُ قادراً على الوقوف على قدميّ، ورقصت شراراتٌ أمام عينيّ فلم أهتم لأيّ شيء كان يحدث حولي، ولم أسمع أصواتاً. بعد بُرهة عندما استعدتُ هدوء نفسي إلى حدّ ما، أطعتُ قاعدة الصّحراء فجرّدتُ الرجل الميت من حزامه العريض والتقطتُ أسلحته: الخنجر والهراوة والبندقية.

كان كل شيء ساكناً بشكل غريب، وتوقف إطلاق النار، كان رتلٌ طويل من الرّجال يسيرون أسفل الكثبان باتجاه المخيّم، هذه المرّة كان جيشنا، يحملون معهم جرحاهم. وبالضحك والأصوات العالية راحوا يروون قصة مغامراتهم، وأظهروا لنا بفخر الغنائم التي استولوا عليها.

وبينما كان البدو يدفنون الموتى، بسرعة ودون مراسم، كنا نحن الطبيبان نعتني بالجرحى.

عندما حلّ الظلام أضيئت النار في المخيّم، وعلتنا قبّة من نجوم متلألئة في السّماء نحو الجنوب. جلس البدو بجانب النار يغنّون: «حلال ما عندنا، ولا زَينات.. إلا دجاجة تنقّ وديك أيضاً».

ابتعدنا ناجي وأنا بطريقة ما عن الآخرين لنكون أقرب من المصابين. كان المنظر الذي نحدّق فيه يتطلّب رساماً: البدو بأثوابهم الفضفاضة وأسلحتهم في أيديهم أو على الأقل في متناول أيديهم، ونار المخيّم الملتهبة المترافصة التي أضاءت وجوههم

الملتحية الدّاكنة، بينما ارتفع في الأفق قمرٌ مكتملٌ بلون أحمر كالدّم.

«مال ما عندنا، مال ما عندنا»، ليس عندي حتى اسم. لأيّة غاية كنت سأموت، إذا اخترق خنجر عدوي حنجرتي؟ في هذه الصّحراء الحمراء المتوهّجة لم يكن أثر الدّم ليبقى أكثر من يوم.

فالآن، رحتُ أحلم مرّة أخرى بأرض يغشى سطوعَ القمر والنّجوم بها حجابٌ من الضباب الرقيق. حلمتُ وتساءلت.

امتدّت إلى كتفي يدٌ، كان عُمر العجوز. «ألا نعودنّ إلى ديارنا، يا حكيم؟».

«نعم»، قلت، «هيّا بنا لنعُد إلى الدّيار».

* * *

27 - وجدتُ وطناً

بعد يوم من عودتنا من الحملة على البُريمي، وجدتُ على طاولة مكتبي رسالةً من زميل سابق كنت خدمتُ معه في المستشفى العسكري في بيروت وبقيت معه محافظاً على مراسلة متقطعة.

بعد أن قرأتُ الرسالة، فكّرتُ ملياً أنني إن لم أردّ عليها فستُلقى غالباً وسينزعج المرسل إذا لم يستلم رداً، أو ربما ستعود إليه مع ملاحظة: «المُرسَل إليه ميت»، في هذه الحالة سينقل زميلي الخبر بأسف إلى معارفي القلائل في بيروت، وسوف أُنسى بسرعة كالجنود البدو الذين دفنّاهم في الرّمل الأحمر بجانب موقف السيارة في البُريمي، ولن يُعنى أحدٌ بإثارة جَلبة حول رجل دون جواز سفر أو شهادة تسجيل، والذي يعدّ عملياً غير موجود.

وبطبيعة الحال، عدتُ وقرأت الرسالة التي بدأت بموجز لأخبار من بيروت، طالما كان من المحتمل أنها تهمّني، وتابعت بهذه المصطلحات: «أصبحتْ مستشفانا للأمراض السارية الآن مستشفىً خاصاً للاجئين من فلسطين تحت رعاية وكالة الغوث والتأهيل الدّوليّة UNRRA. لا يزال العمل صعباً جداً، لكنه أصبح أكثر نظاماً مما كان عليه في أيامك، حقيقة الأمر أن لديّ عمل أكثر ممّا أستطيع أن ألبّيه وليس لدينا اختصاصي أطفال، وهكذا أُلزمتُ بأن أعتني بهذا الفرع، لو أنك فقط كنت هنا، لكانت المشكلة حُلّت بسهولة، ولكن لا أستطيع أن أكف عن التفكير بأننا فقدناك للأبد في الصّحراء...».

«فقط لو كنت هنا!».

الورقة الوحيدة التي أملكها فيما يتعلق بخدمتي في المستشفى الحربي في بيروت كانت بطاقة هوية، وكان لبنان البلد الوحيد الذي دخلتُ إليه بشكل شرعي.

جاءت الرسالة تماماً في الوقت المناسب، حيث توصّلتُ إلى نتيجة أن الأمر لا يستحق كل ذلك العناء المبذول مني، بأن أتابع معيشتي في الصّحراء حتى يذبحني أحدٌ ما أو أن يجلبني إلى نهاية عنيفة مماثلة وأختفي دون أي أثر، «المجدُ للملك»[1].

لم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى توصّلتُ لقرار، فأسرعتُ إلى مكتب البريد وأبرقتُ لزميلي في بيروت.

«قبلتُ الوظيفة. وأرسلت له برقية بذلك».

بعد أسبوعين تسلّمتُ مهمتي الجديدة كطبيب أطفال في البلد الوحيد الذي رحّب بي.

وجدتُ مسكناً في ضواحي بيروت شديد القرب من الامتداد الأزرق للبحر المتوسط. لم أعد أقطن في بيت من قرميد طيني مع اتّخاذ السطح غرفةً لنومي، لكن في بناء متماسك حديث ذي حمام وتدفئة مركزية ومصعد - وهي في الحقيقة الخدمات نفسها التي سأحصل عليها في برلين أو هامبورغ.

بعد ثلاثة أسابيع من استقراري في منزلي الجديد استقبلتُ زيارة رجل مسنّ صغير يرتدي عمامة حاج. اتكأ على عكاز متين ليدعم خطواته المترنّحة، وراح يتنفس بصوت مسموع أثناء تحدثه.

«أهلاً وسهلاً»، قلت. «مرحباً بك، تفضل بالجلوس».

بعد الانتهاء من القهوة والسجائر والحلوى، التي أحضرها خادمي من المطبخ جلسنا لبرهة في صمت، بدأ زائري بعد سيجارته الثالثة، وبالسؤال المؤدّب الذي يتميّز به العربُ عادةً[2]، وجّه سؤاله عن حياتي وتجاربي، فأجبتُ على أسئلته دون

(1) كتب المؤلف العبارة باللاتينيّة: *ad majorem Saudi Regis gloriam*.

(2) ملاحظة طيّبة من المؤلف، من الجميل قول الحق وإنصاف الحقيقة. نعم، نحن العرب أهل

تحفّظ. وبالمقابل سرد لي باستفاضة كبيرة قصة عائلته ورسم صورة معقدة عن شجرة آل حيدر التي تتصل غالباً بأبوينا الأولين في جنّة عَدن، ومن وقت لآخر كان يمدّ يده اليسرى إلى ركبتي ليؤكد كلماته. لم تكن هيئة يده أنيقة فعلياً، فقد تسبّب العمر المتقدّم في إنقاص جمالها، ولم تكن نظيفة تماماً، بل كانت في الواقع يداً مبقعة لصانع أحذية، يمارس عمله في قبو مكان مجاور للمنزل. لكن صانع الأحذية هذا كان شخصاً على درجة عالية من الأهمية لي، إذ كان مريضي الشخصي الأول.

في نوفمبر من العام 1952 اجتزتُ امتحان دولة لبنان للأطباء، وأنا الآن حرّ في مزاولة المهنة، لكنني أحرزتُ امتيازاً آخر أيضاً. فأنا الآن مؤهل لأعدّ نفسي كمواطن من لبنان، وقد رُخّص لي بأن أسافر كلبناني عبر كل الحدود والحواجز الجمركية في العالم - وهو حق لم يُمنح من قبل للدّكتور الألماني بريتسكِه، الطبيب البرليني.

لم يعد هناك أي شيء يمنعني من الطيران إلى برلين لأزور أهلي وابني، من زواجي الأول، والذي يعيش معهم.

لم أرَهم منذ رحيلي إلى جبهة القتال الإيطالية في العام 1944، عندما كان عمر ولدي 18 شهراً فقط. وبعد كل تلك المحن والمعاناة التي تحمّلتُها بكل صبر خلال سنواتي الثماني في الشرق، لست أخجل من أن أعترف بأنني بكيتُ فرحاً عند سماع اللهجة البرلينيّة المألوفة في مطار تمبلهوف Tempelhof، وعندما شاهدتُ ابن العشر سنوات ينظر بحياء إلى رجل، أخبروه، أنه والده.

لم يكن ڤولف ديتريش Wolf-Dietrich يعرفني، وبالكاد استطعتُ أن أميّز ألمانيا. أملتُ أن أجد كل شيء كما أذكره، لكني لم أستطع أن أرى الأرض التي عرفتُها. كانت ألمانيا بالنسبة لي بلداً أجنبياً - وفرانكفورت آم ماين[1] مدينة مجهولة، فقط في برلين كان لدي شعورٌ ما بأنني كنت آمناً في حِرز مدينتي الخاصة. لكن بمجمل الوقت

الأخلاق والتهذيب والحمية والضيافة، لا ريب ولا جدال.

(1) هكذا يسمّي الألمان مدينة فرانكفورت Frankfurt-am-Main نسبة إلى نهر الماين الذي تقع عليه.

الذي أمضيتُه في برلين كنت أخوض عبر مستنقع من المشاكل. نُهبت شقتي عند نهاية الحرب، وولد ابني في ڤارتيغاو Warthegau، وهي تقع الآن في پولندا، ولا أملك وثائق من أيّ نوع لأبرهن أنه كان ابني أو أنني بصفتي والده أمتلك أيّ حق عليه، علاوةً على ذلك، كان أبواي يعيشان في القطّاع الشرقي من برلين، حيث ترفض السلطات كل إذن بمغادرة المقاطعة. وفي صراعي اليائس لأعيد طفلي، استخدمتُ كافة الحيل الممكن تخيّلها لأحمي حقوقي، ولكن حدث ذلك فقط عندما أتت القوى المحتلة[1] لمساعدتي، ونجحتُ أخيراً بالحصول على وصاية الولد وأعدتُه معي إلى بيروت. وكان ذلك في ختام ديسمبر من عام 1952.

أما اليوم فإنّ ڤولف ديتريش يتحدّث ويكتب بالعربية ويُمازح مدرسيه كشاب لبناني أصيل[2]، وكانت شكواه الوحيدة أن والده يعود للمنزل متأخراً جداً وهو مُنهك جداً ليلعب معه.

مباشرة بعد منتصف النهار كنت أعود للمنزل بعد عملي في مستشفى وكالة الغوث والتأهيل الدّولية[3] UNRRA، وعندما أصل أجد غرفة الانتظار عندي مليئة بالمرضى الذين نادراً ما يتركون لي وقتاً لغداء سريع. ربما لا يغادر آخرهم حتى السابعة أو الثامنة، وعلي بعدها أن أتابع جولة من الزيارات التي من الممكن أن تبقيني مشغولاً إلى وقت متأخر من الليل.

ليس لدي وقت لأيّة حياة شخصية، لكني أتساءل إذا كنت مهتماً بأي شيء باستثناء عملي المهني.

أفترض أنه كان عليّ منذ وقت طويل أن أعود إلى ألمانيا لأعيش هناك، لكني في

---

(1) يبدو أنه يعني الأميركيين، وكان على الدّوام معجباً بهم ولا يروق له الإنكليز، شأنه شأن باقي بني وطنه من الألمان.

(2) من الجدير بالذكر أنّ هربرت بعد نشره لكتابه هذا في ڤيينا عام 1956 رُزق في لبنان بابن آخر دعاه روبرت، لكننا لا نعرف إن كانت أمّه لبنانية أم ألمانيّة.

(3) اختصار: United Nations Relief and Rehabilitation Administration.

هذه الأثناء قد استقرّيت وتجذّرت في بيروت، التي أشعر بها الآن كوطني، وإنها لوطنٌ جميل أيضاً.

لـديّ هنا أصدقاء وشُـهرة، لـديّ عملي وإمكاناتـي المهنية التي سـأكافح لأطوّرها فـي محيطي الجديد، علاوةً على ذلك، وبعد سـنوات كثيرة مـن المغامرة الإلزامية إذا أردت، والتي استهلكت حياتي الحالية فيها، أيّ مكان في العالم كان سـيمنحني حياة ممتعة كالتي أعيشـها هنا في بيروت، هونغ كونغ الشـرق الأوسـط، أو سويسـرا البلاد العربية، كستارة خلفية في مسرح حياتي؟

كان فـي غرفة الانتظار بدوٌ بأثواب فضفاضـة، ونسـاءٌ محجبـات، ودروزٌ من الجبل بدينهم السـري. وكنت أحياناً أجدُ بين المرضى سياسـياً سـورياً، أو أحد أصدقائي من السّـعودية أتى إلى هنا لينفق أموال نفطه سـهلة المنال في حياة مُترفة، أو قاتلاً مأجوراً من التلال، يسند بندقيته قبالة خزانة أدواتي قبل أن يخلع ملابسـه لأعاينه.

أظنّ أنه يمكنني هنا أن أخدم ليس فقط البلد الذي أعيـش فيه، ولكن أوروبا وألمانيا أيضـاً، مـن خلال العمـل الذي أقـوم به في وطنـي الجديـد، حيث يدعونـي الجميع: «الحكيم الألماني» *El Hakim el Alemani*.

* * *

فهرس الكتاب

سلسلة روّاد المشرق العربي.. 5
هذا الكتاب.. 7
الطبيب البدوي هربرت بريتسكِه Herbert Pritzke 13
1 - الهروب.. 15
2 - أصبحتُ بدوياً 29
3 - قبيلة الجمال المُسرجة 39
4 - اعتراف ذي الندبة 43
5 - القضية عند تل الكبير... 47
6 - العريف السّابق... 61
7 - أحلام الحشيش.. 79
8 - الحملة إلى خان يونس 85
9 - آمر الصّرف ذو الماندولين.. 103
10 - كوليرا في الصّحراء... 119
11 - اختطاف طبيب 129
12 - رجل يُدعى إبراهيم بيه.. 143
13 - دارة الباشا.. 157
14 - الإخوان المسلمون.. 167
15 - القيادة العامة في يافا.. 179
16 - حرب العصابات... 193

17 - قنابل وبيّارات برتقال 201
18 - الشيخ يرتاب 213
19 - الهروب من يافا 227
20 - عودة إلى الصّحراء 237
21 - طبيب في الهفوف 245
22 - عدالة العربية السعودية 255
23 - القتال عند غدير الماء 263
24 - العبيد 275
25 - الحملة على البُريمي 287
26 - «حادثة سير» 301
27 - وجدتُ وطناً 311

* * *